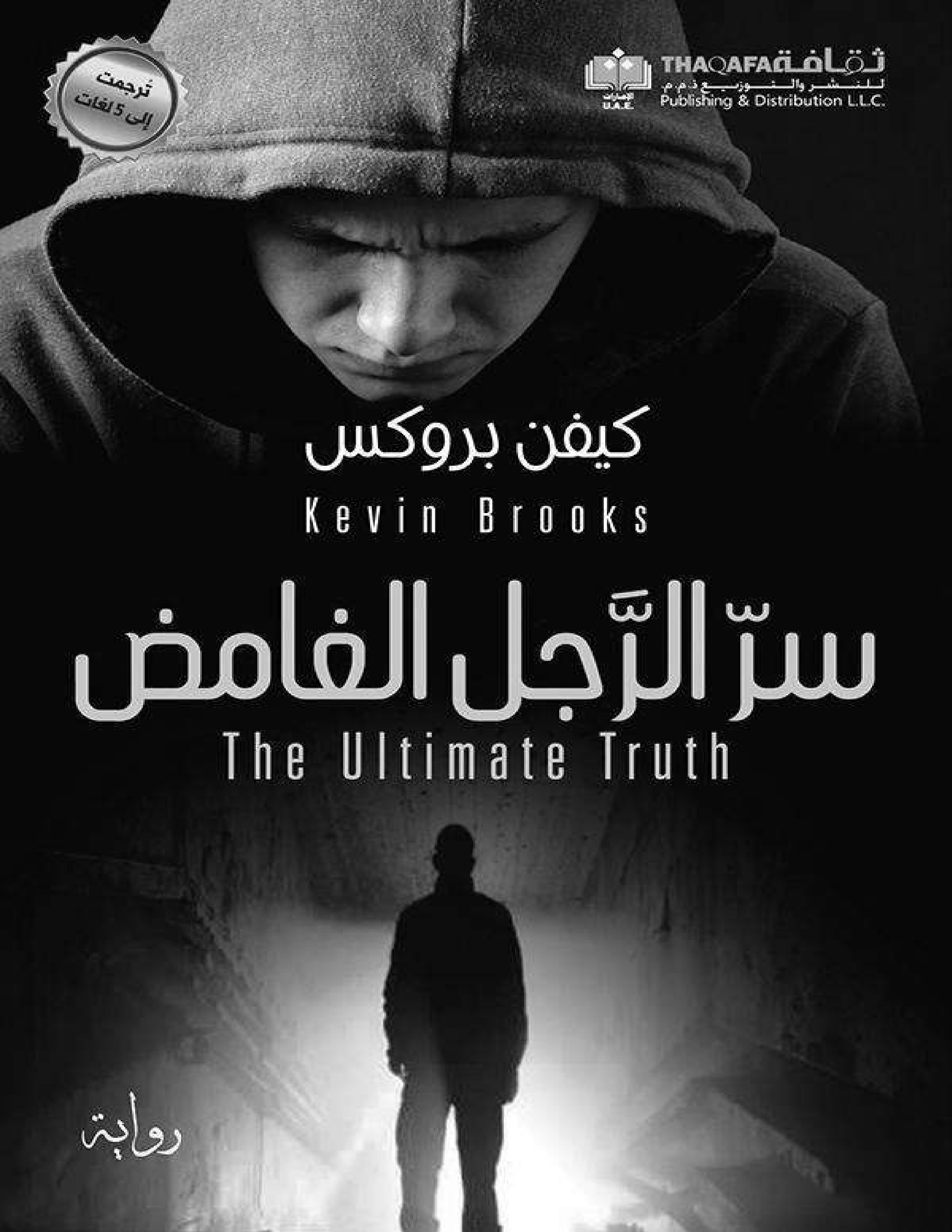
ثقافة THAQAFA
للنشر والتوزيع ذ.م.م
Publishing & Distribution L.L.C.
الإمارات U.A.E.
تُرجمت إلى 5 لغات
كيفن بروكس
Kevin Brooks
سرّ الرَّجل الغامض
The Ultimate Truth
رواية

سرّ الرَّجل الغامض

The Ultimate Truth

كيفن بروكس

Kevin Brooks

ترجمة

حسان البستاني

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

ثقافة THAQAFA
للنشر والتوزيع ذ.م.م
Publishing & Distribution LLC

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

بسم الله الرحمن الرحيم

سر الرجل الغامض

تأليف: كيفن بروكس

ترجمة: حسان بستاني

تمت ترجمة هذا الكتاب بمساعدة صندوق منحة
معرض الشارقة الدولي للكتاب للترجمة والحقوق

ISBN: 978-614-02-2730-9

جميع الحقوق محفوظة للناشرين

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: (+961-1) 785107 - 785108 - 786233
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان
فاكس: (+961-1) 786230 - البريد الإلكتروني: jchebaro@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

THAQAFA ثقافة
للنشر والتوزيع ذ.م.م
Publishing & Distribution LLC.

أبوظبي هاتف: (+971-2) 6766700 فاكس: (+971-2) 6766972
دبي هاتف: (+971-4) 2651623 فاكس: (+971-4) 2653661
بيروت هاتف: (+961-1) 786233 فاكس: (+961-1) 786230

إن دار ثقافة للنشر والتوزيع غير مسؤولة عن آراء وأفكار المؤلف. وتعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة أن تعبر عن آراء الدار.

1

لم ألاحظ الرجل المزوَّد بكاميرا مخبَّأة إلاّ حين لم أعد قادراً على تحمُّل النظر إلى النَّعشَين؛ فقد كنت أنظر إليهما منذ مدة طويلة. إذ منذ لحظة إدخال الصندوقَين الخشبيَّين إلى دار العبادة، وحتى لحظة نقلهما إلى المقبرة لم أرفع ناظرَيّ عنهما. ولكن، لدى تفوّه رجل الدين بكلماته الكئيبة، وتحديقي إلى القبرين، صدمتني الحقيقة مجدداً كمِطرقة كبيرة: أمي وأبي داخل النعشَين.

لقد فارق أبي وأمي الحياة.

يستحيل التصديق، يستحيل تخيُّل الأمر، وقد آلمتني كثيراً الإشاحة بنظري عنهما. وفيما كنت أرفع رأسي ببطء وأمسح دموعي عن عينَيّ، شعرتُ بيد مربّيتي على ذراعي، فنظرت إليها. كانت تبكي أيضاً، والعبَرات تطفح من عينَيها اللطيفتَين. فضغطت على يدها، وابتسمت لها بحزن، ثم استدرت نحو جدّي الذي كان يحدّق إلى الأمام مباشَرةً، وهو عالي الرأس، ووجهه الكَهل مُثقَل بالحزن.

كان رجل الدين يؤدي طقوس الدفن وهو يدعو، فيما بعضُ المشيّعين الآخرين يتمتمون معه. حدّقت إليهم بخواء ذِهنيّ؛ مميِّزاً بغموض الوجوه المألوفة، وعندئذٍ رأيت الرجل المزوَّد بكاميرا مخبَّأة.

لم أعلم في بادئ الأمر بوجود كاميرا مخبَّأة معه، حتى إنني لم أكن أعي أنني أنظر إليه. كنت فارغ الذِّهن، وأحدّق فحسب، غير مُدرك في الواقع لما أراه. لم أبدأ بإيلائه المزيد من الاهتمام إلا عندما أطلّت الشمس من وراء السُّحب للحظات، ولمع وميضُ ضوءٍ صادر من أحد أزرار بذلته.

إنه طويل القامة نوعاً ما، شعره رماديّ قصير، وعيناه رماديّتان فولاذيّتا اللون، وكان يقف قرب أصدقاء قُدامى لوالدَيّ منذ زمن الجامعة. أدركت أنه لا ينتمي إليهم؛ فكلّهم في سنّ أمي وأبي نفسها تقريباً- أواخر العقد الثالث وأوائل العقد الرابع- ولكنه في الخمسين على الأقل، وربما أكبر سنّاً بقليل. وأنا أعرف كل أصدقاء أمي وأبي، وكل الحاضرين في الجنازة، ولكن لم يسبق لي أن رأيت ذلك الرجل. كانت سنه هي الفارق الوحيد الذي يميّزه عن الآخرين. وهناك أمر آخر أيضاً، شيء ما بشأنه خارج عن المألوف...

بعد ذلك، لمع زرّه مجدداً كحبّة زجاج بالغة الصِّغر، فعلمتُ فجأةً ماهيّته. سبق لي أن رأيت آلات تصوير على شكل زرّ. وقد استخدم والدي إحداها مرّات قليلة، وأراني إيّاها، وسمح لي باستعمالها. إذ كان أبي يحب أن يُريني كيف تعمل التجهيزات.

أبي...

أمي.

وتفجّرت ذِكراهما في داخلي، مالئةً عينَيّ بالدموع مرة أخرى، فأصبح كل شيء مبهَماً في الدقائق القليلة التالية.

انتهت الطقوس الدينية، فهدأت المقبرة وسكنتْ. كان مطر صيفيّ خفيف قد بدأ بالهطول، فشرع الناس بالمغادرة، مجرجِرين خُطاهم بارتباك أثناء ابتعادهم عن القبرين واتجاههم نحو سياراتهم.

وضع جدّي يده على كتفي.

ومسحتُ عينَيّ ونظرت إليه.

«هل هناك ما تريد قوله يا ترافيس؟». سألني برِفق.

لم يكن بإمكاني التفكير، فقد كنت أشعر بخواءٍ ذهني. حملقتُ حَولي، باحثاً عن الرجل ذي العينَين الرماديّتَين فولاذيّتَي اللون، ولكنني لم أرَ أي أثر له.

وحدّقتُ إلى القبرين حيث يرقد والداي. هناك أمور كثيرة أردت قولها، ولكنني لم أجد الكلمات المناسبة. فأغمضتُ عينيّ، متخيّلاً الكلمات المنقوشة على شاهدَتي القبرين:

جاك ديلاني
ابن محبوب، زوج ووالد
توفّي في 16 تموز 2013 عن عمر 38 عاماً
أُرقُد بسلام

إيزابيل ديلاني
ابنة محبوبة، زوجة ووالدة
توفّيت في 16 تموز 2013 عن عمر 37 عاماً
ارقُدي بسلام

ماذا هناك سوى ذلك لِيُقال؟

ورأيت الرجل رماديّ العينَين مرة أخرى أثناء عبورنا مرأب السيارات الخاص بدار العبادة متجهين إلى سيارة جدّي. كان واقفاً بجانب سيارة بي أم دبليو سوداء، ذات نوافذ قاتمة اللون نوعاً ما، وهو يتحدث عبر هاتف محمول. عندما وصلنا إلى سيارة جدّي، أنهى اتصاله الهاتفي، وفتح صندوق سيارته مُخرجاً منه مِعطفاً. وفيما كان جدّي يبحث عن مفاتيح السيارة في جَيبه، أخرجتُ هاتفي المحمول، وشغّلته، ووضعته على وظيفة التقاط الصور. كان الرجل قد ارتدى معطفه، ويُغلِق الصندوق. وعندما رفعتُ هاتفي وقرّبتُ صورته، رأيته يُلقي نظرة سريعة عليّ. تسمّر في مكانه للحظات، وعيناه الباردتان تحدّقان إليّ عبر شاشة الهاتف المحمول، فالتقطتُ صورة له بسرعة. وبعد ثانية من طقطقة كاميرا الهاتف، اعتقدتُ أنه يومئ لي برأسه.

سمعتُ جدّي يقول: «ماذا تفعل يا تراف؟».

فهمهمتُ، وأنا أضع هاتفي المحمول جانباً: «لا شيء».

نظر جدّي إلى سيارة البي أم دبليو، ولكنه لم يرَ شيئاً. إذ كان الرجل قد دخل السيارة وأغلق الباب، وبات وجهه غير واضح وراء الزجاج الداكن. واصل جدي التحديق إلى البي أم دبليو للحظات قليلة وهو متجهّم الوجه، ثم استدار نحوي.

وقال فاتحاً الباب الخَلفي لسيارته: «هيّا يا بُنَي. لِنذهبْ إلى المنزل».

كان أبي وأمي يديران مكتب تحقيقات خاصاً وصغيراً يدعى ديلاني وشركاؤه. لقد أسس جدّي مكتب التحقيقات بمفرده عام 1994، وشرع أبي وأمي بالعمل لديه بعد عامَين، أي بعد مغادرتهما الجامعة مباشَرةً. وبعد عشر سنوات، اعتزل جدّي العمل، وأدار والداي المكتب معاً مذاك الحين. لم يكن معظم ما قاما به فاتناً أو مشوّقاً- ملاحقة التعويضات من شركات التأمين المتملصة من الدفع، والاهتمام بأمن الشركات، وتتبّع آثار شهود ومَدينين- وبالرغم من تورّطهما أحياناً في أمور غامضة، إلاّ أنه لم يسبق لي أن قلقتُ على سلامتهما. فقد كانا يجيدان عملهما إلى حد كبير، ويعرفان ما يفعلانه، ولا يجازفان إلا إن دعت الحاجة إلى ذلك. لذا، لم يخطر ببالي قط أنهما قد لا يعودان إلى المنزل ذات يوم. فهما أمي وأبي، وهما يعودان إلى المنزل على الدوام.

ولكن، قبل أسبوعَين، أي يوم الثلاثاء الواقع في 16 تموز/ يوليو، لم يعودا.

لن أنسى ذلك اليوم أبداً.

إنه اليوم الذي توقّف فيه العالم عن الدوران.

عدت من المدرسة إلى المنزل في الوقت المعتاد، أي قرابة الساعة الواحدة والنصف. وبعد أن استبدلت بذلتي الرسمية بملابس أخرى وتناولت بعض الطعام، أخبرني أبي وأمي أنهما سيتوجهان إلى لندن في تلك الليلة ولن يعودا حتى اليوم التالي.

قالت أمي مُلقيةً نظرة سريعة إلى ساعتها: «نحن آسفان يا تراف. أعرف أن الأمر مفاجئ قليلاً، ولكنْ طرأ أمر ما، وعلينا السفر إلى لندن في أسرع وقت ممكن. سيتوجب عليك البقاء مع جدّتك وجدّك الليلة».

فقلت: «ولكنّ اليوم هو الثلاثاء. وهو يوم تدرّبي على الملاكمة».

فقال أبي: «لا يزال بإمكانك الذهاب إلى النادي. سيصطحبك جدّك».

فقلت: «إنه لا يحب الملاكمة، ويعتبرها للأشخاص غير الأسوياء».

فابتسم أبي وقال: «اذهب وأعِدّ حاجياتك، اتفقنا؟ علينا الانطلاق في غضون دقيقة، وسنُنزلك في طريقنا عند جدّتك وجدّك».

غريب كيف تعمل الذاكرة. أعلم أنني لا بد أن أكون قد صعدت إلى غرفة نومي في الطابق العُلوي، ورميت أشياء قليلة داخل حقيبة ظهري- كفرشاة الأسنان، والبيجاما، وقفّازَي الملاكمة، وسروال قصير- ولكنني لا أذكر أبداً كيفية قيامي بالأمر. فما أستطيع تذكّره هو أنني عندما نزلت إلى الطابق السُّفلي، وخرجت لوضع حقيبة الظهر في السيارة، رأيت أمي وأبي واقفَين في الطريق الخاص بالمنزل وهما يتجادلان. كان أحدهما يصيح في وجه الآخر، أو ما شابه. لم يسبق لهما أن قاما بذلك. في الواقع، لم يكن جدالاً بل كان خلافاً طفيفاً في الرأي. فقد أرادت أمي الذهاب بسيارتها إلى لندن، فيما أراد أبي الذهاب بسيارته. فسيارة أمي الفولفو مزوَّدة بجهاز أوتوماتيكي لنقل الحركة، وهي أكثر توفيراً للراحة من

سيارة أبي القديمة. ولكنّ سيارة أمي مركونة في المرأب، في حين أن سيارة أبي مركونة على الطريق الخاص بالمنزل. لذلك، إذا قررا الذهاب بسيارة أمي، فسيتعيّن على أبي تحريك سيارته في الاتجاه المعاكس، وركنها في الشارع بانتظار قيام والدتي بإخراج سيارتها من المرأب، ليعيد سيارته إلى مكانها.

حينها قال أبي: «إن في ذلك إضاعة للوقت ليس إلا».

فهزّت أمي رأسها: «لن أقود قطعة الخردة الخاصة بك كل المسافة إلى لندن».

فأجاب أبي: «ربما كانت خردة، ولكنّ لونها معقول على الأقل».

كانت سيارة أمي صفراء زاهية؛ فالأصفر هو لونها المفضَّل، ويُغيظها والدي على الدوام بسبب كون سيارتها عُرضةً للسخرية.

وتابع أبي كلامه: «على أية حال، سأتولى القيادة. وكل ما عليك القيام به هو الجلوس هناك والنظر إلى خارج النافذة».

«يُسبّب لي مقعد الركاب ألماً في الرأس».

«المسافة غير بعيدة. سنكون هناك بعد ساعتَين».

«لا أريد قضاء كل الليل في لندن وأنا أشعر بألم في الظهر».

وتنهّد أبي قائلاً: «حسناً، سنذهب بسيارتك».

وبعد إبعاده سيارته، وإخراج أمي سيارتها، وإدخال والدي سيارته إلى المرأب في الاتجاه المعاكس، حصل خلاف آخر بينهما؛ وهذه المرة بسبب جهاز الملاحة عبر الأقمار الاصطناعية الخاص بأبي. إذ لم يكن أبي يملك حسّاً بالاتجاهات البتة، وكان على الدوام يستخدم جهاز الملاحة أثناء القيادة؛ حتى إن قام برحلات محلية. ولكنّ أمي تكره هذا النوع من الأجهزة، ولم تكن تستخدم أي جهاز مماثل أينما ذهبت. لذلك، عندما لاحظت أمي أن أبي قد أحضر جهاز الملاحة معه، طلبت منه إعادته إلى مكانه وقالت بحزم:

«لن أضع هذا الشيء في سيارتي».

فقال أبي: «سنقود إلى وسط لندن، وأنت تعرفين كيف تكون الطرقات...»

عندها، قاطعته أمي قائلة: «لا أُبالي. أفضّل أن أضيع على استخدام أحد تلك الأجهزة».

«ولكن، سبق لي أن أدخلت العنوان، وكل ما علينا القيام به عندما نصل إلى لندن هو تشغيله».

فقالت أمي: «لا».

نظر إليها أبي، وكان على وشك قول أمر آخر، ولكنه عندما رأى تعابير وجهها بدّل رأيه، وتنهّد مجدداً، واستدار، وأعاد جهاز الملاحة إلى المرأب.

كان المرأب بالكاد يتّسع لسيارة، وكان طول أبي يفوق ست أقدام. ولذلك، بدلاً من دخوله المرأب لإعادة جهاز الملاحة إلى السيارة، وضَعه داخل صندوق كرتونيّ مليء بأشياء صغيرة مختلفة موجودٍ على رفّ قرب الباب.

وهكذا، حُلّت المسألة.

عندما دخلنا سيارة أمي جميعاً، وانطلقت السيارة في الشارع، نُسِي الأمر برمّته. كانت أمي تبتسم وتمازحنا في شأن أمر ما، فيما تلهّى أبي بمذياع السيارة، وبدأ يدندن بكلمات أغنية البوب القديمة والمثيرة للحزن المنبعثة من المذياع. أما أنا فكنت جالساً على المقعد الخلفي، ومتشوّقاً للذهاب برحلتي المنتظمة كل ليلة ثلاثاء إلى نادي الملاكمة.

أذكر الأمر بوضوح تام.

بعد ذلك، فرغت ذاكرتي مجدداً. لا أستطيع تذكُّر أي شيء حصل بين لحظة مغادرتنا المنزل ولحظة رنين هاتف جدّي المحمول. لا أستطيع تذكُّر ما قاله أبي وأمي لي عندما أنزلاني قرب منزل جدتي وجدّي، ولا أستطيع تذكُّر ما قلتُه لهما. كما أنني لا أستطيع تذكُّر أي شيء حصل بين الساعة الخامسة؛ عندما غادرتُ المنزل مع أمي وأبي، والساعة السابعة؛ عندما رنّ هاتف جدّي المحمول أثناء رَكنه سيارته داخل مرأب السيارات خارج نادي الملاكمة.

لقد أطفأ المحرك كما أذكر، ومن ثم أخرج هاتفه وألقى نظرة سريعة على الشاشة، وأجاب المتصل.

«نانسي!». قال عبر الهاتف- ونانسي هو اسم جدّتي- ثم تابع بإلحاح: «نانسي، ما الأمر؟».

ومن ثم شَحب وجهه.

لقد خرجت سيارة أمي وأبي عن الطريق، واصطدمت بشجرة، وتحطّمت على بعد نحو عشرة كيلومترات من بارتون. وقع الحادث عند منعطف متفرّع من الطريق العام أيه 12، فقُتل أبي على الفور، وتُوفّيت أمي في الطريق أثناء نقلها إلى المستشفى. ووفقاً للشرطة، كانت السيارة تسير بسرعة 65 مِيلاً في الساعة تقريباً عندما انحرفت إلى اليسار، ودارت حول نفسها 180 درجة، ومن ثم طارت في الهواء فوق حافّة الطريق، واصطدمت بشجرة سنديان. كانت ظروف القيادة جيدة، والسيارة سليمة من الناحية الميكانيكية، ولم يشمل الحادث أية سيارة أخرى.

كان الأسبوعان الفاصلان بين تحطّم السيارة والجنازة أطول أسبوعين في حياتي. ومرّت الأيام في تشوّش وفراغ. لم أكن أفهم أي شيء، ولم أعرف ماذا أفعل، وكيف أفكر، وما أشعر به. في بادئ الأمر، لم أستطع التصديق ببساطة أن أمي وأبي قد تُوفّيا. لم أستطع استيعاب الأمر. إنهما أمي وأبي... ولا أستطيع تقبّل موتهما. وواصلتُ التفكير في أنه لا بد من أن يكون هناك خطأ فادح من نوع ما. فالسيارة التي تحطمت ليست سيارة أمي بالتأكيد، بل هي سيارة شخص آخر... من طراز سيارة أمي نفسه، ومن اللون نفسه. والشخصان اللذان ماتا في الحادث ليسا أمي وأبي، بل إنهما شخصان آخران؛ إنهما رجل وامرأة شبيهان بأمي وأبي...

ولكنني أعرف أنني أخدع نفسي وحسب.

لم يكن هناك أي خطأ.

فقد تعرّف جدّي إلى الجثّتَين.

بعد الحادث، أقمتُ في منزل جدتي وجدّي، وشعرتُ بالقليل من الجنون في اليوم التالي للحادث، وكنت مصراً على الذهاب إلى المنزل. فقد أردت العودة إلى منزلي، أردت أن أكون هناك تحسُّباً لعودة أمي وأبي. كان الأمر صعباً على جدتي وجدّي بالطبع، ولم يسمحا لي بالذهاب إلى المنزل بمفردي. فقد كنت في الثالثة عشرة من عمري فقط، وتُوُفّي والداي للتوّ، وعليهما الاعتناء بي. كنت أعرف ذلك، كما كنت أعرف أنني أتصرف بشكل غير منطقي، وأجعل كل شيء مُحرِجاً لهما وأكثر صعوبة عليهما، ولكنني لم أتمالك نفسي. لكنّ جنوني لم يدُم طويلاً. وعندما هدأتُ واعتذرتُ، حاولنا جميعاً الانسجام مع واقع الحال بأفضل طريقة ممكنة.

قام جدّي برحلة إلى منزلنا لإحضار بعض حاجيّاتي؛ كملابسي، ودراجتي الهوائية، وكمبيوتري المحمول، بالإضافة إلى أشياء صغيرة أخرى. وبالرغم من افتقادي إلى منزلي وغرفتي الخاصة، كنت قد قضيت وقتاً طويلاً في منزل جدتي وجدّي على مَرّ السنين، لدرجة شعوري بأنه منزلي الثاني على أية حال. لم يكن منزلهما بعيداً عن منزلنا. فنحن نقيم- أو كنا نقيم- في مكان يدعى كِل كروس، وهي قرية في ضواحي بارتون. أما جدتي وجدّي فيقيمان على بُعد نحو كيلومترَين من منزلنا، في شارع لونغ بارتون رود، وهو الطريق الرئيس الذي يصل بين كِل كروس وبارتون.

منزلهما جميل وقديم، وطالما شعرتُ حقاً بالراحة فيه. وهو مكوَّن من ثلاث غرف نوم في الطابق العُلوي؛ واحدة لجدتي وجدّي، والغرفة التي كنت أنزل فيها على الدوام، والغرفة الثالثة لنورا؛ والدة جدّي. إنها في السادسة والثمانين من العمر، ولم تَعُد تخرجِ كثيراً. وهي تعاني من التهاب مزمِن في المفاصل، ومن ألم في الساقَين والورِكَين. عندما تشعر بتحسّن صحّتها تسير باستعمال عُكّاز،

ولكن عندما يسوء التهاب مفاصلها لا تستطيع التنقل إلا باستخدام الكرسيّ ذي العَجلات. إحدى أُذُنَيها صمّاء أيضاً، وتسوء حال الأُذُن الأخرى باستمرار. ولكنّ ذهنها وسلوكها حادّان كالدبّوس.

قضيتُ الكثير من الوقت وأنا أفكّر في أمور مختلفة خلال ذَينك الأسبوعَين اللامتناهيَين. إذ لم يكن هناك ما أقوم به، ولم أشأ الذهاب إلى أي مكان أو التحدث إلى أحد- سواء أكان من الأصدقاء أم الزملاء في المدرسة- ولم أشأ القيام بأي شيء. ما جدوى ذلك؟ لذلك، كنت أتسكّع قليلاً في أرجاء المكان في معظم الوقت؛ في غرفتي، وفي غرفة الجلوس في الطابق السُّفلي، وأحياناً في الحديقة.

لا أعتقد أنني كنت أنوي البدء بطرح أسئلة على نفسي في ما يتعلق بحادث تحطّم السيارة. ولكن، كل ما في الأمر أنه لم يكن هناك أي شيء آخر لأقوم به، والتساؤلات الأخرى الوحيدة التي كانت تدور في ذهني تسحق القلب، وتزرع فيه تعاسة غامرة. لماذا مات أبي وأمي؟ لماذا هما دون سواهما؟ لقد كانا أفضل شخصَين في العالم. لماذا ماتا؟

لم تكن هناك إجابات عن تلك الأسئلة.

وهكذا، وجدتُ نفسي أطرح أسئلة أخرى.

كيف وقع حادث تحطّم السيارة؟ وإذا لم يشمل الحادث أية سيارة أخرى، وكانت ظروف القيادة جيدة، ولم يكن هناك أي خَطْب بالسيارة، فلماذا خرجت عن الطريق؟ كان أبي وأمي سائقين ماهرين. وبسبب عملهما التحقيقي، حضرا دورة دراسية متقدِّمة في قيادة السيارات، وكانا فخورَين جداً بمهاراتهما في القيادة. كانا يقودان بإتقان؛ ليس بسرعة كبيرة وليس ببطء شديد، وما كانا يستخدمان هاتفَيهما أثناء القيادة، ولم يجازفا يوماً. إذاً، ماذا حدث؟ لماذا فقدت أمي السيطرة على السيارة بسرعة 65 مِيلاً في الساعة، واندفعت إلى خارج الطريق، واصطدمت بشجرة؟!

الأمر غير منطقي.

لم أستطع أيضاً فهم سبب وجودهما على بُعد عشرة كيلومترات فقط من بارتون عندما وقع الحادث. فقد غادرا المنزل عند الساعة الخامسة تقريباً، ووفقاً للشرطة، وقع الحادث بعد ساعة؛ أي عند الساعة السادسة وخمس دقائق تقريباً. ولا يتطلب اجتياز مسافة عشرة كيلومترات ساعة من الزمن. إذاً، أين كانا؟ ولماذا لم يقودا إلى لندن مباشَرةً؟

مجدداً، لم أتمكن من العثور على إجابة.

والأمر الآخر الذي لم أستطع فهمه هو سبب سلوكهما المنعطف المتفرّع من الطريق العام أيه 12 إذا كانا متوجهَين إلى لندن! فأيه 12 هو الطريق المباشَر من بارتون إلى لندن، وما لم يكن المرء ذاهباً إلى مكان آخر، فلن يكون بحاجة إلى الانعطاف عنه.

كانت هناك أسئلة...

لم أستطع الكفّ عن طرحها.
مراراً وتكراراً.
بالرغم من إدراكي أنه لا فائدة من الإجابات عنها.
فأيّاً كانت الإجابات، لن يعود أبي وأمي إلى المنزل أبداً.

بدا كل شيء غريباً حقاً بعد الجنازة؛ كما لو أننا كنا ننتظر مجيء هذا اليوم. وبعد أن جاء وانتهت الجنازة، لم يَعُد هناك أي شيء ننتظره. لم يَعُد هناك أي شيء. لقد بدا العالم برمّته فارغاً ومُعتِماً.

كنت لا أزال قلقاً بسبب الأسئلة التي لم أجد إجابات عنها في ما يتعلق بحادث تحطّم السيارة. ومنذ يوم الجنازة، لم أتمكن أيضاً من إخراج الرجل المزوَّد بكاميرا من عقلي. من هو؟ ولماذا كان يصوّر جنازة والدَيّ سرّاً؟ في الظروف الطبيعية، كنت سأتوجّه فوراً إلى جدّي وأسأله عن الأمر، وكان سيرحب بي، وسيبذل قُصارى جهده لمساعدتي، وعلى الأرجح سيقدم لي بعض الإجابات أيضاً.

فجدّي رجل شديد الذكاء، وذو خبرة واسعة. وقبل إدارته مكتب ديلاني وشركاؤه بمفرده طوال عشرة أعوام تقريباً، أمضى خمس سنوات في الشرطة العسكرية المَلَكية، واثنتَي عشرة سنة كضابط في وحدة الاستخبارات العسكرية. ولذلك، إنه يعرف تماماً كل ما يتعيّن عليه معرفته عن التحقيقات. ولكنْ لسوء الحظ، إنه يعاني كثيراً منذ حادث تحطّم السيارة؛ إذ أصبح سيّئ المِزاج على الدوام، وصار يجوب الأرجاء طوال اليوم، ولا ينام، كما أصبح حادّ الطباع، ولا يرغب في مكالمة أحد.

وحين سألت جدتي عنه، أكدت لي: «سيتخطى الأمر، فطالما فعل ذلك. لن يتخطى أبداً فقدان جاك وإيزي بالطبع؛ إذ لن يتخطى أيٌّ منا هذا الأمر. فقد فقدنا ابننا وكنّتنا، وأنتَ فقدت أمك وأباك...» ووضعتْ ذراعَيها حولي وتابعت برفق: «عليك أن تتذكر أمراً يا تراف، وهو أنك لستَ مضطراً إلى تخطي الأمر. من غير الصائب أن تقوم بذلك. وكل ما عليك القيام به هو السماح للحزن بأن يصبح جزءاً منك. هل تفهم؟».

فأجبتها: «أعتقد ذلك».

ابتسمت لي بحزن وتابعت: «لا تقلق على جدّك كثيراً، فهو جنديّ مُسِنّ وصلب العود. لن يبقى على هذه الحال إلى الأبد. ولكنّ هذا الأمر أصابه في الصميم؛ هذا كل شيء. لقد أعاد له الحادث ذِكريات سيّئة عديدة».

رأى جدّي بعض الأمور الرهيبة في الجيش، ومرّ بالكثير من التجارب الرهيبة. كاد يفقد حياته في انفجار قنبلة مزروعة في سيارة عندما كان متمركزاً في إيرلندا الشمالية. وقد جعله ذاك الحادث يَلازم المستشفى طوال ستة أشهر، ولا تزال هناك شظايا صغيرة في جسده. ولكنني أعتقد أن الذِّكريات هي التي تَقضّ مَضجعه أكثر من سواها. فهو يرى كوابيس أحياناً، ويستيقظ صارخاً؛ لقد سمعتُه.

لهذا السبب، لم أسأله عن حادث تحطّم السيارة أو عن الرجل المزوَّد بكاميرا مخبَّأة. فقد كان يعاني كثيراً، وآخر ما يحتاج إليه هو إزعاجه بالأسئلة.

ولكنّ ذلك لا يعني أن أكفّ عن إزعاج نفسي بالأسئلة.

إذ ليس هناك أي شيء آخر لأقوم به.

فالمدرسة مُغلَقة أبوابها بسبب الإجازة الصيفية. وفي الماضي، طالما كنت أقضي الإجازات في مساعدة أمي وأبي في ديلاني وشركاؤه. لم يسمحا لي مطلقاً بالمشاركة في أي تحقيق جدّي، ولكنهما كانا سعيدَين على الدوام بتواجدي في المكتب، وقيامي بأي أمر يمكنني القيام به: كحفظ الملفات، وكتابة الرسائل، والاستعلامات الأساسية عبر الإنترنت. وكانا يسمحان لي أحياناً بالبقاء قربهما في قضية مراقبة روتينية، أو لدى التحقيق في احتيال تأميني، أو ما شابه ذلك...

ولكن ذلك لن يحدث هذا الصيف.

بعد يومَين من الجنازة، أنزلتُ على كمبيوتري المحمول صورةَ الرجل المزوَّد بكاميرا مخبَّأة. لقد بدت الصورة على شاشة الكمبيوتر أكثر وضوحاً مما كانت عليه على هاتفي المحمول. ولا بد أن أكون قد أمضيت ساعتَين أو ثلاثاً وأنا أجلس محدقاً إليها. لقد استحالت عليّ رؤية زرّ الكاميرا في الصورة؛ حتى بعد تكبير حجمها إلى أكبر قَدْر ممكن، ولكنني لم أتوقّع حقاً رؤيته بأية حال. فزرّ الكاميرا الذي سبق لأبي أن أراني إيّاه صغير جداً، ومموَّه بشكل جيد؛ لدرجة عدم التمكن من رؤيته بالعين المجرَّدة عملياً. وعندما أذكر ذلك، أشرع بالتساؤل عمّا إذا كنت أتخيّل بعض الأمور. فإذا كان زرّ الكاميرا غير مرئيّ عملياً، فكيف أتأكد من امتلاك رجل الجنازة كاميرا مخبَّأة؟ فكل ما رأيتُه مجرّد وميض لضوء منعكس. وربما يكون منبعثاً من أي شيء: زر معدنيّ، دبّوس، رُقاقة معدنية صغيرة...

لقد فكرتُ في ذلك لبعض الوقت، ومن ثم انحنيت إلى الأمام وحدّقت عن كثب إلى وجه الرجل. كانت عيناه الرماديتان فولاذيتا اللون تنظران إليّ مباشَرةً، ولكنني اعتبرت أن الأمر ليس غير عاديّ. فإذا رأى المرء أحداً يلتقط له صورة، فمن الطبيعي تماماً أن يحدّق إليه. ولكنه لم يحدّق إليّ فحسب، أليس كذلك؟ فقد أومأ لي برأسه قليلاً كما لو أنه يعبّر عن شكره وامتنانه. وعندما أنظر إليه الآن، بإمكاني رؤية ذلك الشكر والامتنان نفسيهما في عينَيه. ليست نظرة لطيفة، ولكنها ليست غير لطيفة أيضاً. يصعب الوصف، ولكن تولّد لديّ انطباع بأنه يحاول تشاطر أمر ما معي.

فكرتُ في ذلك لبعض الوقت أيضاً، ومن ثم صغّرتُ حجم الصورة، وتأملت المشهد الكامل مرة أخرى. ظهر الرجل وهو يرفع يده في اتجاه صندوق الـبي أم دبليو لإغلاقه. ركّزتُ على الصندوق، وكبّرته قدْر المستطاع، وحاولت رؤية ما بداخله، ولكن الصورة كانت حُبَيبيّة المظهر قليلاً، ولم أتمكن من رؤية أي شيء بوضوح. لذا، استعرضتُ ما تبقى من الصورة، وتوقفتُ عندما رأيت لوحة تسجيل السيارة. كانت واضحة وتسهل قراءتها. وحدّقتُ إليها متسائلاً، ومفكراً...

بالرغم من أن تعقُّب مالك سيارة استناداً إلى رقم تسجيل سيارته أمر غير قانوني، إلاّ أنه لا يصعب القيام بذلك؛ إذا كان المرء يعرف الشخص المناسب.

وفي الواقع، كنت أعرف أن جدّي يعرف الشخص المناسب؛ فهو يعرف كل أنواع الأشخاص. كنت واثقاً من أن الأمر لا يتطلب وقتاً طويلاً كي يعرف جدّي اسم مالك الـبي أم دبليو إذا أعطيتُه رقم تسجيل السيارة. ولكنني أعرف أنني لا أستطيع أن أطلب من جدّي القيام بهذا الأمر مهما كانت رغبتي في القيام بذلك قوية؛ ليس في حالته السيئة هذه. إذ لن يكون الأمر مُنصِفاً.

وكما قالت لي أمي ذات مرة، إذا بذلتَ قُصارى جهدك لتكون لطيفاً ومُنصفاً، فلن تتمادى أبداً في خطئك.

فأسندتُ ظهري إلى الكرسي، ومددتُ عُنُقي وتثاءبتُ، ومن ثم فركتُ عينَيّ، وواصلتُ تأمل الصورة.

5

بعد تناول الفَطور في صباح اليوم التالي، سألتُ جدّتي عمّا إذا كان بإمكاني الخروج على درّاجتي الهوائية لبعض الوقت.

فقالت بقليل من التردد: «يمكنك ذلك بالطبع. ولكن، إلى أين ستذهب؟».

«في الواقع، ليس هناك مكان محدَّد. خطر ببالي القيام بجولة صغيرة على متن الدراجة، كما تعلمين... للحصول على بعض الهواء النقيّ».

فنظرت إليّ قائلة: «حسناً، كن حذراً، اتفقنا؟ واحرصْ على أخذ هاتفك معك».

فأومأتُ برأسي وسألتها: «كيف حال جدّي اليوم؟».

«ليس سيّئاً جداً. إنه في الفراش الآن، وهذه إشارة جيدة. فهو لم ينَمْ كثيراً مؤخراً». وابتسمت بحذر. «آمل أن يشعر بحال أفضل قليلاً إذا تمكن من الحصول على بعض الراحة».

أومأتُ برأسي مجدداً، وأنا غير واثقٍ مما يجدر بي قوله.

فقالت مشعّثة شعري: «هيّا، اذهب واحصل على بعض الهواء النقيّ».

لم يكن هناك قدْر كبير من الهواء النقيّ على امتداد شارع لونغ بارتون روود؛ وإنما فقط الدخان الناتج عن العوادم والذي شكّل ضباباً رقيقاً في زحمة حركة المرور، متسبّباً بالاختناق المعتاد. لم أُبالِ بذلك؛ إذ لطالما أشعرتني رائحة الشوارع المؤدية إلى داخل البلدة بأنني ذاهب إلى مكان ما، وهذا ما كنت بحاجة إليه؛ الشعور بأنني ذاهب إلى مكان ما، والشعور بأنني أقوم بأمر ما. لم أكن واثقاً من سبب حاجتي إلى هذا الشعور، ولم أكن واثقاً حقاً مما كنت أفعله أيضاً، ولكنْ لا أهمية لذلك بطريقة ما. فكل ما يهمّ هو وضع هدف ما نُصْب عينَيّ.

لا يَبعد منزل جدتي وجدّي عن البلدة كثيراً- نحو ثلاثة كيلومترات على الأكثر- ولا يستغرق الوصول إلى مستديرة شارع نورث روود وقتاً طويلاً؛ حيث يبدأ وسط البلدة في الواقع. كانت المستديرة مكتظة بحركة المرور، وهي إحدى تلك المستديرات الكبيرة التي يصعب حقاً عبورها على دراجة هوائية في أفضل الأوقات، لذلك نزلتُ عن دراجتي وقدتها على امتداد الرصيف، ومن ثم عبرتُ الطريق على ممرّ المشاة.

لقد أوصلني الممرّ إلى داخل شارع نورث واك الذي حُوِّل إلى منطقة للمشاة في الطرف الهادئ للبلدة. إذا واصلتُم السير على امتداد الشارع وانعطفتُم إلى اليسار في نهايته، فستجدون أنفسكم في وسط البلدة تماماً؛ حيث المتاجر الكبيرة. ولكنني لم أكن مهتماً بالمتاجر الكبيرة بل بمبنى المكاتب الصغير والمألوف عند 22 نورث واك حيث يوجد مكتب ديلاني وشركاؤه.

ولكن، لم يبدُ أي شيء مألوفاً في ذلك الصباح أثناء قيادتي درّاجتي الهوائية على امتداد الرصيف. فالكثير من المتاجر مُغلَق، وأبوابها ونوافذها مغطاة بألواح. وهناك متاجر أخرى مفتوحة، ولكن نوافذها مخلَّعة ومحطَّمة. وعندما مررتُ أمام متجر أحذية ونظرتُ إلى الداخل، وجدتُ أنه تعرّض للنَّهب؛ إذ كانت الأحذية

والجزمات مبعثَرة في أنحاء المكان، والجدران مَركولة بالأقدام ومهشَّمة، ومِنصَدة المبيعات محطَّمة. كان الشارع بحد ذاته في حالة من الفوضى أيضاً، فصناديق القُمامة مهشَّمة، ولافتات الطريق ملتوية، والطريق مغطى بزجاج محطَّم وكُسارة حجارة.

عندما توقفتُ ونظرتُ حَولي للحظات، تذكّرتُ رؤيتي شيئاً ما في الأخبار المحلية عن عملية شغَب في بارتون على نطاق ضيّق. أنا على ثقة من أنني كنت سأولي المسألة المزيد من الاهتمام في الظروف الطبيعية، ولكن هذه الظروف ليست طبيعية. وبالرغم من استمرار جدّتي بتشغيل التلفاز في معظم الأمسيات، لم يكن أحد منا يشاهده حقاً. وحتى لو كنا جالسين هناك وننظر إليه، إلا أننا لم نكن نشاهد ما يُعرض فيه في الواقع. ففي أذهاننا أمور أخرى تعني شيئاً ما حقاً. لذلك، إن كل ما أذكره عن التقرير الإخباري هو حدوث بعض الاضطرابات مؤخراً في وسط بلدة بارتون، وقيام الناهبين بإلحاق الضرر بعدد من المتاجر والمباني.

حثثتُ الخطى على الرصيف، آملاً في أن يكون المشاغبون قد تجاهلوا مكتب أمي وأبي. ولكن، أثناء دُنُوّي من مبنى المكاتب، وجدتُ الباب الرئيس مرقَّعاً بلوح من الخشب الرقائقي؛ مما يعني أنه رُكل وخُلع. لم أفهم السبب في بادئ الأمر. إذ يتّضح من أسماء الشركات المُدرَجة على لوحة معدنية قرب الباب أن لا شيء ذا قيمة كبيرة في المبنى: **جايكس ومورتيمر، مستشارون قضائيون** في الطابق الثاني؛ **تانتاستيك تانينغ** في الطابق الأول؛ **ديلاني وشركاؤه، تحقيقات خاصة** في الطابق الأرضي. أعني، لماذا يتكبّد المرء عناء نَهب أماكن كتلك؟ ما الذي كانوا يأملون في سرقته؟ أكانوا يطمحون في الحصول على طاولة مكتب وخزانتَي ملفات؟! ولكنني أدركت حينذاك أن المشاغبين والناهبين لا يفكرون بطريقة منطقية ربما، بل يقتحمون أي مكان ويأخذون كل ما تطاله أيديهم. وحتى لو لم يكن هناك أي شيء جدير بالسرقة، فسيكون هناك على الدوام شيء ما ليحطَّم.

دفعتُ دراجتي عبر الباب المفتوح، وسلكتُ الممرّ في اتجاه مكتب أمي وأبي.

كان باب المكتب مفتوحاً جزئياً، واللوح الزجاجي محطَّماً. وأثناء إسنادي دراجتي على جدار الممر، سمعتُ صوتاً مكتوماً يصدر من داخل المكتب، فتوقفتُ وأصغيتُ. لم أتمكن من رؤية أحد عبر زجاج الباب المحطَّم، ولكنّ هناك شخصاً ما في الداخل بالتأكيد، وتمكنتُ من سماع وَقع خطى، وسعالٍ مكتوم، وأنفاس هادئة.

عندها، خفق قلبي بقوة، ورغبتُ للحظات في الابتعاد عن المخاطر. وبدأت أفكر: استدرْ فقط واخرج، واتصل بالشرطة. فليعالجوا هم المسألة. ولكن قلبي لم يكن يخفق بقوة بسبب الخوف فحسب، بل بسبب الغضب الذي يغلي في داخلي أيضاً. فهذا مكتب أمي وأبي، وقد أمضيت نصف عمري هنا، وهو مليء بالذكريات الجيدة. إنه مكان مميَّز، إنه مكاني، ولا يَحقّ لأي شخص التواجد فيه.

أخذتُ نفَساً عميقاً، ثم أخرجتُه ببطء، ومن ثم فتحتُ الباب.

أول ما رأيتُه عندما دخلتُ المكتب شابّة تلتقط أكداساً من الورق عن الأرض. شعرها أحمر زاهٍ، وهناك وشمٌ على كتفها اليمنى، وترتدي تنّورة قصيرة سوداء، وصُدرة، وتنتعل حذاء من العلامة التجارية دوك مارتنز أرجواني اللون. وعندما سمعتني أدخل، قوّمت وقفتها وابتسمت لي، وقالت:

«هِيه، ترافيس، ماذا تفعل هنا؟».

فتمتمتُ شاعراً بغباء تام: «مرحباً، يا كورتني».

إن السبب الرئيس لشعوري بالغباء هو كون كورتني لين مساعدة أمي وأبي لمدة عامَين تقريباً. لذلك، كان يُفترض أن يخطر ببالي على الأقل أنها ربما تكون في المكتب. ولكنني شعرت بالغباء أيضاً لأن كورتني تجعلني أشعر على الدوام بأنني غبيّ. فهي ليست فائقة الجمال فحسب، بل ترتدي باستمرار ملابس تُبيّن محاسنها. وكلما رأيتُها، لا أعرف أين أنظر؛ وهذا أمر مُحرج تماماً، ويكون أكثر إحراجاً عندما تعانقني- وهذا ما قامت به حينذاك، مُحكِمةً الإمساك بي، وضامّةً إيّاي بقوة، وعاصرةً إيّاي- لأنني لا أعرف أبداً أين أضع يدَيّ. ولكن، بالرغم من شعوري بالغباء والإحراج، كنت لا أزال مسروراً حقاً برؤيتها.

«آسفة لأنني لم أكلّمك في الجنازة». قالت محرّرةً إيّاي من قبضتها، ومتراجعةً إلى الوراء. «أردت ذلك، ولكنني لم أكن واثقة من استعدادك للكلام. لم أكن أعرف ما الذي يجدر بي قوله بأية حال. وما زلت لا أعرف ماذا أقول».

«ليس عليك قول أي شيء».

فتنهّدتْ هازّةً رأسها وتابعت: «ما زلت غير قادرة على تصديق ما جرى».

«وأنا أيضاً».

«في لحظة من الزمن يكون كل شيء بخير، ومن ثم فجأةً...»

فأومأت برأسي فحسب، غير راغب في الواقع في التفكير في الأمر، وغير راغب أيضاً في التصرّف بفظاظة.

فقالت كورتني: ««آسفة، لم أعنِ...»

غير أنني قاطعتها قائلاً: «لا بأس».

تنهّدَت مجدداً، ومن ثم توجهَتْ إلى طاولتها، ووضعت كومة الأوراق التي تحملها عليها.

عندها، ألقيت نظرة على أنحاء المكتب. لقد بدا المكان برمّته في حالة من الفوضى: فالأدراج مُفرَغة، والخزائن مفتوحة، والأوراق والملفات مبعثَرة على الأرض، وكل تجهيزات المكتب مفقودة أو محطَّمة: أجهزة الكمبيوتر، الطابعات، الماسحات، الهواتف.

«متى حدث ذلك؟». سألتُ كورتني.

فأجابت: «ليلة السبت الماضي. فاستناداً إلى ما قرأتُه في الصحف المحلية، بدأ كل شيء قرابة الساعة السابعة، عندما اقتحمت مجموعة من الشباب

الصغار في السنّ من منطقة سليد لين السكنية متجر تي-موبايل في آخر الشارع. كان هناك نحو عشرين أو ثلاثين منهم في بادئ الأمر، ولكن حالما اهتاجوا وشرعوا بنَهب كل المتاجر الأخرى، انضمّ إليهم عدد كبير من الأشخاص. لقد جُنّ جنونهم فحسب، وحطّموا كل ما صادفوه أمامهم».

فسألتُها: «هل توسّعت أعمال الشغب؟ هل انتقلوا إلى هاي ستريت أو ما شابه؟».

فهزّت رأسها. «كان رد فعل الشرطة سريعاً كما يبدو. فقد قطعوا هاي ستريت في غضون نصف ساعة، ولذلك انحصرت الأضرار في نورث واك».

نظرتُ إلى مكتب أمّي وأبي الخاص. كان الباب لا يزال معلَّقاً جزئياً بإطاره، فيما الألواح الخشبية مركولة ومهشَّمة.

«هل الأمر في الداخل سيّئ كما هو الحال هنا؟». سألتُ.

فهزّت كورتني رأسها مجيبة:» لم تتسنَّ لي بعد فرصة التحقق من الأشياء المفقودة. اعتقدتُ أنه من الأفضل لي محاولة ترتيب بعض الفوضى أولاً». وألقت نظرة سريعة عليّ، ثم تابعت: «لم تُبلغ الشرطة جدّك عن الأضرار حتى يوم الاثنَين. لقد اتصل بي يوم الأربعاء بعد الجنازة، وسألني عمّا إذا كان بإمكاني المرور إلى هنا في وقت ما للتحقق من إصلاح الباب الرئيس». وصمتت قليلاً متأملة الفوضى حَولها ثم أردفت: «كنت سأباشر بهذا العمل في وقت مبكِّر، ولكن أمي واصلت دخول المستشفى والخروج منه طوال الأسبوع، ولم أجد الوقت للقيام بذلك».

فقلت لها: «لم تكوني مضطرة إلى القدوم والقيام بأعمال التنظيف. وأنا سعيد لقيامك بذلك بالطبع. وفي الواقع، إنها بادرة لطيفة من قِبَلك. ولكنني لا أعرف إذا... حسناً، كما تعلمين...»

شعرتُ بالإحراج مجدداً وبشكل فجائيّ؛ ولكن هذه المرة لأنني لم أعرف كيفية قول ما أحاول قوله. غير أن كورتني قرأت أفكاري والحمد لله.

«لستُ منزعجة من عدم تقاضيّ أجري أو أي شيء آخر يا تراف. أعني، أعرف أنني لم أعُد مضطرة للقدوم إلى العمل. ولكنني لا أقوم بذلك لأنني مُلزَمة بالقيام به، بل لأنني أريد ذلك. طالما أحسنت أمك وأبوك معاملتي». ومسحت عينَيها وابتسمت لي. «علاوةً على ذلك، على أحدهم تنظيف هذه الفوضى، ولا أفترض أنك جئتَ مزوَّداً بمكنسة، أليس كذلك؟».

«لا». اعترفتُ، فاستدارت نحو الطاولة، وشرعت بفرز أكداس الورق. «إذاً، ما الذي تفعله هنا يا ترافيس؟».

فأجبتها: «في الواقع، لستُ واثقاً، صِدقاً. أفترض أنني أتساءل عما كان أبي وأمي يعملان عليه قبل وفاتهما. أعرف أنهما كانا ذاهبَين إلى لندن للقاء شخص ما، وأعرف أنهما كانا يعملان على قضية جديدة، ولكنني لا أعرف موضوع القضية». وتوجّهتُ إلى خزانة ملفات، وشرعتُ بالبحث في الأدراج. «اعتقدتُ أنه بإمكاني العثور على مدوَّناتهما في شأن القضية أو ما شابه...»

فقالت كورتني: «سبق لي أن تحققت من تلك الخزانة. إنها فارغة، وكل الملفات على الأرض».

فنظرتُ إليها وسألتها: «هل تعرفين ما كان أبي وأمي يعملان عليه؟».

فأجابت: «ليس حقاً. كنت في إجازة في الأسبوعَين الأوّلَين من تموز/ يوليو، ولم أعُد حتى يوم الاثنَين؛ قبل حادث تحطّم السيارة. لم يكن أبوك وأمك في المكتب في ذلك اليوم، ورأيتُ أمَّك لمدة دقائق قليلة فقط يوم الثلاثاء، لذلك لم تتسنَّ لي فرصة الوقوف على قضاياهما الحالية. والقضية الأخيرة التي عرفتُ بشأنها تتناول التحقيق في شأن أشخاص مفقودين، وقد عرفتُ بها يوم الجمعة قبل مغادرتي. لقد مرّرتُ التفاصيل لأبيك في ذلك الوقت، ولكنني لا أعرف إذا كان قد وافق على الاضطلاع بالقضية أم لا».

«هل تذكرين مَن الذي طلب إجراء التحقيق؟».

«رجل يدعى جوني رودي. قال إنه صديق قديم لصديق أبيك».

«هل ما زلتِ تحتفظين بتفاصيل مصدر معلوماته؟».

«حسناً، لقد حفظتها في ملف جديد خاص بالزبائن في كمبيوتر المكتب، كالعادة. ولكن، كما ترى...» وأومأتْ في اتجاه الفُسحة الفارغة على الطاولة حيث كان جهاز الكمبيوتر الشخصي موضوعاً. «كما أنني حضّرت أيضاً نسختَين ورقيّتَين عن ملفّه. لقد أودعت نسخة في خزانة الملفات، ووضعت الأخرى على مكتب أمك وأبيك». ونظرتْ إلى أكداس الأوراق على الأرض. «قد تكون في أي مكان الآن».

«إذاً، ألا تملكين رقم هاتف جون رودي هذا أو ما شابه؟».

«لا أستطيع تذكّر رقم هاتفه أو عنوان منزله، ولكنني أذكر أنه ذكر نادياً للملاكمة».

«ذكر نادياً للملاكمة!؟».

«ليس النادي الذي ترتاده، بل الآخر. ذلك القائم قرب سليد لين، بجانب أحواض السفن».

«أتقصدين نادي وونفورد للملاكمة؟».

«أجل. أعتقد أن السيد رودي قال إنه مدير النادي، أو مالكه ربما. وقال إن أباك يعرف النادي».

فقلت لها: «اعتاد والدي التمرّن هناك عندما كان يمارس الملاكمة. إنه مكان قاسٍ تماماً، ولكنه حسن السُّمعة بفضل المقاتلين المحترفين الذين يخرِّجهم. هل زوّدكم السيد رودي بأي تفاصيل إضافية عن القضية؟».

«قال فقط إنه يرغب في طلب إجراء تحقيق حول أشخاص مفقودين، وفي التحدث إلى والدك عن الأمر». ونظرت إليّ ثم تابعت: «ماذا يجري يا ترافيس؟ لماذا تريد أن تعرف كل هذه المعلومات؟».

فكففتُ عن الكلام للحظات، مفكراً في بعض الأمور، ومن ثم جلستُ وشرعتُ بالكلام.

عندما فرغتُ من إطلاع كورتني على كل شيء- في ما يتعلق بشكوكي حول حادث تَحطم السيارة، وارتيابي بشأن رجل الجنازة- لم تقل أي شيء لبعض الوقت، وجلستْ إلى طاولتها فحسب، مفكرةً بهدوء.

وأخيراً قالت: «لست واثقةً مما إذا كنا سنعرف حقيقة تَحطم السيارة يوماً يا ترافيس. كنت أطرح على نفسي الأسئلة عينها بالتحديد. كيف حدث ذلك؟ لماذا حدث؟ لماذا خرج أبوك وأمك عن الطريق العام أيه 12؟ لم أجد أي معنى لكل ذلك في بادئ الأمر. ولم تكن هناك أي إجابات منطقية كما يبدو. ولكنني ذكّرت نفسي حينذاك بأن الحياة غير منطقية، ولا تكون مفهومة على الدوام. إذ تحدث بعض الأمور الغريبة أحياناً. ربما صرف شيء ما انتباه أمك أثناء القيادة، دبّور أو نحلة، شيء ما من هذا القَبيل. أو ربما عطست في الوقت غير المناسب... لا أعرف. قد يكون السبب أي شيء».

فقلت لها: «أجل، اتفقنا. ولكن، لماذا كانا في ذلك المكان؟ ولماذا كانا على بُعد عشرة كيلومترات فقط من بارتون؟ وأين كانا قبل ذلك؟».

«ربما عرّجا على المكتب أولاً. كنت قد ذهبت إلى المنزل حينذاك. ربما نسيا بعض الأعمال الورقية أو ما شابه، وعرّجا على هذا المكان لأخذها، فأخّرهما اتصال هاتفي ما...» وهزّت كتفَيها. «وربما سلكا أيه 12 للعثور على محطة وقود. أعلم أن الأمر لا يبدو محتمَلاً، ولكن الأمور غير المحتمَلة تحدث يا ترافيس».

فأومأت برأسي موافقاً على وجهة نظرها. ولكنني كنت لا أزال غير مقتنع، وأعتقد أنها لم تكن مقتنعة أيضاً.

«ماذا عن رجل الجنازة؟».

«دَعني أرى الصورة التي التقطتَها له».

فأخرجتُ هاتفي المحمول، وعثرتُ على الصورة، ومرّرت الهاتف لكورتني، فأمعنت النظر إلى الرجل، ثم قالت:

«أجل، أذكر أنني رأيته، وقد تساءلتُ عمّن يكون. اعتقدتُ أنه ربما كان أحد أصدقاء جدك القُدامى».

«ما الذي جعلك تعتقدين ذلك؟».

«لا أعرف... فمظهره يشير إلى ذلك كما تعلم. إذ يبدو كما لو أنه عسكريّ سابق أو عنصر في جهاز الاستخبارات أو ما شابه. هل سألتَ جدك عنه؟».

فهززت رأسي نافياً وأجبت: «إنه ليس بخير في الوقت الحاضر، وأنا لم أشأ إزعاجه».

«هل هو في حالة من العُزلة مجدداً؟».

فأومأت برأسي. «أنا واثق من أنه لا يعرف الرجل. فهو لم يتحدث إليه أو ما شابه، حتى إنه لم ينظر إليه على حَدّ عِلمي».

ألقت كورتني نظرة أخرى سريعة على الصورة الفوتوغرافية ثم سألتني: «هل

أنت واثق من امتلاكه كاميرا مخبَّأة؟».
«واثق تماماً».
«لماذا قد يرغب أحد ما في تصوير جنازة والدَيك؟».
«لست أدري. لو كنا نعرف من هو لكان بإمكاننا أن نسأله».
«ولكننا لا نعرف من هو».
«إننا نعرف رقم تسجيل سيارته».
فضاقت عينا كورتني وهي تسألني: «هل تلمّح إلى ما أعتقد أنك تلمّح إليه؟».
فابتسمت لها، وهزت رأسها قائلة: «إنه أمر غير قانوني يا ترافيس. وحتى إن كان باستطاعتي القيام بذلك- ولا أقول إن بإمكاني القيام به- يُعتبر الولوج إلى قاعدة بيانات دي في أل أيه من دون الحصول على إذن مخالفاً للقانون».
«ولكن هذا الأمر لا يُلحق الأذى بأحد، أليس كذلك؟».
«ليس هذا ما أرمي إليه».
«لا ضرورة لكي يعرف أحد بالأمر».
«أنا أعرف، وأنت تعرف».
«باستطاعتي المحافظة على السرّ».
فتنهدت قائلة: «لن تتخلّى عن محاولاتك لمعرفة سبب وفاة والدَيك، أليس كذلك؟».
«لا».
عندها، أخرجتْ هاتفها المحمول وقالت لي وهي تطلب رقماً: «لا عِلم لك بما أفعله الآن، اتفقنا؟».
«صحيح».
غير أنها حدّقت إليّ منتظرةً شيئاً ما، كما يبدو.
فسألتها: «ماذا!؟».
«أنّى لك ألا تعرف ما الذي أفعله إذا واصلتَ الجلوس هنا؟».
«أتريدين مني أن أتركك بمفردك؟».
فابتسمتْ مجيبة: «إذا لم يكن لديك مانع».
فقلت وأنا أقف: «لا مانع لديّ البتة. سأكون في المكتب الآخر إذا كنت بحاجة إليّ».
راقبتني وأنا أتوجّه إلى مكتب أمي وأبي الخاص، وانتظرت دخولي وإغلاقي الباب قبل أن تواصل اتصالها الهاتفي. لم أعرف من الذي تتصل به، ولكن سبق لي أن سمعتها تُكلّم أبي ذات مرة عن ضابط شرطة تعرفه ويَدين لها بمعروف كبير. ولكن، كما قالت، من الأفضل لي ألا أعرف.
ألقيتُ نظرة في أرجاء مكتب أمي وأبي، متذكراً كيف اعتاد أن يكون، وكيف هو في الوقت الحالي: طاولة أبي إزاء أحد الجدران، وطاولة أمي في الجانب المقابل للغرفة؛ طاولة أبي مرتَّبة ونظيفة وكل شيء في مكانه، وطاولة أمي في فوضى

عارمة وكل شيء مكدَّس في أكوام عشوائية. النافذة مُشرفة على زقاق في الناحية الخلفية، وهناك صور على الجدران؛ صور مؤطَّرة لأمي وأبي ولي، ونسخة مطبوعة لإحدى لوحات بيكاسو، وصورة لفريق ميلوال أف سي في المباراة النهائية لكأس أف أيه للعام 2004. باستطاعتي رؤية كل ذلك في مخيّلتي، ولكن كل شيء زال الآن؛ فالأغراض إما مهشَّمة أو محطّمة ومُلقاة على الأرض أجزاءً أجزاء، أو لم تعُد موجودة. وجهاز أبي الشخصي مفقود، ولم أرَ جهاز أمي الحضني، وكل الأدراج مفرَّغة.

سمعتُ كورتني تتحدث عبر الهاتف، فحاولت الإصغاء إلى ما تقوله بتركيز كبير، لمعرفة ما تقوله، ولكنها كانت تتكلم بصوت منخفض جداً كي لا أسمع أي شيء. عندها، نظرتُ في اتجاه النافذة. فالطاولة الخشبية الصغيرة التي يُفترض بها أن تكون في الزاوية تحت النافذة رُكلت إلى الجانب المقابل للغرفة. والإناء النحاسي الذي يحتوي على النبتة نجمية الشكل والذي يُفترض به أن يكون على الطاولة مُلقى على الأرض، والتراب منثور في أرجاء المكان، والنبتَة عينها ملتصقة بالسجادة بعد أن داسها أحدهم.

توجّهتُ إلى النافذة ووقفت هناك للحظات، ومن ثم جثمتُ وسحبت السجادة من الزاوية، وتوقفتُ ثانيةً، مُصغياً إلى همهمة صوت كورتني، ومن ثم مددتُ يدي ورفعتُ جزءاً من الألواح الأرضية مزوَّداً بمفصَّلات. كما أملتُ، لم تُلمَس الخزانة المعدنية المخبَّأة تحت الألواح الأرضية. كانت لا تزال مُقفَلة وسليمة. فحدّقت إليها، متذكراً يوم صادفتُ أبي يفتحها.

وكان قد قال لي حينها مبتسماً: «لا شيء مثير للاهتمام في داخلها. إنها مجرد أوراق عمل قديمة ومُمِلّة؛ مستندات تأمين، وعقود، وأمور مماثلة». وأطلق ابتسامة عريضة وتابع: «قلتُ لأمك إنها تبذير للمال، ولكنك تعرفها جيداً. هي دائمة القلق على شيء ما». وغمزني. «لا تُخبرها بأنني قلت ذلك».

لم أكن واثقاً من تصديقي له في ذلك الوقت، وكنت أتساءل على الدوام عما يوجد في الخزانة المعدنية. ولكن، بالرغم من معرفتي للشيفرة- إذ سبق لي أن رأيت أبي وهو يُدخلها- لم أنظر في الواقع إلى ما يوجد في داخلها. لقد رغبتُ في القيام بذلك مرات قليلة، ولكنني لم أجد الأمر صائباً. حتى الآن، وأثناء انحنائي وشروعي بإدخال الشيفرة، كنت لا أزال أشعر بعدم صوابية الأمر.

ولكن ذلك لم يردعني.

فالشيفرة المكوَّنة من أربعة أرقام هي تاريخ ذكرى ميلادي: 3008.

عندما أدخلتُ الشيفرة، أطلق القِفل إشارة صوتية، ثم ظهر ضوء أخضر. أمسكتُ بالمِقبض وأدرته، ثم سحبته إلى الأعلى، ففُتح الباب الفولاذي بسهولة. لا وجود لأشياء كثيرة هناك؛ إذ يوجد ملفان كرتونيّان، ومجموعة من الأوراق.فمددتُ يدي وأخرجت كل شيء، ومن ثم جلست على الأرض وشرعت بتقليبها.

لم يتطلب مني الأمر وقتاً طويلاً لأدرك أن أبي قال لي الحقيقة عن أوراق

العمل القديمة المُمِلّة. فالملفات محشوّة بفواتير وعقود، والمغلفات مليئة بأوراق تأمين. لم تكن هناك أي مدوَّنات متعلقة بالقضايا. لا إلماعات، ولا أسرار. لم أجد الصورة الفوتوغرافية إلى أن وصلتُ إلى أسفل الكومة تقريباً وفقدتُ كل أمل بالعثور على أي شيء.

لم تكن صورة أصلية، بل نسخة عن صورة رقمية في جهاز الكمبيوتر طُبعت على ورقة أيه 4، وكانت نوعية الصورة غير جيدة أيضاً، وبدت كما لو أنها طُبعت على عجَل. ولكن، لا يزال من غير الممكن الإخطاء في محتواها.

وضعتُ بقيّة الأوراق جانباً، وتنفّستُ ببطء، وألقيت نظرة على الصورة عن كثَب.

ظهر في الصورة ثلاثة رجال يقفون معاً خارج مبنى، وهم يرتدون بِذلات، ويناقشون أمراً ما كما يبدو. ولأحدهم شعر قصير داكن ولحية عُثنون[1]، والآخر أصلع، والثالث هو رجل الجنازة. كنت واثقاً تماماً من ذلك: عيناه رماديّتان، شعره رماديّ قصير، و- كورتني مُحِقة- لديه مظهرُ عسكريٍّ سابق. وهناك سيارتان مركونتان وراء الرجال الثلاثة؛ بي أم دبليو سوداء، وعربة نقل مُقفَلة سوداء من طراز مرسيدس، ولوحتا التسجيل غير مرئيّتَين. والمبنى في الخلفية مستودع صناعيّ من نوع ما، ولا يبدو قيد الاستعمال، ولكنه لا يبدو مهجوراً أيضاً. جدران رمادية من الآجرّ، وستائر على النوافذ، وأبواب متينة المظهر، وتؤدي بوّابتان مُقفلتان إلى داخل موقف سيارات صغير في مقدَّمة المستودع، وكل المكان مُحاط بسياج عالٍ من الأسلاك الشبكية.

كان الوقت والتاريخ مطبوعَين في أسفل الزاوية اليمنى للصورة الفوتوغرافية:

16:08، 15/07/13

عند الساعة الرابعة وثماني دقائق، 15 تموز/ يوليو.

إنه اليوم السابق لوفاة أمي وأبي.

جلست ممعناً النظر إلى الصورة، ومحاولاً معرفة ما تعنيه. كنت على ثقة تامة بأن من التقطها هو أبي أو أمي- إذاً لماذا هي موجودة في الخزانة المعدنية في مكتبهما؟! - وكنت واثقاً أيضاً من أنها صورة مراقَبة. ذلك يعني أن للرجل رماديّ العنيَين علاقة بالقضية التي كان أبي وأمي يحققان فيها.

نظرتُ إلى كومة أوراق العمل على الأرض، وأدركت فجأةً أنني عندما أخرجتُها من الخزانة المعدنية، قلبتُ الكومة رأساً على عَقِب بشكل غير متعمَّد، ولذلك وجدتُ الصورة الفوتوغرافية في أسفل الكومة بعد أن كانت في أعلاها. فكرتُ في ذلك، وتخيلت أمي أو أبي داخل المكتب في اليوم السابق لوفاتهما، وأحدهما يفتح الخزانة المعدنية، ويضع الصورة داخلها...

لماذا قاما بذلك؟

لم يكن هناك أي شيء آخر في الخزانة على علاقة بهذا التحقيق أو بأي تحقيق آخر. إذاً، ما المميَّز في هذه الصورة الفوتوغرافية؟ ما سبب أهميّتها؟

فقلبتُها ونظرت إلى الجهة الخلفية فيها. كانت هناك مدوَّنة بقلم رصاص في أعلى الزاوية اليمنى.

Dem 5/8
اليوم الأخير، الرابع؟

لا شك في أن هذا خط يد أبي- فأنا أُميّز خربشته عنكبوتية الشكل أينما وُجدت- ولكن، ما الذي تعنيه؟ ربما تكون 5/8 الخامس من شهر آب/ أغسطس، والرابع هو اليوم السابق! ولكن، ماذا عن dem واليوم الأخير؟ هل dem اختصار لشيء ما؟ تظاهرة ربما؟ أو طلب؟ أو اسم شخص ما: دِمبستر، دِمبسي؟ وما الذي يعنيه اليوم الأخير؟ اليوم الأخير لأي شيء؟ أو اليوم الأخير لأجل أي شيء؟

فتناولتُ هاتفي المحمول وتحققت من التاريخ. إنه اليوم الثاني من آب/ أغسطس. إذاً، إذا كنت مُحِقاً، وكلمة الرابع يقصد بها الرابع من آب/ أغسطس، فهذا يعني أن يومَين فقط يفصلاننا عن اليوم الأخير.

أعدتُ بقيّة الأوراق إلى الخزانة المعدنية وأقفلتها، كما أعدت الألواح الأرضية المزوَّدة بمفصّلات إلى ما كانت عليه، ثم وقفتُ، وهممتُ بالعودة إلى المكتب الرئيس لأُري كورتني الصورة، وحينها سمعتُها تقول بصوت مرتفع: «من أنت بحق الله؟».

فتسمّرتُ في مكاني، متسائلاً عن الشخص الذي تخاطبه، ومن ثم سمعتُ صوتاً آخر في الوقت نفسه تقريباً، صوت رجل.

«آه، صباح الخير». سمعتُه يقول بصوت منخفض وواثق، ثم تابع: «أُدعى أُوين سميث، وأنا هنا بخصوص التأمين. ومن تكونين إذا لم تمانعي طرحي السؤال؟».

فسألته كورتني: «هل تحمل بطاقة تعريف؟».

«بالطبع، لحظة واحدة فقط».

طويتُ النسخة المطبوعة ووضعتُها في جَيبي، ثم دخلتُ المكتب. كان ذلك الرجل واقفاً عند مدخل الباب تماماً، وأثناء دخولي أخرج بطاقة عمل من محفظة جَيبه، ونظر إليّ. طرفت عيناه مرة واحدة، ومن ثم توجّه إلى كورتني وسلّمها بطاقته. لم يسبق لي أن رأيتُه شخصياً، ولكن لا يمكنني الإخطاء في هويّته. فقد قضيتُ الدقائق القليلة الماضية محدّقاً إلى صورته مع الرجلَين الآخرَين.

إن الرجل الذي يدعو نفسه أُوين سميث هو الرجل أصلع الرأس الموجود في الصورة الفوتوغرافية.

نصحتني أمي ذات مرة بالحذر تماماً من الحكم على الناس اعتماداً على مظهرهم، وقالت لي حينها: «على سبيل المثال، إذا كان الشخص الواقف عند بابك الأمامي يحمل لوحاً مِشبكياً، ويرتدي سترة رسمية، ويضع شارة تحمل اسمه، فهذا لا يعني بالضرورة أن بإمكانك الوثوق فيه. فباستطاعة أي شخص شراء لوح مِشبكي وسترة رسمية. وحتى لو لم يكن شخص ما يحاول خداعك، فليس من الممكن على الدوام الحكم على شخصيته بالاستناد إلى مظهره الجسدي فقط». بعد ذلك، ابتسمت لي بمَكر وتابعت: «عليك النظر إلى كورتني فحسب لتعرف ذلك».

لم يكن هناك شيء مُهين، ولو قليلاً، في ما قالته. ففي الواقع، سبق لكورتني أن قالت بنفسها أموراً مماثلة إلى حد كبير في مناسبات لا تُحصى ولا تُعَدّ. فكل ما عَنَته أمي هو أن الكثير من الناس- ولا سيما الرجال- عندما يرون مظهر كورتني وطريقتها في ارتداء ملابسها يميلون إلى افتراض أنها امرأة لَعوب ومغفَّلة؛ مجرّدُ وجه جميل وجسد كثير الانحناءات. وكورتني سعيدة جداً لأنهم يعتقدون ذلك.

وقد شرحت: «إذا اعتقدوا أنني خرقاء، فسأكون قد تقدّمتُ عليهم بضع خطوات. وعندما سيكتشفون أنني لست خرقاء، سيكون الأوان قد فات ليقوموا بأمر ما حيال ذلك».

ليست كورتني لين خرقاء.

فهي تحمل شهادة بدرجة ممتاز في الرياضيات والفلسفة من جامعة أوكسفورد، وتجيد أربع لغات أجنبية على الأقل بطلاقة، ولديها معلومات أكثر من أي شخص آخر التقيتُه يوماً، وفي كل شيء تقريباً. وقد شاركت أيضاً في مباراة من هم دون الثالثة والعشرين من العمر بهدف الانتساب إلى الفريق الرياضي الإنكليزي، خائضةً سباق الركض لمسافتَي 200 و400 متر على التوالي. ووفقاً لوالدي، إنها تملك مقدرة عقلية فائقة على طاولة البِليارد. تلك هي الأمور التي أعرفها عنها، وهناك المزيد. فكورتني من أولئك الأشخاص الذين يُذهلونك باستمرار بعمق مهاراتهم المخبَّأة.

قد يبدو من الغريب قيام شخص بهذه المؤهلات المهمة بالعمل لصالح شركة تحقيق خاصة كمساعد، ولكن كورتني لا تربط بين مؤهلاتها وما تفعله لكسب رِزقها. فقد وجدت أن العمل لصالح أمي وأبي ملائم جداً لها. إذ كانت والدتها مساعدة في ديلاني وشركاؤه طوال سنوات، وعندما تمّ تشخيص إصابتها بداء باركينسون وصار من الصعب عليها مواصلة العمل، لم تتخذ كورتني فقط قرار البقاء في المنزل والاعتناء بها، بل وافقت أيضاً على عرض أمي وأبي عليها الاهتمام بعمل أمها. لم يكن هذا العمل يَدُرّ عليها أموالاً طائلة، ولكنه عمل مثير للاهتمام، وقد سمح لها أبي وأمي بالحصول على قَدْر ما تشاء من الإجازات

التي تحتاج إليها، فضلاً عن بُعد المكتب عن منزلها مسافة خمس دقائق سَيراً على الأقدام.

في العامَين اللذَين عملت خلالهما في ديلاني وشركاؤه، أصبحت كورتني مقرَّبةً جداً من والدَيّ، وأظهرت مَيلاً شرساً لحمايتهما وحماية الشركة. لذلك، عندما شرع أصلع الرأس بمعاملتها بتعالٍ في ذلك الصباح، متحدّثاً إليها كما لو أنها نكرة، علمتُ بأنه سيواجه متاعب جمّة.

فاتكأتُ على الجدار، ووضعت يدَيّ في جَيبَيَّ، متخذاً وقفة مريحة لمشاهدة العرض.

«أحتاج إلى مكالمة المسؤول هنا». قال لها أثناء إمعانها النظر إلى بطاقة عمله، ثم تابع: «لذلك، إذا لم تُمانعي...»

غير أنها قاطعته رافعة نظرها عن البطاقة: «يُقال هنا إنك تعمل لصالح أم إند جي كومرشال».

«صحيح».

«من اتصل بك؟».

«عفواً؟».

«من اتصل بشركتكم بخصوص التأمين؟».

فتردد قليلاً ثم أجاب: «لم يتصل بنا أحد. فنحن نفخر بأننا نملك المبادَرة المُسبَقة في ظروف مماثلة».

فأطلقت كورتني ابتسامة واسعة وقالت: «تملكون المبادرة المُسبَقة!».

عندها، ابتسم لها بتعالٍ وبدأ بالقول: «يعني ذلك...»

«أعرف ما الذي يعنيه ذلك يا سيد سميث. وكل ما في الأمر أنني لم أصادف يوماً شركة تأمين تملك المبادَرة المُسبَقة». ثم ابتسمتْ له وتابعت: «لا أريد جرح مشاعرك، ولكن وفقاً لخبرتي، من الصعب جداً الحصول على رد فعل تفاعليّ من شركة تأمين».

«حسناً، ربما لأن...»

«ما هو منصبك في أم إند جي؟».

فحدّق إليها بقسوة، محاولاً المحافظة على هدوئه، ثم أجاب: «أعتقد أنه من الأفضل ربما أن أكلّم شخصاً آخر عن هذا الموضوع. هل مديرك موجود؟».

«ما الذي يدعوك للاعتقاد بأنني لست المديرة؟».

«هل أنت كذلك؟».

وحدّقت إليه بالمِثل. «لا تذكر بطاقة عملك المنصب الذي تشغله. هل أنت مخمِّن خسائر؟».

فتنهّد قائلاً: «من الأفضل ربما أن أعود في وقت آخر».

فأومأت برأسها، مفكرةً بعمق، ثم قالت: «تبدو فكرة جيدة. ولكن، دَعني أقدّم لك القليل من النُّصح. قبل أن تعود، ربما ستكون راغباً في التحقق أولاً من الشركة التي يُؤمِّن لديها مكتب ديلاني وشركاؤه». وأعادت له بطاقة عمله، ثم

تابعت: «أو على الأقل عُد مع اسم أفضل من أم إند جي كومرشال». وابتسمت له. «أعني، أنا لست خبيرة بالطبع، ولكنني إذا أردت من أحدهم الاعتقاد بأنني أعمل لصالح شركة تأمين، فسأختار شركة موجودة بالفعل».

حملق إليها الرجل للحظات قليلة، ومن ثم أعاد بطاقة العمل إلى محفظته وقال: «سأُبقي ذلك في ذِهني يا آنسة لين». ونظر إليّ، والتقت نظراتنا للحظة، ثم استدار وخرج.

«حسناً، كان ذلك مثيراً للاهتمام». قالت كورتني عندما ذهب.

«مثير للاهتمام جداً». وافقتُها الرأي، مُخرجاً النسخة المطبوعة من جَيبي.

«ماذا لديك هناك؟».

سألت.

وتوجّهتُ نحوها وسلّمتُها الصورة. لم تقل أي شيء في بادئ الأمر، وأمعنت النظر إلى الصورة الفوتوغرافية بهدوء، ورأيتها بعد ثوانٍ قليلة ترفع حاجبَيها متفاجئة.

«هذا صديقنا السيد سميث!». قالت مواصلةً النظر إلى الصورة.

«بالتحديد».

«أين عثرتَ عليها يا تراف؟».

«كانت في الخزانة المعدنية الخاصة بأمي وأبي».

أومأتْ مفكرةً بعمق، ومن ثم نظرت إليّ وقالت: «كانا يستجوبانه».

«والرجل المزوَّد بكاميرا».

«هل تعرف الشخص الآخر؟».

فهززت رأسي نافياً.

قالت: «دعاني سميث الآنسة لين، وأنا لم أقل له اسمي».

«أعلم».

فتنهدتْ قائلة: «لا أفهم أيّاً مما يحدث».

فقلت لها: «هناك مدوَّنة على ظهر الصورة الفوتوغرافية».

عندها، قلبَتْها وقرأتِ المدوَّنة المخربَشة، ثم قالت:

«والدك هو من كتب هذه المدوَّنة».

«أعلم. ولكن، ما الذي تعنيه برأيك؟».

«الخامس من آب/ أغسطس... الرابع...» وحكّت رأسها. «لا أعرف... ربما تكون dem اختصاراً».

«هذا هو رأيي أيضاً».

«أو لفظة أوائلية. D.E.M - قسم الطاقة و... شيء ما؟ إدارة وضع قانون المخدرات موضع التنفيذ؟ ربما تكون أي شيء. واليوم الأخير...؟!» وهزّت كتفَيها. «من يعلم؟».

سألتُها: «هل توصلتِ إلى أي شيء بخصوص رقم تسجيل سيارة بي أم دبليو؟».

«إنها مسجَّلة باسم شركة تدعى سميث إند كو ديجيتال هولدينغز ليميتد».

«سميث!؟».

فأومأت برأسها. «مَقرّ الشركة في داندي. بحثتُ عنها في غوغل باستعمال هاتفي المحمول، ولكنني لم أتمكن من العثور على أي شيء».

«لا شيء البتة؟».

وهزّت رأسها قلِقة. «من الأفضل ربما أن نبقى على تواصل مع الشرطة بخصوص هذا الأمر؛ فمن الواضح أن هناك أمراً ما يحدث».

«لن تفعل الشرطة أي شيء ما لم تُرتَكب جريمة».

«حسناً، في الواقع، السيد سميث متّهَم بالاحتيال بسبب ادّعائه الكاذب. ولكن بما أنه لم يحاول استخلاص أي معلومات منا، أشك في أن تُبدي الشرطة اهتماماً بالأمر».

«إذاً، ماذا سنفعل؟».

فأجابتني: «لن نفعل أي شيء. سأرى إذا كان بإمكاني اكتشاف أي معلومات أخرى. وإذا توصّلتُ إلى أي شيء محدَّد... حسناً، سنتعامل مع الأمر وفقاً لذلك. ولكن في هذه الأثناء، لا تفعل أي شيء يا ترافيس، اتفقنا؟».

«لِمَ لا؟».

«تعرف السبب».

«لأنني لا أزال صغيراً في السنّ كما أفترض؟».

«أجل، أنت لا تزال صغيراً في السنّ».

«لا يعني ذلك أنني أبله».

«بلى، كونك شاباً صغيراً في السنّ يعني أنك أبله». قالت مبتسمةً لي، ثم تابعت: «كل الشباب الصغار في السنّ بُلَهاء. هذا هو عملهم».

فأطلقتُ ابتسامة عريضة.

ثم قالت بجدّيّة: «أعرف أنك لست غبيّاً يا تراف. وأعرف أنك قادر تماماً على الاعتناء بنفسك. ولكن، عليك أن تدَعني أهتم بك قليلاً أيضاً، اتفقنا؟». وابتسمت مجدداً. «جارِني فحسب، اتفقنا؟ تظاهر بأنني بالغةٌ مسؤولة وأعرف ما أتكلّم عنه».

لقد رأيتُ صفاء النيّة والعزم وراء ابتسامتها، وعرفتُ أنها لا تفكر فيّ فحسب، بل في أمي وأبي أيضاً، وقد عنى لي ذلك الكثير.

ولكن المرء لا يستطيع تمالك نفسه أحياناً مهما كان راغباً في القيام بما يُطلَب منه.

«اتفقنا».

«اتفقنا، وماذا أيضاً؟».

«اتفقنا يا سيدتي؟».

فضحكتْ.

قلت: «هل يمكنني استعادة النسخة المطبوعة؟».

«لماذا؟».
«أريد أن أُريها لجدّي».
«اعتقدتُ أنك أعربتَ عن عدم رغبتك في إزعاجه بأيٍّ من هذه الأمور؟».
«سيكون راغباً في معرفة بعض الأمور عندما يشعر بتحسّن».
أبقت نظراتها ثابتة عليّ لبعض الوقت، محاولةً قراءة أفكاري، ومن ثم مرّرت لي الصورة، مقتنعةً كما يبدو بأنني أقول الحقيقة. «عِدني بأنك لن تقوم بأي شيء بمفردك، اتفقنا؟».
«أعِدك». كذبتُ.

أنا لا أنكث بوعودي عادة، وقد شعرتُ بالسوء حقاً لأنني كَذبت على كورتني، ولكنني كنت سأشعر بالسوء أكثر بملايين المرات لو ذهبتُ إلى المنزل فحسب من دون القيام بأي شيء. فلو كان هناك يومان فقط قبل اليوم الأخير- أيّاً يكن معنى ذلك- إذاً لا وقت لديّ لعدم القيام بأي شيء. ويتعيّن عليّ اكتشاف ما يجري. ببساطة، عليّ أن أعرف.

وجّهتُ رسالة نصّيّة إلى جدتي أثناء دفعي دراجتي الهوائية على امتداد نورث واك - برفقة أصدقائي في البلدة، سأعود عند الساعة السادسة، ترافيس- ومن ثم انعطفتُ يميناً وسلكتُ ماغدالين هيل، وركبتُ دراجتي، وتوجّهت نحو وونفورد دوكس.

كان يوماً حارّاً، والرطوبة عالية. وبالرغم من بُعدي عن أحواض السُّفُن مسافة كيلومترَين فقط، وصلتُ إلى هناك متعرِّقاً. فالمنطقة المعروفة بوونفورد دوكس خليط من مبانٍ صناعية قديمة، ومرائب لتصليح السيارات، ومَلاهٍ ليلية قذِرة المَظهر. ربما تبدو الملاهي الليلية مختلفة جداً في الليل، ولكنني لم أرَها إلا في النهار، وتبدو لي على الدوام حزينة كما لو أنها خجِلة من ذاتها تقريباً.

مررتُ أمامها ببطء، سامحاً لجسدي بأن يبرُد قليلاً، ومن ثم انعطفتُ يساراً إلى داخل زقاق صغير وضيّق ينحدر في اتجاه أحواض السُّفُن. تقوم على جانبَي الزقاق مبانٍ من الآجرّ عرفتُ أنها مستودعات ومطاحن قديمة، وأبوابها خشبية كبيرة، وجدرانها مبقَّعة بالسُّخام، وتتدلى لافتات بَهُتت بفعل عوامل الطقس من سلاسل صدِئة. لقد صدّت المباني معظم ضوء الشمس، وأثناء قيادتي الدراجة بحرّيّة حتى آخر الزقاق، كان الجوّ داكناً ومُظلِماً جداً، لدرجة صعوبة التصديق بأنه منتصف اليوم.

كان نادي الملاكمة يقع في مستودعٍ محوَّلٍ في منتصف الزقاق تقريباً. فتوقفتُ في الخارج، وحدّقت إلى اللافتة فوق الباب. **نادي وونفورد للملاكمة**، قالت العبارة ببساطة. لا شيء آخر. **نادي وونفورد للملاكمة** فحسب. ولو أضافوا إلى اللافتة عبارة اقبل النادي على حقيقته أو غادر، لَما بدت في غير مكانها.

ترجّلتُ عن دراجتي، ولففت السلسلة حول الدرابزين على جانب الطريق مرتين. ومسحتُ العرق عن جبيني، ونظرتُ حَولي إلى الشارع المُقفِر، ثم عبرتُ إلى الباب الخشبي، وفتحتُه، ودخلت.

كانت القاعة الرياضية كبيرة من الداخل أكثر مما تخيّلتُ، وهي عبارة عن غرفة ذات جدران من الآجرّ، سقفها عالٍ وأرضها إسمنتية. وبالرغم من اختلافها عن نادي الملاكمة الذي أرتاده من بعض النواحي، إلاّ أن الجوّ ككل يبدو مماثلاً إلى حد كبير. فالهيكلية مماثلة نوعاً ما. على الأقل، توجد حَلَبتا ملاكمة مرّت على كلتيهما أيام أفضل، ومجموعة من أكياس الملاكمة القديمة التي تحمل

آثار تعرّضها للَكمات مبرّحة؛ ومنطقة لتمارين الأثقال، وأخرى للّياقة البدنية العامة، ومقاعد، وبُسط. لا خَطْب في ذلك أبداً- كل ما يحتاج إليه المرء موجود- ولكن في ناديَّ أكاديمية بارتون للملاكمة، هناك عدد أكبر من التجهيزات: قاعتان رياضيتان، تجهيزات مضاعَفة وأكثر تطوراً، كل شيء يدوّي وعلى الموضة. وفي ناديّ عدد أكبر من المزايا أيضاً؛ قهوة، بِركة سباحة، تدفئة مركزية، موظفين ببِزلات رسمية. ولكن ناديّ ليس على بُعد خمس دقائق من منطقة سليد لين سَيراً على الأقدام، بل في منطقة جميلة وهادئة في الجانب الآخر للبلدة. وليس رخيصاً أيضاً، ويشغل معظم أعضائه وظائف جيدة، وأهل الشباب الصغار في السنّ الذين يرتادونه لديهم وظائف جيدة. إن ناديّ الرياضي قائم في عالم مختلف عن هذا العالم.

ولكن الملاكمةَ ملاكمة. وبصرف النظر عن كل الأمور السطحية، يبدو كل شيء آخر مألوفاً جداً. فالأصوات والروائح مماثلة؛ أي الصوت المكتومِ الصادر عن ضرب قفّازات الملاكمة للأجساد، ووطء الجزمات على أرض الحلَبة، والنخير والأنين الناجمان عن بَذل الجهد، ورائحة التعرّق. وأثناء وقوفي محدقاً إلى الأرجاء، أدركت أن كل شيء يبدو مألوفاً جداً أيضاً. فهناك رجال وفتيان يرتدون صُدرات وسراويل، بعضهم يتمرّن على أكياس الملاكمة، والبعض الآخر يتواثب، وآخرون يلاكمون داخل الحلَبة. معظمهم أكبر سنّاً مني- شباب صغار في السنّ من هذه المنطقة السكنية، ولكنهم أكبر سنّاً مني، وقُساةُ الملامح- ولكنّ هناك عدداً قليلاً من الشبان في مِثل سنّي تقريباً.

على حدّ عِلمي، هناك فتاة واحدة وسط الرجال، وتبدو في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من العمر. كانت بمفردها، وتتدرب على أحد أكياس الملاكمة الثقيلة المدلاّة من السقف، فترقص حوله، وتوجّه له لكمات قوية وجيدة، وفي عينَيها الداكنتَين تركيز بالغ.

«أتريد شيئاً ما؟».

نظرت حَولي، فرأيت شخصاً أسود البشرة وقاسي الملامح يقف أمامي. إنه أكبر سنّاً من معظم الشباب الصغار في السنّ الآخرين الذين كانوا يتمرنون في القاعة الرياضية، في أواخر العقد الثالث من العمر على الأقل، ويبدو أنه خاض عدداً كبيراً من المباريات؛ فلديه أنف مكسور، وعينان تعرّضتا للّكم، وندوب على وجهه. كان عاري الصدر، ويداه ملفوفتَان، وعلى كتفَيه منشفة مبلَّلة بالعرَق. أعتقد أنه أنهى للتوّ دورة في الحلَبة.

فقلت له: «أبحث عن جون رودي».

فقال ماسحاً أنفه: «حقاً؟! ومن تكون؟».

«ترافيس ديلاني».

صمت للحظات محدّقاً إليّ بملامح قاسية، ثم سألني: «أهناك صِلة تجمعك بجاك ديلاني؟».

«كان أبي».

فأومأ الشاب أسود البشرة برأسه ببطء ثم قال: «رأيتُه يلاكم بضع مرات عندما كنت صغيراً. كان جيداً». ومسح أنفه ثانيةً، ونظر إلى الأسفل، ثم تابع: «آسف لسماع ذلك... حسناً، كما تعلم».

«أجل، شكراً».

رفع نظره إليّ مجدداً وقال: «تريد رؤية السيد رودي، أليس كذلك؟».

فأومأتُ برأسي.

«ها هو هناك». قال ملتفتاً إلى الوراء، ومشيراً في اتجاه حلَبة الملاكمة الأكثر قرباً منا، وتابع: «الرجل أبيض الشعر».

نظرتُ إلى حيث أشار، فرأيت رجلاً مُسِنّاً نحيفاً وقويّ البنية، شعره أبيض وقصير. وفي الحلَبة شابّان صغيرا السنّ يعتمران واقيَين للرأس ويتلاكمان، والرجل المُسِنّ يُصدر توجيهات لهما، صائحاً: أبقيا أيديكما مرفوعة، يا دواين! وجّه له لكمات! استخدم قدمَيك، يا جز! لا تَدَعْه يدفعك إلى الوراء!».

«سيد رودي!». نادى الشاب أسود البشرة. «هناك من يريد رؤيتك!».

نظر السيد رودي نحونا، وبدا منزعجاً في بادئ الأمر بسبب مقاطعته، ولكنه عندما رآني، تبدّلت ملامح وجهه. لقد رأيت نظرةَ تمييز في عينَيه، ومن ثم دهشة، وبعد ذلك شيئاً آخر؛ شيئاً ما لم أتمكن من قراءته. والتفت مجدداً إلى الشابَّين صغيرَي السنّ في الحلَبة للحظات، وطلب منهما الاستراحة، ومن ثم لوّح لي للتوجّه إليه.

«أنت تشبه والدك تماماً». قال لي السيد رودي. «لهذا عرفتُك. أنت صورة طِبق الأصل عنه».

كنا في غرفة مكتبه، وهي غرفة صغيرة وضيّقة تقع في مؤخّر القاعة الرياضية. وكان يجلس على كرسيّ دوّار قديم وراء طاولته، في حين جلست على كرسيّ خشبيّ قديم أيضاً في الجهة المقابلة له. كان يرتدي ملابس التمرين وينتعل حذاء رياضياً. وكانت جدران مكتبه مغطاة بصور مؤطّرة لملاكمين. لقد عرفتُ بعضهم- فهم متبارون محليّون احترفوا الملاكمة- ولكن العديد من الصور الفوتوغرافية قديم العهد، ولم أعرف معظم الملاكمين الظاهرين فيها.

«ذلك والدك هناك». قال السيد رودي مشيراً بفخر إلى إحدى الصور. «في نهائيّ بطولة إسِّكس للأحداث للعام 1991». وابتسم. «خسر والدك بفارق علامة واحدة. اكتشفنا في ما بعد أن أحد القضاة هو عمّ الفتى الذي هزمه. لقد ثار غضبي تماماً وهممتُ بتقديم شكوى رسمية، ولكن والدك لم يشأ ذلك. قال إننا ما دمنا نعرف البطل الحقيقي، فهذا كل ما يهمّ».

رفعت نظري في اتجاه الصورة الفوتوغرافية. كانت تُظهر أبي في حلبة الملاكمة وهو يسدّد لكمة خطافيّة بيده اليمنى إلى خصمه. أعتقد أنه كان في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من العمر آنذاك. إن السيد رودي مُحِق، فأبي يشبهني كثيراً، أو بالأحرى أنا أشبهه كثيراً.

«آسف في شأن أمك وأبيك». قال السيد رودي بحزن وهو يهزّ رأسه، ثم تابع: «يا له من أمر رهيب...»

أومأت برأسي فحسب. كنت قد بدأت بالاعتياد على التعازي المُحرِجة؛ غير عالِمٍ في الواقع ما يجدر بي قوله، أو كيفية قول ذلك، أو ما إذا كان ينبغي لي قول أي شيء.

تابع السيد رودي: «لا أزال أجد صعوبة في التصديق. أعني، كان والدك منذ أسابيع قليلة فقط جالساً حيث تجلس الآن، هناك بالذات، يرتشف كوب شاي». وهزّ رأسه مجدداً. «إنه أمر غير قابل للتصديق».

«هل حدث ذلك عندما جاء بخصوص التحقيق في شأن أشخاصك المفقودين؟».

«هل أخبرك عن ذلك؟».

«لا، ولكنني أحاول اكتشاف ما كان أبي وأمي يعملان عليه عندما تُوُفّيا. وتذكر مساعِدتُهما اتصالك بالمكتب لتحديد موعد في نهاية حزيران/ يونيو».

«صحيح. مرّ بي جاك بعد أيام قليلة من اتصالي».

«هل تذكر التاريخ؟».

وتجهّم وجهه محاولاً التذكر، ثم أجاب: «كان يوم اثنَين، أعلم ذلك. يوم الاثنَين الأول من تموز/ يوليو، كما أعتقد. أيّاً يكن تاريخ ذلك اليوم».

«ماذا أردتَ من أمي وأبي أن يفعلا لأجلك؟».

فتردد للحظات ناظراً إليّ باهتمام ثم سألني: «لماذا تحاول اكتشاف ما الذي كانا يعملان عليه يا ترافيس؟ هل للأمر علاقة بطريقة وفاتهما؟».

أقررتُ: «لا أعرف. هناك بعض الأمور المتعلقة بحادث تحطّم السيارة لا أفهمها، هذا كل شيء. قد لا تعني أي شيء، ولكنني بحاجة إلى التأكد من ذلك وإلا لَما توقفتُ أبداً عن التفكير فيها».

أومأ السيد رودي برأسه مفكراً بعمق، وناظراً إلى عينَيّ مباشرة، ومن ثم مدّ يده إلى داخل دُرج طاولة مكتبه وأخرج ملفاً أسود مألوفَ المظهر. على الناحية الأمامية للملف كتبت عبارة ديلاني وشركاؤه، وتحتها عبارة تقرير أوّلي.

مرّر لي الملف، وشرع بإخباري عن ملاكم يدعى بشير كمال.

بشير أفضل ملاكم شاب عمل معه يوماً، كما قال لي. كان في العشرين من عمره، وينتمي إلى فئة الوزن الخفيف الوسط في الملاكمة، وتدرّب مع السيد رودي طوال عامَين. لقد فاز في ست وعشرين مباراة من أصل سبع وعشرين مباراة للهواة، اثنتان وعشرون منها ضمن المسافة الفنّية، وكان يتدرّب بكدّ منذ أول أيار/ مايو استعداداً لمباراته الاحترافية الأولى.

تابع السيد رودي: «كان باش متعصّباً حيال التدريب، ولم يُغفل أي دورة قط. وكان يصل في الوقت المحدَّد على الدوام، ولم يتذمّر من أي شيء، بل كان يصل كل يوم ويشرع بالتمرين فوراً. ذات يوم، لم يأتِ، ولم يتصل ليُبلغ عن إصابته بالمرض، أو بأي شيء آخر، ولم يترك رسالة. لم يأتِ فحسب. حدث ذلك قبل ستة أيام فقط من مباراته الاحترافية الأولى. حاولتُ الاتصال به، ولكنه لم يُجب على الهاتف. ولم يردّ أيضاً على رسائلي الموجَّهة إليه عبر البريد الصوتي. لذلك، توجّهت إلى منزله في نهاية المطاف لأتحقق مما يجري».

يقيم بشير مع والدَيه في منزل يملكه المجلس البلدي في منطقة بيكون فيلدس؛ حسبما أخبرني السيد رودي. وقد انتقل للإقامة معهما في المنزل منذ سنوات قليلة، أي بعد إقامتهم في لندن لبعض الوقت، ولم يكن قد عثر على منزل خاص به بعد.

قال السيد رودي: «عندما وصلتُ إلى هناك، لم تُدخلني والدته، وقالت لي إنه غادر إلى باكستان للاهتمام بجدته المريضة بشدة. لم أصدّقها. إذ ما كان باش لِيذهب إلى باكستان من دون إبلاغي؛ فهو ليس من ذلك النوع من الأشخاص. وكان هناك أمر مريب في شأن تصرّف والدته بأية حال، شيء ما لم يَبدُ صائباً. وعندما سألتُها عن كيفية تمكّني من الاتصال ببشير، لم تُخبرني. كان الأمر غريباً حقاً».

«إذاً، ماذا فعلت؟». سألتُه، فهز كتفَيه. «ماذا يمكنني أن أفعل؟ لا يمكنني إرغامها على إخباري بأي شيء، ولا إثبات لديّ على أنها تكذب. لم يكن بإمكاني القيام بأي شيء حيال ذلك».

«ماذا عن إبلاغ الشرطة؟».

«حاولتُ ذلك، ولكن لم يكن باستطاعتهم القيام بأي شيء أيضاً. فبشير ليس صغيراً في السنّ، وكان في العشرين من عمره. وباستطاعته الذهاب إلى حيث يشاء، ومتى يشاء. وهو ليس مُلزَماً بإطلاع أي شخص على مكانه. وإذا أراد التخلي عن مهنة الملاكمة للاعتناء بجدته المريضة في باكستان، فالأمر يخصه كلّيّاً».

«إذاً، طلبتَ من أبي جمع معلومات، أليس كذلك؟».

فأومأ السيد رودي برأسه، وقال مشيراً إلى الملف: «وبعد يومَين، عاد مع هذا الملف».

فتحتُ التقرير وشرعتُ بتقليب الصفحات.

«كان والدك على ثقة تامة بأن باش لم يكن في منزل والدَيه». قال السيد رودي. «ووفقاً لوالدك، لم يرَه أحد أو يَبلغه أي شيء منه منذ توقفه عن ارتياد القاعة الرياضية».

«ولكن أبي لم يجد أي شيء ليقترح أن «بشير» قد غادر البلد». قلت متصفّحاً التقرير.

«صحيح. قال لي جاك إنه كان سعيداً بمواصلة البحث عن بشير، ولكن ذلك قد يتطلب بعض الوقت، وستترتِّب عليّ تكلفة عالية بالرغم من حَسْم نسبة كبيرة من المبلغ، فطلبتُ منه مواصلة البحث».

«هل اكتشف أي شيء آخر؟».

«لا شيء محدَّد. ولكنه اتصل بي مرتَين، وقال إنهما يحققان بعض التقدم».

واصلتُ التمعّن في التقرير. كانت هناك خُلاصة عن القضية في الصفحة الأولى توجِز ما قاله السيد رودي لأبي، وفي الصفحة الثانية تفاصيل شخصية عن بشير كمال، كالعمر، والعنوان، ورقم الهاتف، إلخ... وهناك أيضاً صورة فوتوغرافية له: وجهه طويل نوعاً ما، وشعره أسود وقصير، وعيناه داكنتان وتلازمان الذاكرة بسبب مظهرهما.

فقرأتُ الموجَز بسرعة.

«ماذا عن انشغال بشير بأمر ما؟». سألت السيد رودي.

«طرح عليّ أبوك أنواع الأسئلة كافة عن بشير، وأذكر أن «بشير» لم يكن مركِّزاً كعادته قبل أسبوع تقريباً من اختفائه. لقد بدا... لا أعلم، مشتَّت الفكر بسبب أمر ما. كما لو أن في ذِهنه أمراً آخر؛ أمراً ما غير المباراة».

«هل سألتَه عن الأمر؟».

«أجل، ولكنه هزّ كتفَيه فحسب، وقال إن لا أهمية للأمر».

فكرتُ في ذلك لثوانٍ قليلة، ومن ثم سألته: «متى جرى الاتصال الأخير بينك وبين أبي؟».

«اتصل بي مرتَين قبل حادث تحطّم السيارة. فقد أراد أن يعرف إذا كنت أعرف أي شيء عن حياة بشير قبل قدومه إلى بارتون». وهزّ السيد رودي كتفَيه، ثم تابع: «لم يكن لديّ ما أخبره به في الواقع. فباش شخص منعزل جداً ولا يحب

التحدث عن نفسه. وكل ما أخبرني به هو أنه كان يقيم في الطرف الشرقي من لندن لبعض الوقت، وتلقى معظم تدريبه في نادٍ للملاكمة في مكان ما من ستراتفورد».

فقلت: «صحيح. وهل هذا كل شيء؟ ألم يُبلغك أبي بأي شيء بعد ذلك؟».

«لا».

أغلقتُ الملف، وجلست هناك لبعض الوقت مفكراً في كل ما قاله لي السيد رودي، ومحاولاً معرفة ما إذا كان يعني أي شيء، وإذا كان يحمل في طيّاته أي معنى فما هو هذا المعنى. ولكنني لم أتعمّق كثيراً في التفكير. ففي الحقيقة، لم أكن أملك أية إلماعة عما يجدر بي فعله.

«هل يمكنني الاحتفاظ به؟». سألت السيد رودي رافعاً الملف.

«لا أرى سبباً لعدم احتفاظك به».

عندها، أخرجتُ هاتفي المحمول وأَرَيتُه الصورة الفوتوغرافية لرجل الجنازة، ثم سألته: «هل سبق لك أن رأيتَه؟».

فهز السيد رودي رأسه نافياً، ثم سألني: «من هو؟».

«لا أعرف». قلت مُخرِجاً النسخة المطبوعة من جَيبي، ثم سألته مجدداً: «ماذا عن هؤلاء الرجال؟». وأَرَيته الصورة. «هل تعرف أيّاً منهم؟».

«ذلك الرجل موجود في الصورة الفوتوغرافية الأخرى، أليس كذلك؟». قال مشيراً إلى رجل الجنازة.

«أجل، ولكن ماذا عن الآخرَين؟ هل سبق لك أن رأيت أيّاً منهما في الجوار؟».

«لا، آسف».

«هل يمكنني تمرير الصورتين على الأشخاص الموجودين في القاعة الرياضية لمعرفة ما إذا كان أيٌّ منهم يعرفهم؟».

«بالطبع، لا مشكلة في ذلك».

«هل تحدّث أبي إلى أي شخص آخر هنا عن بشير؟».

«تحدّث إلى الكل تقريباً. ولكن، لا أعتقد أنهم قدّموا له مساعدة كبيرة. فكما قلتُ، كان بشير شخصاً منعزلاً جداً، وكان يمتنع عن مخالطة الناس. الكل هنا يعرفونه بالطبع، والكل يحترمونه كملاكم، ولكن باش لم يتخذ له أصدقاء في الواقع. ليس على حدّ عِلمي بأية حال».

«حسناً». قلت له ووقفت، ثم تابعت: «حسناً، شكراً لك على كل المساعدة التي قدّمتَها لي يا سيد رودي. سأُعلِمك إذا ظهر أي شيء جديد».

فابتسم لي وقال: «سمعتُ أنك ملاكم جيد».

«لا أعرف إذا كنت كذلك فعلاً».

«كان أبوك فخوراً بك جداً ».

«حقاً؟!».

فأومأ السيد رودي برأسه.

لم أعرف ماذا أقول غير ذلك. وقفتُ هناك فحسب، مستديراً وناظراً إليه

للحظات قليلة، وشاعراً بوخز الدموع في عينَيّ، ومن ثم أخذت نفَساً عميقاً، وابتلعتُ لعابي بصعوبة، ودخلت القاعة الرياضية.

كان السيد رودي مُحِقّاً في شأن الملاكمين الآخرين. فأيٌّ منهم لا يعرف الكثير عن بشير. ولم يشاءوا جميعاً التحدث إليّ- فالشباب الصغار في السنّ من منطقة سليد السكنية كانوا بطبيعتهم يرتابون بكل من يطرح الأسئلة- ولكن أولئك الذين كانوا سعداء بالتحدث إليّ لم يكن لديهم الكثير ليقولوه. وبصرف النظر عن كونه ملاكماً بارعاً، لم يكن أحد يعرف أي شيء عن بشير كما يبدو، كما أن أحداً لم يعرف أيّاً من الرجال في الصورتين. وبعد تحدّثي إلى الكل في القاعة الرياضية باستثناء الفتاة داكنة العينَين، فقدتُ كل أمل بمعرفة أي شيء مفيد.

لا أعرف سبب تركي الفتاة إلى النهاية. أفترض- إذا كنت صادقاً- أن السبب مزيج من الخوف والإحراج. كانت لا تزال تتمرّن على كيس الملاكمة الثقيل، والنظرة الظاهرة على وجهها أثناء ضربها إياه بقبضتَي يدَيها مخيفة تماماً، وغير متصنّعة. أعني أنها كانت تلكم الكيس كما لو أنها تحاول قتله أو ما شابه. لم يسبق لي أن رأيت أمراً مماثلاً من قبل. فهي تبدو شديدة الانفعال والاندفاع؛ لدرجة أنني فكرت مليّاً في تركها وشأنها. ولكنها بدت لطيفة في الواقع- بعينَيها الداكنتَين، وبشرتها الجميلة بلونها البنّي الفاتح، ووجهها المثير للاهتمام على نحو غريب- ولم أتمكن من منع نفسي من إلقاء نظرات سريعة عليها. كنت أعرف أنني أريد التحدث إليها، ولكنني كنت أعرف أيضاً أنني لا أريد التحدث إليها. إنه شعور غريب حقاً؛ جيد وسيّئ في آن واحد. إنه أمر مُربِك جداً.

أخيراً، طلبتُ من نفسي ألا أكون غبياً، وتوجّهتُ إليها فحسب وعرّفتُها بنفسي.

«مرحباً، أنا ترافيس ديلاني. هل تمانعين قيامي بطرح عدد قليل من الأسئلة عليك عن بشير كمال؟».

لم تُجِب، حتى إنها لم تنظر إليّ، بل واصلت توجيه اللكمات إلى الكيس.

«عُذراً». قلت رافعاً صوتي قليلاً.

فوثبت في اتجاه اليمين وشرعت بتوجيه لكمات أقوى إلى الكيس، مواصلةً تجاهلي بالكامل. انزعجتُ من سلوكها حقاً، وعرفتُ أنه لا يُفترض بي الانزعاج، وحاولتُ القول لنفسي إن الأمر ببساطة غير جدير بالانزعاج؛ فهي حرة في التصرف كصغيرة أفسدها الدلال. ولكنني لم أشأ الإصغاء إلى نفسي كما يبدو لسبب ما. فوقفتُ هناك لبعض الوقت، مراقباً إيّاها وهي تضرب الكيس بقوة، ومن ثم قلت لها بهدوء تام: «أنتِ بحاجة إلى العمل على اللكمات المتجهة من الأسفل إلى الأعلى».

لقد نجم عن ذلك رد فعل.

«أنتِ ماذا؟». قالت بحِدّة، متوقفةً فجأةً ومحملقةً إليّ.

فقلت: «اللكمات اليسرى المتجهة من الأسفل إلى الأعلى. أنت بحاجة إلى إنزال كتفك أكثر مما تُنزلينها بقليل».

«حقاً؟». قالت بتهكّم.

«يجب أن يكون مرفقكِ أقرب إلى وركك».

«أتعتقد أنني لا أعرف كيفية توجيه لكمة من الأسفل إلى الأعلى؟».

فهززتُ كتفيّ، وأجبتها: «أحاول المساعدة ليس إلا».

«أحاول المساعدة ليس إلا». قالت ساخرةً مني.

لم يُثِرْني تهكّمها، وحدّقتُ إليها فحسب.

فقالت: «ما الذي تعرفه عن الملاكمة بأية حال؟».

«أمارس الملاكمة منذ صِغري».

«ليس هنا. لم تمارس الملاكمة هنا».

فقلت لها: «أنا أرتاد أكاديمية بارتون للملاكمة».

عندها، أطلقت ابتسامة عريضة ورددت: «أكاديمية بارتون للملاكمة؟».

«أجل».

«لديك أم وأب ثريّان، أليس كذلك؟».

لم أقل شيئاً، لم أتمكن من قول أي شيء. كنت غاضباً جداً، ولم أستطع الكلام. أطبقت فكّيّ فحسب، وحدّقتُ إليها ببرودة. وأعتقد أنها أدركت قولها شيئاً ما لم يكن يُفترض بها قوله- إذ رأيت وميض الرِّيبة في عينَيها- وبالرغم من عدم تراجعها عن كلامها أو ما شابه، وجدت اللياقة على الأقل لتغيير الموضوع.

فقالت: «انظر، لستُ بحاجة إلى مساعدتك، اتفقنا؟ أعرف ما أفعله».

«لم أقل إنك لا تعرفين ما تفعلينه».

«فقط لأنني فتاة...»

«ما علاقة ذلك بأي شيء؟!».

فترددت للحظات مرتبكة ثم قالت: «باستطاعتي خوض مباراة».

«أعرف أن باستطاعتك فعل ذلك».

«لا تعاملْني بتعالٍ».

«لا...»

«باستطاعتي ركل مؤخرتك».

لم أقصد الضحك، ولكنني أطلقت ضحكة فحسب، ضحكة سريعة. لم أكن أسخر منها، بل أضحك بسبب سخافة الموقف. ولكنها لم تعتبر الأمر كذلك بالطبع، بل اعتبرته إهانة لها. ويمكنني القول من طريقة نظرها إليّ إنني على وشك دفع الثمن. إذ كانت تنظر إليّ كما تنظر إلى جِراب الملاكمة.

فقلت رافعاً يدَيّ: «هِيه، اسمعي، لم أعنِ...»

«أتعتقد أن باستطاعتك التغلّب عليّ؟».

فهززتُ رأسي نافياً وقلت: «كنتُ...»

«حسناً، لماذا لا نكتشف الحقيقة؟». وألقت نظرة سريعة من فوق كتفها إلى أقرب حلبة للملاكمة فوجدتْها فارغة، ومن ثم التفتت إليّ وسألتني: «ما قياس القفّازين اللذين تستعملهما؟».

«لن ألاكمك».

«لِمَ لا؟». قالت باستهزاء. «هل أنت خائف من التعرض للضرب على يدَي فتاة؟».

«لا، أنا...»

«أنت ماذا؟».

فتنهدتُ، ثم أجبتها: «الأمر سخيف».

«هيا، أيها الرجل القوي». قالت مبتسمة ابتسامة ساخرة. «لِنرَ ماذا لديك. أَرِني كيف يُفترض بي القيام بذلك».

كنت مُدركاً أن الناس يراقبوننا؛ لأن الهدوء ساد في القاعة الرياضية، والتفت أكثر من عشرة وجوه في اتجاهنا، ناظرين إلينا بِفُضول وتسلية.

عندها، قالت الفتاة: «اسمع، ادخُل الحلَبة معي، وإذا لم أُوقعك أرضاً فسأُجيب عن أسئلتك. ما رأيك؟».

فنظرت إليها، وحدّقت إلى عينَيها، وعرفتُ أن هناك أمراً واحداً يتعيّن القيام به. من غير الممكن خوض مباراة معها لأنها ستكون مباراة عبثيّة، وطفولية، وغبيّة تماماً. ولكن، ماذا لو اعتقدتْ- أو اعتقد أي شخص آخر- أنني خائف؟ لا شيء لديّ لأُثبته. فكل ما يتعيّن عليّ القيام به هو الاستدارة والابتعاد. إنه الأمر الحكيم الوحيد الذي يجدر بي فعله. استدِر فحسب، في الحال، وابتعد.

«حسناً». قلت لها مبتسماً، ثم تابعت: «أتريدين قتالاً؟ فلنتقاتلْ».

عندما عثر لي أحدهم على قفّازَين للملاكمة وواقٍ للرأس وأداة لحماية الأسنان، واستعددتُ ودخلتُ الحلَبة، كنت أشعر بالأسف بسبب القرار الذي اتخذته. كان يُفترض بي الإصغاء إلى صوت عقلي؛ فخوض مباراة معها أمر عبَثيّ وطفوليّ وغبيّ تماماً. ولم أكن أملك أية فكرة عن سبب موافقتي على نِزالها.

ولكن الأوان فات على تغييري رأيي.

إذ صار أحدنا يواجه الآخر وسط الحلَبة، وأوقف كل من في القاعة الرياضية عمله، وتجمّعوا حولنا لمشاهدتنا، بمن فيهم السيد رودي. واستغلّ بعض الشباب الصغار في السنّ المناسبة لأقصى درجة؛ هاتفين وضاحكين، وصافرين ومصفّقين، وهاتفين للفتاة: هيا يا إيفي! أوقعيه أرضاً يا فتاة! إي-في! إي-في! إي-في!

على الأقل بتُّ أعرف اسمها الآن.

إيفي.

إنه اسم جميل.

«هل أنت مستعد؟». قالت ناظرةً إلى عينَيّ مباشرة.

فسألتها: «كيف ستجري الأمور؟».

عندها، أطلقت ابتسامة واسعة، وأجابت: «سأضربك، وستقع أرضاً. هكذا ستجري الأمور».

«تعرفين ما أعنيه. ما عدد الجولات؟ وكم تدوم الجولة الواحدة؟ من س...»

«هل ستقاتل أم ستقف هناك فحسب وتثرثر؟».

فحدّقتُ إليها.

ومن دون أن ترفع نظرها عن نظري، رفعتْ قبضتيها، واتخذت وضعيّتها القتالية، وشرعت بالوثب والرقص في مكانها. راقبتُها للحظات، مُبقياً يدَيّ على جانبَيّ، ومن ثم رفعتُ قفّازَيّ بتحدٍّ.

«هل أنت مستعد؟».

فحرّكت قدمَيّ، ووقفتُ في حالة من التوازن، ثم قلت لها: «حسناً، فلنبدأ».

تحركتْ بسرعة كبيرة، لدرجة عدم تسنّي الفرصة لي كي أقوم بأي ردّ فعل. إذ أنزلت بسرعة كتفها اليسرى، وخطت خطوة صغيرة في اتجاهي، ووجّهت لي ضربة قوية على أضلُعي، مُخرجةً كل الهواء من صدري، فانهرتُ على رُكبة واحدة لاهثاً. وأثناء إغماضي عينَيّ وعصرهما محاولاً التنفس وتجاهل الألم، لم ألاحظ بشكل واضح الناس وهم يهتفون ويصيحون، ولكن بدا الأمر كما لو أنهم في مكان بعيد جداً. فسيطرت على نفسي، وتنشّقت مِلء رئتيّ من الهواء، ونظرت إلى إيفي.

كانت واقفة فوقي مبتسمة.

وسألتني: «كيف وجدتَ اللكمة اليسرى المتجهة من الأسفل إلى الأعلى؟

هل أنزلتُ كتفي بما يكفي برأيك؟».

أخذتُ نفَساً عميقاً آخر، ووقفتُ مجدداً، واتخذتُ وضعية القتال.

«هل أنت واثق من رغبتك في المتابعة؟». قالت مواصلةً الابتسام.

وجّهتُ لها لكمة خفيفة باليد اليسرى على رأسها، فانحنت إلى الوراء في الوقت المناسب متجنّبةً إيّاها، ولكنها كانت كافية لمسح البسمة عن وجهها. حملقت بي للحظات، ومن ثم اندفعت إلى الأمام ووجّهت لي لكمة معقوفة بيدها اليمنى، فتفاديتها بيدي اليسرى، ووثبتُ إلى الجهة اليمنى. حاولتْ ثانيةً، مراوغةً هذه المرة لتوجيه لكمة يسرى أخرى من الأسفل إلى الأعلى، ومن ثم مستبدلةً إيّاها بلكمة مباشَرة باليد اليمنى في اللحظة الأخيرة. لم تكن خطوة سيّئة، ولكنني عرفتُ أنها ستقوم بها. ولذلك، أثناء نقلها وزنها لتسديد اللكمة المباشَرة، وجّهتُ لها لكمة خفيفة بيدي اليسرى أصابت وجهها وأفقدتها توازنها. ردّت على ذلك فوراً، مندفعةً إلى الأمام وملوّحةً بيدها اليمنى، ولكنني استبقتُ الأمر، وتملّصتُ مجدداً من التسديدة التي مرّت على مَبعُدة من رأسي، مُغفلةً إيّاه.

في الدقائق القليلة التالية، تُواصل القتال على الوتيرة نفسها. لقد استمرّت إيفي بالانقضاض إلى الأمام بسرعة فائقة، مسدِّدةً لكمة تِلوَ الأخرى في اتجاهي، واستمررت بالاهتزاز والتلوّي. كنت أوجّه لها من حين إلى آخر لكمة خفيفة على الرأس. وكلما ضربتُها، تراجعتْ إلى الوراء قليلاً، محاولةً السيطرة على عدوانيّتها. ولكن، حالما شرعتْ بتوجيه اللكمات مرة أخرى، استعادت كل عدوانيّتها. بدا الأمر أشبه بقتال العِفريت التَّسماني. وبالرغم من إخفاق معظم لكماتها في إصابة أهدافها، تمكنتْ من توجيه لكمتَين قويّتَين لي لم يسبق لي أن تلقّيتُ أقوى منهما. أعني، باستطاعتها اللكم حقاً! لا ريب في أنها مقاتلة جيدة. في الواقع، ربما تكون أفضل مني في القتال، ولكنني الملاكم الأفضل. إذ ربما كانت إيفي أكبر حجماً مني وأقوى وأكثر عدوانيّة، ولكن الملاكمة تتطلب أكثر من القوة والعدوانية.

ولاحظتُ أنها تعبتْ. إذ إن تسديد اللكمات يستنفد الكثير من طاقة المرء، ولا سيما إذا كان يوجّه ضربات قوية إلى كيس ملاكمة ثقيل طوال ساعات. وعندما يتعب يفقد مهارته. لذا، أثناء انقضاض إيفي عليّ مجدداً، محاولةً تسديد لكمة معقوفة بيدها اليمنى، وجدت أنها لا تقف بشكل متوازن؛ فوضعيّتها خاطئة، وقدماها في غير الموضعين اللذين يجب أن يكونا فيه، وعرفتُ أنها فرصتي لإنهاء القتال. لذا، بدلاً من الوثوب هذه المرة بعيداً عنها، لازمتُ مكاني، وسمحت لها بالاقتراب مني ووضْع كل ثقلها لتسديد اللكمة. وأثناء توجيهها اللكمة المعقوفة الكبيرة بيدها اليمنى، انحنيتُ إلى الوراء بسرعة، فأخفقت يدها اليمنى في إصابة ذَقني، وأفقدتها قوة لكمتها توازنَها فتعثّرت إلى يساري، فسدَّدتُ فوراً لكمة على جانب رأسها.

لم أشأ صرعها أو ما شابه، ولم أوجّه لها ضربة قوية في الواقع، ولكن بسبب

فقدانها توازنها وتلقّيها اللكمة أثناء إدارتها رأسها، أصبتُها في المكان الصحيح- أو المكان الخاطئ من وجهة نظرها- فوقعت على أرض الحلَبة ككيسٍ مليء بالآجرّ.

فجأةً، ساد الهدوء القاعة الرياضية.

نظرتُ إلى إيفي وأنا أتنفس بصعوبة، وخشيتُ للحظات قليلة من الأسوأ. لم تكن تتحرك، بل كانت مستلقية هناك فحسب، ووجهها على الأرض، ويداها على جَانبَيها. جثمتُ بسرعة بجانبها، وكنت أمدّ يدي لإزالة القطعة التي تحمي أسنانها عندما دفعت نفسها فجأةً إلى الأعلى، وجلست على أرض الحلَبة بشكل مستقيم.

«أُفّ!». ولهثت بهدوء، طارفةً عينَيها وهازّةً رأسها. «ماذا حدث هناك!؟».

«هل أنت بخير؟». سألتُها.

«بالطبع أنا بخير. لقد تعثّرتُ، هذا كل شيء. لقد حالفك الحظ».

فابتسمتُ شاعراً بالارتياح لأنها بخير. ومددتُ لها يدي. ترددت للحظات، ومن ثم أمسكتْ بها وسمحت لي بمساعدتها.

«سنعتبر أن هذه المباراة انتهت بالتعادل، اتفقنا؟».

فأومأتُ برأسي.

عندها، أطلقت ابتسامة عريضة وقالت: «ولكنني لن أتساهل معك كثيراً في الجولة التالية».

«الجولة التالية؟!».

«ما الأمر؟ هل اكتفيتَ؟».

وأثناء تحديقي إليها وأنا محتار، صعد السيد رودي إلى الحلَبة، وتوجّه نحونا قائلاً: «أعتقد أنكما اكتفيتما في الوقت الحاضر».

فحملقت به إيفي وقالت: «ولكننا بدأنا للتوّ!».

عندها، نظر إليها بصرامة وقال: «قلت كفى».

«أجل، ولكن...»

فقال بحزم: «لا تُلِحّي يا إيفي، اتفقنا؟».

فتنهّدت.

«الآن، تصافحا». قال لكلَينا.

مددتُ قفّازَيّ، فترددت إيفي للحظات، ومن ثم رفعت يدَيها وألقتهما على قفّازَيّ.

«أنت مقاتلة شرسة». قلت لها.

«وأنت أيضاً لستَ سيّئاً جداً».

«حالفني الحظ فحسب». قلت مبتسماً.

فبادلتني الابتسامة ثم سألتني: «أتريد الحصول على مرطِّبات أو ما شابه؟».

افترضتُ أننا سنحصل على مرطِّبات أو ما شابه من آلة بيع المشروبات، ولكن إيفي اصطحبتني عوضاً عن ذلك إلى غرفة تحتوي على خزائن صغيرة، وفتحتْ إحداها وأخرجت حقيبة ظهر سحبت منها قنينة تِسكوز فاليو كولا تتّسع لليترَين، وأزالت السّدادة وتناولت جرعة طويلة، ومن ثم مرّرت لي القنينة.

«أتريد الجلوس؟». قالت مشيرةً إلى مقعد خشبيّ طويل موضوع إزاء الجدار.

فجلستُ وتناولت جرعة من القنينة.

«ما كان اسمك مرة ثانية؟». سألتني مُلقيةً حقيبة ظهرها على الأرض، وجالسةً بجانبي.

«ترافيس ديلاني».

«أنا إيفي جونسون».

فأومأتُ لها برأسي ممرّراً لها القنينة. أغلقتْ فوّهة القنينة بالسّدادة ووضعتْها أرضاً، ومن ثم أسندت ظهرها، وحكّت رأسها بكلتا يدَيها. كانت قد جمعت شعرها بشكل ضفيرة، وتلألأ تحت الضوء الفلّوري لغرفة الخزائن شعرها البنّي المائل للأسود بفعل قطرات العرق.

«إذاً، ترافيس ديلاني، ما سبب اهتمامك الشديد ببشير كمال؟».

أبقيتُ شرحي مقتضَباً قَدْر الإمكان. لم أشأ في الواقع إخبارها عن أمي وأبي، ولكنني لم أجد طريقة لتجنّب الأمر. لذلك، قلت لها إنهما كانا تحرِّيَين خاصَّين يحققان في سبب اختفاء بشير، ومن ثم أطلعتها على واقع مقتلهما بحادث تحطّم سيارة.

«هل مات كلاهما؟!». قالت محدّقةً إليّ، ثم تابعت: «متى حدث ذلك؟».

«منذ أسبوعَين».

«يا إلهي». همستْ واضعةً يدها على ذراعي ثم قالت: «أنا آسفة. لماذا لم تُخبرني؟ لَما عرّضتُك لكل هذا الهراء لو كنت أعلم...»

«لا أهمية للأمر».

«بل للأمر أهمية بالطبع». وهزت رأسها. «كيف تُكلّمني بعدما قلتُ لك إن لديك أماً وأباً ثريّين؟».

«ما كنتِ لتعلمي، أليس كذلك؟».

فتنهدتْ. «أنا آسفة حقاً يا ترافيس».

وحدّقتْ إلى الأرض للحظات، وبِصمت.

فركتُ أضلعي بتردد؛ إذ كانت لا تزال تؤلمني.

«في الواقع، لم أعرف «بشير» جيداً». قالت إيفي مفكرةً بعُمق. «فقد كان هادئاً جداً، ولم يكن يتبادل أطراف الحديث مع أحد».

«هل كلّمتِه يوماً عن أي شيء؟».

«ليس حقاً. أعني، كنا على الدوام نتبادل التحيات، وكان يقدّم لي نُصحاً

مقتضَباً عن الملاكمة من حين إلى آخر. كما تعلم، نصائح مفيدة عن تحريك القدمَين والتدرّب، وأمور مماثلة. ولكننا لم نتحدث قط عن أي أمر شخصي».

«هل لاحظتِ أي شيء غير عادي في شأنه قبل أن يختفي؟».

فنظرت إليّ قليلاًثم أجابت: «حسناً، كان هناك أمر ما... أعني، لا أعرف إذا كان غير عادي أم لا، ولكنني أذكر ملاحظتي آنذاك أنه غريب نوعاً ما».

«ما كان ذلك الأمر؟».

فركت وجهها مفكّرةً. «حصل ذلك يوم الجمعة السابق لاختفائه. لقد قضيت معظم فترة المساء هنا، ورأيت باش يتمرّن في وقت مبكّر. كان يقوم بالكثير من تمارين الملاكمة في ذلك الوقت استعداداً لمباراته الكبيرة. وعندما أنهيتُ تدريبي، لاحظتُ أنه غير موجود في القاعة الرياضية، وهو أمر غريب قليلاً لأنه آخر من يغادر عادة. ولكنني اعتقدت أنه يتحدّث إلى السيد رودي عن أمر ما يتعلّق «بتكتيكاته» ربما، أو أنهما غادرا معاً لحضور مباراة في مكان ما...» وهزّت إيفي كتفَيها. «لم أفكر في ذلك كثيراً حينذاك، صِدقاً، إلا في وقت لاحق عندما كنت في طريقي إلى المنزل، ورأيت باش جالساً في سيارة مركونة مع شخصَين من أولئك الذين يرتدون البذلات، وشرعتُ بالتساؤل عما يفعله».

«هل كان في سيارة؟».

«فأومأت برأسها وقالت: «على مقعد الركاب».

«أين حدث ذلك؟».

«في جادة كولهاوس أفونيو. إنه شارع جانبيّ صغير على مَقرُبة من سليد لين، وهو طريق غير نافذ كما تعلم. لذلك، لا يستخدمه أحد كثيراً باستثناء الناس المقيمين هناك. كنت أزور نسيبة لي تقطن في آخر الشارع، ومررتُ أمام السيارة في طريقي إلى منزلها».

«وبشير هو من رأيتِه بالتحديد؟».

«بالتحديد. كما قلتُ، كان جالساً على مقعد الركاب، وعلى مقعد السائق جلس رجل، وعلى المقعد الخلفي رجل آخر».

«ماذا كانوا يفعلون؟».

«يتحدثون فحسب».

«هل عرفتِ الرجلَين؟».

«لم يسبق لي أن رأيتهما».

أخرجتُ هاتفي المحمول وأَرَيتها صورة رجل الجنازة. «هل كان أحدهما؟».

فتفرّست بالصورة الفوتوغرافية ثم أجابت: «لا».

وأَرَيتها النسخة المطبوعة للرجلَين الآخرَين. «ماذا عنهما؟».

أمعنت النظر، ومن ثم هزت رأسها وقالت: «يبدوان متشابهَين. في الواقع، إنهما من نوع الرجال نفسه. ولكن السبب يعود ربما إلى ارتدائهما ثياباً رسمية».

«لا أفترض أنك تعرفين نوع السيارة، أليس كذلك؟».

فقالت لي مبتسمةً: «أنا مجرد فتاة، ولا أعرف شيئاً عن السيارات».

«صحيح...»

وضحكتْ. «كانت سيارة أودي أس6 فضيّة اللون. هل تريد رقم تسجيل السيارة؟».

لم أتمالك نفسي من الاندهاش، وسألتها مستغرباً: «هل تذكرين الرقم؟».

فأغمضت عينَيها للحظات، ومن ثم فتحتهما مجدداً، وتلت الرقم من دون توقّف، ثم سألت: «هل تريد أن أدوّنه لك؟ مَهْلاً...» ومدّت يدها إلى داخل حقيبة الظهر، وأخرجتِ قلماً، ومن ثم أمسكت يدي وكتبت الرقم على راحتها.

«كيف صودِفَ أنك تذكرينه؟».

فهزّت كتفَيها مجيبة: «أُجيد تذكّر الأمور».

ونظرتُ إليها، متجهِّم الوجه.

فسألتني مستنكرة: «ماذا؟ ألا تصدّقني؟».

«لا... أعني، أجل، أصدّقك بالطبع. كل ما في الأمر... حسناً، كما تعلمين. من غير العادي تماماً التمكن من تذكّر أمر مماثل».

«إنها مجرد أرقام وحروف قليلة».

«ولكنكِ رأيتها مرة واحدة فقط، وحدث ذلك منذ فترة».

وتنهّدتْ. «إنه أمر يمكنني القيام به، اتفقنا؟ أملك ذاكرة جيدة بشكل عجيب. لا أهمية للأمر».

أثار الأمر فُضولي، وأردت أن أسألها المزيد عن الأمر، ولكن تملّكني شعور بأنه من الأفضل لي عدم القيام بذلك.

«هل أطلعتِ أبي على أيٍّ من هذه المعلومات؟». سألتُها.

«لم أرَه قط».

«قال السيد رودي إنه تحدّث إلى الجميع هنا».

«متى؟».

«منذ ثلاثة أسابيع».

«حدث ذلك ربما عندما كنت مريضة. فقد أُصبتُ بجرثومة في المَعِدة طوال ثلاثة أيامٍ أو أربعة، فأوقفتُ تدرّبي طوال أسبوع».

«إذاً، ألم تخبري أحداً عن رؤيتك بشير في السيارة؟».

«لم يسألني أحد عنه». ونظرت إليّ، ثم تابعت: «ماذا حلّ به برأيك؟».

«لا أعرف. يقول والداه إنه في باكستان».

«أجل، هذا ما بلغ مسمعيّ».

«أين سمعتِ بذلك؟».

«في المحيط فحسب. كما تعلم، الشائعات والأقاويل تنتشر. هل الخبر صحيح؟».

ألقيت نظرة سريعة على ساعتي ثم وقفتُ. «لهذا السبب أحاول معرفة صحة الخبر».

«لماذا؟».

«لماذا ماذا؟».

فوقفتْ أيضاً وتابعت: «لماذا تتكبد عناء القيام بذلك؟ أعني، أنت لا تعرف «بشير»، أليس كذلك؟».

«لا».

«إذاً، لماذا تهتمّ بمكان وجوده؟».

«لأن البحث عنه كان مهمة أمي وأبي الأخيرة. وقد تكون للأمر علاقة بما حدث لهما». وتنهّدتُ ثم تابعت: «لا أعرف... ينتابني شعور ما بأنه يتعيّن عليّ القيام بذلك».

وضعت إيفي يدها على ذراعي وقالت: «حسناً، حظاً سعيداً».

«شكراً».

«ما رقم هاتفك المحمول؟». سألتْني مُخرجةً هاتفها من حقيبتها.

أعطيتُها رقم هاتفي، فاتصلت برقمي من هاتفها، وانتظرتْ إلى أن رن هاتفي المحمول، ومن ثم أنهَت المكالمة.

وبعد ذلك قالت: «لديكَ رقم هاتفي الآن. إذا كنتَ بحاجة إلى أية مساعدة في أي شيء، فاتصل بي فحسب، اتفقنا؟».

«شكراً».

وابتسمت. «من الأفضل لي أن أذهب».

«وأنا أيضاً».

«أراكِ لاحقاً».

«أجل».

كان الوقت قد تخطى الساعة الثالثة عندما عدت إلى المكتب في نورث واك. وكانت كورتني لا تزال هناك وهي تحاول تنظيف المكان، ولم تبدُ متفاجئة جداً برؤيتي.

«اعتقدتُ أنك كنت ذاهباً إلى المنزل». قالت لي وهي ترمقني بنظرة مُدركة.

فتمتمتُ: «حسناً، أجل. كنت ذاهباً إلى المنزل، ولكن...»

«هل بدّلتَ رأيك؟».

فابتسمتُ بخجل وقلت: «أردت تبادل حديث سريع فحسب مع جون رودي. إنه الرجل الذي استخدم أمي وأبي؟».

«صحيح». قالت، وأومأت برأسها وتابعت: «إذاً، ذهبتَ إلى نادي الملاكمة، وتحدّثتَ إليه بالرغم من طلبي منك عدم القيام بأي شيء من دون إخباري أولاً».

«آسف، لم أستطع السيطرة على نفسي. فقد شعرت بضرورة القيام بذلك».

«ألم تستطع السيطرة على نفسك!؟».

فهززت كتفَيّ.

تنهّدتْ ثم قالت: «من الأفضل لك أن تخبرني بكل ما حدث معك».

بعد أن أطلعتها على كل ما عرفتُه عن بشير كمال، وأَرَيتها تقرير أبي الأولي، قضت كورتني دقائق قليلة في قراءة الملف، ومن ثم جلستْ إلى طاولتها وهي تفكر في الأمور بهدوء لبعض الوقت. لم أقاطعها، بل انتظرتُ فحسب.

أخيراً، رفعت نظرها وقالت: «ما رقم تسجيل السيارة الذي أعطتك إياه إيفي جونسون؟».

فقرأتُه لها عن راحة يدي.

التقطت كورتني هاتفها وقالت: «لماذا لا تذهب وتُعِدّ لنا كوباً من الشاي؟».

فتركتها بمفردها، ودخلتُ منطقة المطبخ في مؤخّر المكتب. كانت الخزائن مُفرَغة، والمغلاة محطّمة، وكل أكياس الشاي والقهوة مبعثَرة على الأرض. شققتُ طريقي عبر الفوضى، ودخلت الحمّام الصغير في موخّر المطبخ. كان الباب مركولاً، ولكن كل شيء آخر سليم.

عندما خرجتُ وعدتُ إلى المكتب الرئيس، كانت كورتني قد أنهت اتصالها الهاتفي، وكانت تبدو مضطربة في شأن أمر ما.

سألتها: «ما الأمر؟».

فتنهّدت بعمق وأجابت: «ذلك الرقم الذي أعطيتني إياه، رقم سيارة الأودي فضية اللون...»

«ماذا عنه؟».

«يُمنع ولوجُ سجلِّ هذا الرقم».

«ما الذي يعنيه هذا؟».

«كل أنواع الأمور، لسوء الحظ».

«أي أمور، مثلاً؟».
نفخت خدَّيها، ثم أجابت: «حسناً، بادئ ذي بدء، يعني ذلك أن السيارة غير مسجَّلة في أيٍّ من قواعد البيانات العاديّة، ولذلك من المستحيل عملياً معرفة من يملكها. والسبب الأكثر احتمالاً لهذا الأمر هو أنها سيارة شرطة للعمليات الخاصة، أو أنها تخص أجهزة أمنية».
« أتعنين مثل أم آي 5؟».
«أم آي 5، أم آي 6، أمن الدولة، وحدة مكافحة الإرهاب... قد يكون أيّاً من هذه».
«إذاً، قبل أن يختفي، شوهد بشير وهو يتحدث إلى رجلَين يمكن أن يكونا جاسوسَين من نوع ما».
«حسناً، أجل على الأرجح. ولكن ليست لدينا سوى رواية صديقتك إيفي التي قالت إنها شاهدته في السيارة. وليست لدينا أيضاً سوى روايتها عن ذاكرتها الخارقة. وحتى لو كانت ذاكرتها خارقة ورأته بالفعل مع رجلَين في السيارة، فنحن لا نعرف بالتأكيد إذا كانا شبحَين». وتنهّدتْ ثانيةً. «تكمن المشكلة في أنهما سيعرفان أن هناك من يحقق في أمر سيارتهما إذا كانا عميلين سرّيّين».
«كيف سيعرفان؟».
«العملاء السريّون يراقبون كل شيء. وإذا حاول أحدهم تتبّع أثر إحدى سياراتهم، ينطلق جهاز إنذار في مكان ما، ولن يطول الأمر حتى يكتشفوا من يتجسس عليهم. بعد ذلك، سيبدأون بطرح الأسئلة». ونظرت إليّ وتابعت: «سيبذل الشخص الذي اتصلتُ به قُصارى جهده للحصول على معلومات، وحتى إن لم يُفصح عن اسمي، فمن المحتمَل أن يتتبعوا أثري من خلال سجلات الهاتف. عندئذٍ... حسناً. لا أعرف ما الذي سيحدث عندئذٍ».
«على الأقل، في تلك الحالة سنعرف أنهما عميلان سرّيّان».
«كيف سيساعدنا ذلك؟».
«المعرفة قوة».
«أجل، ولكنها قد تُدخلك في مقدار كبير من المتاعب».
فكّرت في ألا أتكبّد عناء سؤال كورتني عما إذا كانت تريد مرافقتي لرؤية والدَي بشير؛ فقد افترضت أنها ستطلب مني عدم التصرف بغباء، وستقول لي إننا أقحمنا نفسينا في متاعب كافية، وإن الأمر الوحيد المعقول الذي يتعيّن علينا القيام به هو ترك الأمور على حالها ونسيان كل ما يتعلق ببشير. ولكنني كنت مُخطئاً؛ لأنها لم تَقُل أي أمر مماثل. فكل ما قالته بعد أن استجمعتُ شجاعتي أخيراً لأسألها هو: «أجل، لِمَ لا؟».
«أتعتقدين أنها فكرة جيدة؟». سألتها متفاجئاً.
«ربما لا. ولكننا إذا أردنا القيام بهذا الأمر- ويبدو أننا سنفعل- فيجب أن نقوم به بالشكل الملائم. وعلاوةً على ذلك، مهما قلتُ أو فعلتُ، فأنت ستذهب لرؤيتهما

بأية حال، أليس كذلك؟».
«ليس بالضرورة».
«كاذب». قالت مبتسمة. والتقطتْ ملف التقرير الأوّلي، وفتحتْه، وعثرت على عنوان منزل بشير. «إنهم يُقيمون في بيكون فيلدس. يتعيّن علينا الذهاب بسيارتي».
بيكون فيلدس منطقة سكنية تقع في الطرف الغربي لسليد لين. وهي ليست كبيرة ومضطربة كمنطقة سليد لين، ولكن لا يزال يتعيّن على المرء عدم الذهاب إلى هناك بمفرده.
سألتني كورتني: «إذاً، هل أنت مستعدّ؟ سنُقفل المكان هنا، وسنسير إلى منزلي كي نستقلّ سيارتي. يمكنك ترك درّاجتك الهوائية في منزلي». ونظرت إليّ، ثم تابعت: «هل هناك خَطْب ما؟».
«لا». قلت بتردد. «كنت... حسناً، كنت أفكر...»
«في أي شأن؟».
«في والدَي بشير».
«ماذا عنهما؟».
«حسناً، قد لا... أعني، إذا كانا تقليديَّين كثيراً، كما تعلمين، فقد...»
«ترافيس!». قالت كورتني بنفاد صبر، محدّقةً إليّ ويداها على وركيها. «قُل ما عندك فحسب، اتفقنا؟».
فتنهّدتُ، وشددت عزيمتي لمواجهة ردّ فعلها، وقلت لها: «قد لا تُعجبهما طريقة ارتدائك ملابسك».
التمعت في عينَيها ومضة غضب، وظننتُ للحظات أنها ستبدأ بالصياح في وجهي، ولكن الأمر تطلّب منها لحظات قليلة لتُدرك وجهة نظري. فعائلة كمال ليست مسلمة بالضرورة، ولكن هناك فرصة كبيرة لتكون كذلك. وإذا كانا مسلمَين تقليديَّين إلى حد كبير، وأردنا مكالمتهما في منزلهما، فقد لا يكون ذهاب كورتني إلى منزلهما كما لو أنها راقصة في فيلم فيديو راب فكرةً جيدة.
«سأبدّل ملابسي قبل أن نذهب».

لم تَنبُس كورتني ببِنت شَفَة أثناء مغادرتنا منزلها وتوجّهنا بالسيارة إلى بيكون فيلدس. كانت قد بدّلت ملابسها، وها هي ترتدي سترة بنّيّة قصيرة، وتنّورة بنّية تمتدّ حتى الرُّكبة، وكنزة تقليدية بلون رمادي فاتح. وكان شعرها مربوطاً إلى الوراء بترتيب بتسريحة ذَيل الحصان، حتى إنها خفّفت من حدة تبرّجها المعتاد والمبالَغ فيه، فبدت إنسانة مختلفة؛ ومن الواضح أنها تكره أن تبدو هكذا تماماً.

قاومتُ رغبة شديدة في التعبير عن رأيي ما دمتُ قادراً على ذلك، ولكنني لم أتمكن من كبح جماح رغبتي أثناء سلوكها المستديرة عند طرف ماغدالين هيل، فقلت لها:

«تبدين أنيقة جداً».

غير أنها قالت بجدّيّة: «أَطبق فمك يا ترافيس».

فتابعتُ: «لا، أنا أعني هذا حقاً؛ فهذا الزيّ ملائم لك. يُفترض بك اعتماده في معظم الأحيان».

«لستَ مُضحكاً كما تعلم».

فابتسمتُ وقلت لها: «يُفترض بك وضع نظّارة أيضاً. كما تعلمين، من تلك النظارات الأنيقة التي يضعها الكل في هذه الأيام. ستبدو جميلة جداً على وجهك».

«هل تريد مواصلة الكلام بقيّة الطريق؟!». قالت مُبطِئةً من سرعة السيارة.

فقلت رافعاً يدَيّ: «حسناً، لن أقول أي شيء آخر، أَعِدك».

وفيما كانت تزيد السرعة مجدداً، رأيتها وهي تحاول إخفاء بسمتها.

التزمتُ الهدوء لبعض الوقت، ناظراً إلى خارج النافذة، إلى الشوارع التي نعبرها، وسامحاً لأفكار عشوائية بالتبادر إلى ذِهني. كانت فترةَ بعد ظهرٍ سارّة؛ فقد زالت الرطوبة، وصفا الجوّ، وباتت السماء ساطعة بشمس صيفيّة باهتة. بدا كل شيء جميلاً حقاً لدقيقة واحدة أو دقيقتَين- ونحن منطلقان بالسيارة تحت أشعة شمس بعد الظهر، والنوافذ مفتوحة، والشوارع الصيفية ناشطة بحركة المرور- ولكنّ هذا الشعور استُبدل بعد قليل بألم شديد لدى تذكري أمي وأبي. تمنيت لو كنت في سيارة معهما، مستمتعاً بأشعة الشمس، وذاهباً برفقتهما إلى مكان جميل. أردت أن أكون معهما. رغبت في وجودهما أكثر من أي أمر آخر في العالم. ولكنهما ذهبا، ولا أستطيع القيام بأي شيء كي أُعيدهما.

لا شيء.

لن تُشرق الشمس عليهما أبداً مرة أخرى.

«هل أنت بخير يا ترافيس؟». سألتني كورتني بهدوء.

«لا أستطيع الكفّ عن التفكير في أمي وأبي».

فألقت نظرة سريعة عليّ وهي قلِقة، وقالت: «ربما كان من الأفضل إرجاء هذا

الأمر الآن. يمكننا...»
غير أنني قاطعتها قائلاً: «لا، لا بأس. من الأفضل لي القيام بشيء ما بدلاً من الجلوس في المنزل، أليس كذلك؟».
«هل أنت متأكد؟».
«أجل».
«حسناً».
ونظرتُ إلى خارج النافذة مجدداً. كنا نعبر سليد لين على بُعد كيلومتر واحد تقريباً من بيكون فيلدس. وفي البعيد أمامنا، تمكنتُ من رؤية المنازل الرمادية للمنطقة السكنية وهي تتلألأ تحت أشعة الشمس الحارة.
«من الأفضل لي استخدام جهاز الملاحة عبر الأقمار الاصطناعية عندما نصل إلى المنطقة السكنية». قالت كورتني، ومدّت يدها لتشغيله، ثم تابعت موضّحة: «فالقيادة في أنحاء بيكون فيلدس كابوس مُزعج. ما العنوان مرة ثانية؟».
فنظرتُ إلى داخل الملف. «42 رومان واي».
وأثناء إدخالها المعلومة إلى جهاز الملاحة، التمعت ذكرى أمي وأبي في عقلي. ففي يوم تحطُّم السيارة، خرج أبي من السيارة وجهاز الملاحة في يده، فقالت له أمي: «لن أضع هذا الشيء في سيارتي».
فقال لها أبي: «سنقود إلى وسط لندن، وأنت تعرفين كيف تكون الطرقات...»
فقالت له أمي: «لا أبالي. أفضّل أن أضيع على استخدام أحد تلك الأجهزة».
بعد ذلك، انطلق جهاز ملاحة كورتني- بعد 400 متر، استديري إلى اليمين- وتلاشت الذكرى.
ولكن، أثناء إلقائي نظرة سريعة على الخارطة الموجودة على شاشة جهاز الملاحة، ومض شيء آخر بشكل وجيز في ذهني، شيء ما يحمل في طيّاته معنى. فأغمضتُ عينَيّ للحظات محاولاً الإمساك به، ولكنه تلاشى. علمتُ أنه لا جدوى من محاولة استعادته؛ فهو أحد تلك الأمور المتملّصة التي يتعيّن على المرء ترْكها وشأنها؛ لأنه كلما سعى وراءها غابت عن ذهنه أكثر فأكثر. لذلك، تركتُ ذلك الشعور وشأنه، آملاً في عودته عندما يكون مستعداً، وركّزتُ اهتمامي على شيء آخر.
«هل يمكنني أن أطرح عليكِ سؤالاً؟».
«بالطبع. ما هو؟».
«ماذا سيحدث لـديلاني وشركاؤه الآن؟».
فأجابت: «لست واثقة. يعتمد الأمر على الترتيبات التي أجراها أبوك وأمك. فعندما اضطلعا بمهام المكتب من جدّك، أصرّا على بقائه شريكاً لهما؛ عِلماً أنه لم يَعُد يشارك في العمل مباشَرةً. لذلك، أفترض أن حصتهما تعود إليه».
«هل يعني ذلك أن جدّي يملك مكتب التحقيقات الآن؟».
«ربما».
«إذاً، باستطاعته مواصلة العمل فيه إذا شاء».

«لقد تقاعد منذ مدة طويلة يا ترافيس».

«ما زال يعرف ما يجدر فعله».

«أعلم. ولكنه وجد صعوبة من قَبل في إدارة المكتب بمفرده، وكان أصغر سنّاً بعشرين عاماً وأكثر قوة».

«ليس مُلزَماً بإدارة شؤون المكتب بمفرده. فبإمكانك أن تساعديه».

«أنا؟!». قالت مرتبِكة.

«لِمَ لا؟ أنت بارعة، وتعرفين هذا العمل، وتُجيدينه».

«حسناً، لُطف منك أن تقول هذا، ولكنني لست صاحبة القرار في هذا الشأن».

«ولكنك تودّين تقديم يد العون، أليس كذلك؟».

«أجل، بالطبع. سيسعدني الأمر».

«يبقى هناك أمر وحيد...»

«ما هو؟».

فقلت بجدّيّة: «حسناً، جدّي قديم الطراز قليلاً بعاداته».

«إذاً؟».

نظرت إليها وتابعت: «إذا عملتِ لصالحه، فسيتعيّن عليك ارتداء ملابس مماثلة لهذه كل يوم».

فضحكتْ، وابتسمتُ.

لقد بدا كل شيء بخير حتى الآن.

كان منزل عائلة جمال مماثلاً لكل المنازل الأخرى في المنطقة السكنية؛ فهو رماديّ، ولا ستائر شبكيّة على نوافذه، وفيه باحة أمامية صغيرة.

«دَعني أتكلم، اتفقنا؟». قالت كورتني أثناء صعودنا الدرَج في اتجاه الباب.

فقلت لها: «أنت الرئيسة».

عندها، رمقتني بنظرة جدّيّة وقالت: «سيتعيّن عليّ شرح ما حلّ بأمك وأبيك، فهل ستكون بخير؟».

«أجل».

«هل أنت متأكد؟».

فأومأتُ برأسي.

رنَّتِ الجرس، وبعد نحو عشر ثوانٍ، فُتح الباب الأماميّ ببطء، وظهر وجه امرأة.

«أجل؟». قالت بحذر.

فابتسمت لها كورتني وقالت: «هل أنت السيدة كمال؟».

«من أنتِ؟».

فأجابت كورتني: «أدعى كورتني لين، وهذا ترافيس ديلاني. نحن من ديلاني وشركاؤه. أعتقد أنك تحدثتِ إلى السيد ديلاني بخصوص مكان تواجد ابنك».

فقالت المرأة وهي تشرع بإغلاق الباب: «ليس هنا. آسفة، لا يمكنني مساعدتكما».

عندها، قالت كورتني بلطف: «لا شيء يدعو للقلق يا سيدة كمال. لسنا هنا لنتحدث عن ابنك».

ترددت السيدة كمال، ثم سألتها: «ماذا تريدان؟».

فأجابت كورتني خافضةً صوتها: «حسناً، لسوء الحظ، تُوُفّي السيد والسيدة ديلاني منذ أسابيع قليلة. كان الأمر مفاجئاً جداً. حادث مرور على الطريق».

«أوه، يا إلهي». قالت السيدة كمال، وألقت نظرة سريعة عليّ، ثم تابعت: «يا لفظاعة الأمر! أنا آسفة جداً».

فأومأت كورتني برأسها وتابعت كلامها: «كل ما أقوم به في الوقت الحاضر هو إعادة النظر في قضاياهما غير المنتهية، ومحاولة توضيح بعض الأمور العالقة. لذلك، إذا كان بإمكانك منحنا دقائق قليلة من وقتك فسنقدّر ذلك كثيراً».

ترددت السيدة كمال مجدداً للحظات قليلة، مفكرةً في ما قالته كورتني لها للتوّ، ومن ثم أزالت السلسلة المعدنية الأمنية عن الباب وأدخلتْنا.

تبعناها إلى داخل غرفة أمامية صغيرة، وطلبت منا الجلوس. إنه مكان صغير ونظيف ومرتَّب، وكل شيء فيه خالٍ من البُقَع، ولكنه بدا من دون حياة على نحو غريب، فيما تُسرّب الستائر الشبكية معظم ضوء الشمس. وأثناء نظري حَولي وتكيُّف عينَيّ مع الظُّلمة، أدركتُ أن كل شيء قديم وبالٍ؛ الأثاث، وورق الجدران، والسجادة. حتى إن الستائر الشبكية اصفرّت بسبب قِدَمها.

وأثناء قيام كورتني بإخراج دفتر مدوَّناتها وقلمها وشروعها بطرح بعض الأسئلة، جلستُ هناك بهدوء، وركّزتُ على السيدة كمال. إنها في الأربعين من العمر تقريباً، عيناها داكنتان، وشعرها قاتم، وعلى وجهها أمارات التعَب، وترتدي فستاناً باكستانياً تقليدياً وسروالاً حريرياً.

وبالرغم من تراجع حذَرها قليلاً منذ تأكيد كورتني لها على أنها ليست هنا للتحدث عن ابنها، إلا أنها لم تكن مسترخية تماماً، واعتبرتُ أن هناك شيئاً ما يُقلقها. وكانت كورتني مُدركة لقلقها أيضاً، فحرصتْ على عدم الضغط عليها كثيراً. وعندما سألتْها عن سبب زيارة أمي وأبي لَها، وأخبرتها السيدة كمال بأنه مجرد سوء تفاهم، وأن «بشير» لم يكن مفقوداً بل ببساطة سافر إلى باكستان للاهتمام بجدّته، لم تسترسل كورتني في طرح أسئلتها، بل دوّنت ملاحظات قليلة فقط، وتظاهرت بتصديق رواية السيدة كمال.

ثم قالت: «فهمتُ. إذاً، في هذه القضية لم يكن هناك أي شيء في الواقع يتعيّن التحقيق في شأنه».

فقالت السيدة كمال: «لا شيء البتة. فكما قلتُ، كان مجرد سوء تفاهم».

فابتسمت كورتني وسألتها: «هل كانت تلك هي المرة الوحيدة التي جاء فيها السيد ديلاني لرؤيتك؟».

«أجل».

«ألم يتصل بك مجدداً؟».

«لا».

«ماذا عن زوجك؟».

«ماذا عنه؟».

«هل كان هنا عندما تحدّث السيد ديلاني إليك؟».

«أجل».

«أين هو الآن؟».

«في العمل».

ودوّنت كورتني ملاحظة أخرى على دفترها. «هل تعرفين إذا كان السيد ديلاني قد تواصل معه مجدداً؟».

«لا، لم يتواصل معه».

فقالت كورتني: «حسناً». ثم أومأت برأسها وتابعت: «حسناً، أعتقد أن هذا كل شيء في الوقت الحاضر يا سيدة كمال... أوه، هناك أمر واحد إضافي فقط». والتفتت إليّ وسألتني: «هل لديك تانك الصورتان يا ترافيس؟».

فأعطيتُها النسخة المطبوعة، ومن ثم أخرجتُ هاتفي المحمول، وفتحتُ الصورة الفوتوغرافية لرجل الجنازة، ومرّرت لها الهاتف.

استدارت كورتني نحو السيدة كمال وقالت لها: «إذا لم يكن لديك مانع، أَلقي نظرة سريعة». قالت وهي تمدّ لها الهاتف كي ترى الصورة.

«ما هذا؟». قالت السيدة كمال وهي تنظر إلى كورتني بحذر.

فقالت كورتني: «رجاءً، لن يدوم الأمر أكثر من ثانية».
عندها، تنهّدت السيدة كمال، ومن ثم نظرت إلى الصورة الفوتوغرافية لرجل الجنازة. لقد حاولت جاهدةً إخفاء دهشتها، ولكن بدا من الواضح أنها عرفته؛ ففتحت فمها وأطبقته، وتسمّرت عيناها، وتوتّرت كتفاها.
وبعد ذلك، قالت متجنّبةً النظر إلى عينَي كورتني أثناء إعادتها الهاتف إليها: «آسفة، لا يمكنني مساعدتك. الآن، إذا لم تمانعا...»
«ماذا عن الرجال في هذه الصورة؟». سألتها كورتني، وأَرَتها النسخة المطبوعة. «هل تعرفين أيّاً منهم؟».
«لا». تمتمت السيدة كمال وهي تهز رأسها نافية: «لم يسبق لي أن رأيتهم».
حتى إنها لم تنظر إلى الصورة، وغدت عصبية المِزاج جداً، وجلست بشكل مستقيم، ونظرها يثب في أرجاء المكان. أدركتُ أنها لم تكن عصبية المِزاج فحسب، بل خائفة أيضاً.
«حسناً. شكراً جزيلاً لك على الوقت الذي منحتنا إياه يا سيدة كمال». قالت كورتني ممرّرةً لي الهاتف والنسخة المطبوعة. «لقد أسديتنا خدمة كبيرة، وآسف على سوء التفاهم». وابتسمت لها ثم تابعت: «سنتركك الآن بسلام».
فأومأت السيدة كمال برأسها.
ونظرت كورتني إليّ. «هل أنت بخير يا ترافيس؟».
«أجل». قلت متجهِّم الوجه قليلاً، ثم تابعت كما لو أنني خجل: «أحتاج فحسب إلى...»
«ما الأمر؟».
«لا شيء. كل ما في الأمر...» والتفتُّ بخجل إلى السيدة كمال وتابعت: «هل تمانعين استخدامي حمّامكما قبل أن نذهب؟».
ترددت قليلاً، وبدت راغبةً جداً في مغادرتنا، ولكنها لم تشأ في الوقت نفسه أن تسيء التصرف معنا، فقالت مبتسمةً بارتباك: «إنه في أعلى الدرَج. عند نهاية فسحة الدرج».
«شكراً لك». قلت لها وأنا أقف.
وعندما غادرتُ الغرفة، سمعت كورتني تقول: «يبدو أن لديك ابناً رائعاً يا سيدة كمال. لا بد أنه شاب مُبالٍ».
«بشير طيّب القلب. إنه كامل الأوصاف كابن».
في الطابق العُلويّ ثلاث غرف فقط: غرفة نوم رئيسة إلى اليسار، وغرفة نوم أصغر حجماً إلى اليمين، والحمّام في آخر الرواق. اندفعتُ إلى الحمّام، وفتحت الباب وأغلقتُه من دون الدخول إليه، ومن ثم دخلت غرفة النوم الصُّغرى بهدوء. لا شك في أنها غرفة بشير. كانت هناك آلة رفع أثقال على الأرض، وكيس ملاكمة في إحدى الزوايا، ومُلصَق كبير لأمير خان على الجدار. إنها غرفة بالغة الصِّغر، وتشغل آلة رفع الأثقال نصف المساحة، لذلك لا مكان لأي شيء آخر. هناك

سرير واحد، وخزانة ذات أدراج، وخزانة بجانب السرير، وهذا كل شيء.

توجهت إلى الخزانة ذات الأدراج وشرعت بالبحث فيها. لم أكن أبحث عن أي شيء محدَّد. وإنما كنت أبحث، أملاً في العثور على شيء ما يمكنه إلقاء بعض الضوء على ما يجري. بحثت في الأدراج بأكبر سرعة وهدوء ممكنَين، ولكنني لم أعثر على أي شيء مفيد؛ فلا شيء فيها سوى الملابس.

وأثناء توجّهي إلى الخزانة بجانب السرير، سمعت كورتني تنادي من الطابق السُّفلي. «ترافيس! أسرع، يا ترافيس! علينا مواصلة عملنا!».

إنه تحذير. لقد عرفتْ ما الذي أفعله، وهي تحاول إخباري أن السيدة كمال بدأت ترتاب، وأنه آن الأوان لنزولي. فترددتُ للحظات، عالِماً أنه يتعيّن عليّ الاكتراث لتحذيرها، ولكنني أصبحت أمام الخزانة بجانب السرير، وفيها دُرجان فقط.. يتطلب الأمر ثانيتَين للبحث فيهما.

انحنيت وفتحت الدُّرج السُّفلي. كان مليئاً بأغراض صغيرة: جهاز أي بود قديم، وسمّاعات للأذنين، ورزمة ورق لَعِب، وعلبة تحتوي على طلاء أحذية...

«ترافيس!».

نادتني كورتني مجدداً بصوت أعلى الآن، وبإلحاح أكبر.

فتحتُ الدُّرج العُلوي. كان مكتظاً بمجلات الملاكمة. بوكسينغ مونثلي، بوكسينغ نيوز، ذي رينغ...

«تباً». تمتمتُ.

«ترافيس!».

وأثناء إغلاقي الدُّرج، لفت أمر ما انتباهي. إذ كان هناك شيء ناتئ من بين صفحات إحدى المجلات، إنه كُتيِّب صغير أو ما شابه، فمددتُ يدي وسحبتُه.

إنه جواز سفر.

عندئذٍ، سمعت وقع خطى شخص يصعد الدَّرج. لم يبدُ لي أنها كورتني، ففتحت جواز السفر بقلب خافق، وأمعنت النظر إلى التفاصيل، ومن ثم أعدته إلى الدُّرج، وخرجت من الغرفة على أطراف أصابعي، وسلكت الرواق في طريقي إلى الحمّام. وأثناء دخولي وإغلاقي الباب، سمعت صوت السيدة كمال من أعلى الدَّرَج: «عُذراً، هل أنت بخير في الداخل؟ ماذا تفعل؟».

فأطلقت ماء المرحاض، وفتحت الصنبور ثم أغلقته، وأخيراً فتحت الباب. وكانت السيدة كمال واقفة في الرواق.

«آسف». قلت لها وأنا أمسك بطني بحرَج، ثم تابعت: «أعتقد أنني تناولت شيئاً ما أضرّ بي... آسف حقاً».

فنظرت إليّ بوجه متجهّم، غير واثقة إذا كان يجدر بها تصديقي أم لا، ورأيتها تُلقي نظرة سريعة على غرفة بشير.

«هل أنت بخير يا ترافيس؟». نادتني كورتني من أسفل الدّرَج.

فقلت لها: «أجل، أنا بخير. أنا قادم».

وأثناء عبوري الرواق ووقوف السيدة كمال جانباً كي تُفسح لي الطريق،

أدركتُ من طريقة نظرها إليّ أنها علمت أنني قمت بأمر ما، ولكنها لم تقل أي شيء. لقد عرفتُ أنها لن تقول شيئاً لأنني بتُّ أعرف، من دون أدنى شك، أنها تكذب في شأن ابنها.

أخبرتُ كورتني عن جواز سفر بشير أثناء عودتنا إلى منزلها.

فسألتْني:»هل أنت واثق من أنه جواز سفره؟«.

«إنه باسمه، وعليه صورة فوتوغرافية له. لم يكن جواز سفر قديماً أيضاً؛ فتاريخ انقضاء صلاحيته في أيلول/ سبتمبر 2021».

«إذاً، لا يمكن أن يكون قد غادر البلد».

«لا».

«إذاً، لماذا يكذب والداه؟».

«والدته خائفة من أمر ما بالتأكيد».

«وهي بالتأكيد تعرف الرجل الظاهر في الصورة الفوتوغرافية».

فنظرتُ إلى كورتني، وسألتها: «ما الذي يجري برأيك؟».

هزّت رأسها وأجابت: «لا أعرف يا ترافيس. ولكن، أيّاً يكن ما يحدث، فأنا أعتقد أن أمك وأباك متورّطان فيه. فكل شيء يتمحور حولهما كما يبدو. كانا يتحرّيان عن بشير. وتعرف والدةُ بشير الرجلَ الذي رأيتَه في الجنازة، ويعرف رجلُ الجنازة الرجلَ الذي جاء إلى المكتب اليوم متظاهراً بأنه شخص آخر». وأخذت نفَساً عميقاً وزفرتْ ببطء، ثم تابعت: «هناك أكثر من مجرد ملاكم مفقود، أنا على ثقة تامة بذلك».

وعندما لم أُجِب، نظرت إليّ.

كنت متكئاً إلى جانب واحد، مُميلاً رأسي للحصول على رؤية أفضل عبر المرآة الجانبية.

«ماذا تفعل؟».

«أعتقد أننا ملاحَقان».

فرفعت نظرها على الفور في اتجاه مرآة الرؤية الخلفية.

قلت لها: «هناك ثلاث سيارات تتبعنا».

«الأودي الفضيّة؟!». قالت رافعةً حاجبَيها.

«إنها تتبعنا منذ أن غادرنا منزل عائلة كمال».

«هل أنت متأكد؟».

«كانت مركونة في آخر رومان واي. لم تتبعنا مباشَرةً عندما مررنا بجانبها، ولكنها كانت وراءنا عندما غادرنا المنطقة السكنية».

«هل حصلتَ على رقم تسجيل السيارة؟».

فهززت رأسي نافياً وأجبت: «كانت محجوبة بسيارة أخرى مركونة في رومان واي. والآن هي بعيدة جداً ولا يمكن رؤيتها».

نظرت كورتني مجدداً إلى مرآة الرؤية الخلفية، مضيّقةً عينَيها كي تحصل على رؤية أفضل وقالت: «هل هي إس 6؟».

«أجل».

«تبّاً». قالت بسرعة.
وتبيّن لي أننا نفكر في الأمر نفسه؛ فالسيارة التي تسير وراءنا هي الأودي أس6 نفسها التي أخبرتني عنها إيفي جونسون، تلك التي تملك رقم تسجيل يُمنع ولوج سجلّه... تلك التي تخصّ شرطة العمليات الخاصة، أو ربما تخص أحد الأجهزة الأمنية.
لم تقل كورتني أي شيء لبعض الوقت، بل واصلت السير فحسب، محدِّقةً إلى الأمام مباشَرةً، ومقلِّبةً الأفكار في رأسها. من ثم، وبعد إلقائها نظرة سريعة على المرآة، شغّلت إشارة الانعطاف، وأبطأت سرعة السيارة، وتوقفت في مسرَب احتياطي للحافلات على جانب الطريق. ثم مدّت يدها إلى داخل جَيبها، ومرّرت لي قلماً وهي تقول لي:
«احصل على رقم التسجيل عندما تمرّ بجانبنا. سأرى إذا كان بإمكاني إلقاء نظرة على السائق».
بعد لحظات، مرّت سيارة الأودي بجانبنا بسرعة، فقرأت رقم تسجيل السيارة ودوّنته على قفا يدي. وعندما رفعتُ نظري مجدداً، كانت السيارة تختفي بعيداً.
«هل حصلتَ عليه؟». سألتني كورتني.
فأرَيتُها الرقم، وتجهّم وجهها. «ليس الرقم نفسه، أليس كذلك؟».
«ليس تماماً». قلت، وقلبتُ يدي وأريتُها الرقم الذي كتبته إيفي على راحة يدي.
كانت الأعداد الخمسة الأولى متطابقة، ولكنّ العددَين الأخيرَين مختلفان.
«ما الذي يعنيه ذلك برأيك؟». سألتُها.
فأجابت كورتني: «لست واثقة. ربما تكون مصادَفة بَحتة».
فرمقتُها بنظرة متشككة.
«تحدث أمور غريبة يا تراف».
«قلتِ ذلك من قبل».
«حسناً، الأمر صحيح».
«من الأرجح أن يكون هناك رابط بين السيارتَين، أليس كذلك؟».
«هناك إمكانية كبيرة». وافقتني الرأي.
«هل ألقيتِ نظرة على السائق؟».
«ليس حقاً. فقد أدار رأسه إلى الجانب الآخر عندما مرّ بجانبنا. وكل ما تمكنتُ من رؤيته في الواقع هو شعره الأسود».
«هل كان يرتدي بذلة؟».
«لا يمكنني الجزم». ومدّت يدها إلى داخل جَيبها وأخرجت دفتر مدوّناتها. «دَعني أرى الرقم مجدداً».
أرَيتُها قفا يدي، فأخذت القلم من يدي الأخرى، ونسخت الرقم، ومن ثم أعادت دفتر المدوّنات إلى جَيبها.
«ألن تتحققي منه؟».

«سأقوم بذلك في وقت لاحق».
«لم لا تقومين بذلك الآن؟».
«الآن، علينا العودة إلى المنزل».
«أسنذهب إلى المنزل!؟».
«انظر، لسنا متأكّدَين من أن الرجل في سيارة الأودي كان يتعقّبنا، اتفقنا؟ ولكن، إذا كان الأمر كذلك، فهو يعرف ما الذي يفعله- فهذا ما يقوم به إذا كان من الشرطة أو من الأجهزة الأمنية- وسيُدرك أننا كشفنا أمره. ليس قبل مرور بعض الوقت، بأية حال. لذلك، إن أفضل ما يمكننا القيام به في الحال هو الذهاب إلى المنزل، والحصول على بعض الراحة، والبدء مجدداً في الصباح».
«أجل، ولكن...»
«كان يوماً طويلاً يا ترافيس، وأنا أحتاج إلى العودة للتأكد من أن أمي بخير، وأنت بحاجة إلى العودة إلى المنزل قبل أن يبدأ جدّك وجدّتك بالشعور بالقلق. كلانا بحاجة إلى الوقت للتفكير في الأمور. اتفقنا؟».
«أفترض ذلك».
ونظرت إليّ. «نحن فريق جيد يا ترافيس. أنت وأنا، يمكننا القيام بهذا الأمر معاً».
«أجل».
ثم وضعت يدها على كتفي وتابعت: «ولكن ليس في الحال، اتفقنا؟ كلانا بحاجة إلى الذهاب إلى المنزل في الحال».
«ولكننا سنبدأ مجدداً يوم غد، أليس كذلك؟».
«سيكون أول ما سنقوم به في الصباح».
«أول شيء؟».
«سألتقيك في المكتب عند الساعة التاسعة. هل يناسبك الوقت؟».
«إنه مثاليّ».
ونظرت من فوق كتفها، وانتظرت وجود ثغرة في حركة المرور، ومن ثم خرجت من المَسرب الاحتياطي وانطلقت.
كانت خطتنا تقضي بالعودة إلى منزلها لآخذ دراجتي الهوائية، ومن ثم أن تقلني إلى المنزل. ولكن عندما وصلنا إلى منزلها، كانت أمها في حالة سيّئة قليلاً. فقد وقعتْ في المطبخ، وشعرت بتوعّك شديد بالرغم من عدم تعرّضها لإصابة خطرة، ومن الواضح أن كورتني لم تشأ تركها بمفردها. فسألتُ إذا كان بإمكاني تقديم يد العون، ولكن كورتني قالت إن أمها بحاجة إلى بعض الراحة فحسب. لذلك، طلبتُ من كورتني عدم القلق عليّ، وركبتُ دراجتي وعدت إلى منزل جدتي وجدّي.
أثناء عودتنا إلى منزل كورتني، كنت قد أبقيت عينَيّ مفتوحتَين علّني أرى السيارة الفضّية. ولكنني لم أرَها في أي مكان، ولم أرَ أية دلالة واضحة على قيام أشخاص آخرين بتتبّعنا، ولكنني واصلت النظر أثناء خروجي من البلدة على متن

دراجتي الهوائية وسلوكي لونغ بارتون روود؛ مراقباً سيارات الأودي المركونة، ومتحققاً من كل سيارة تمرّ بجانبي، ومُلقياً نظرة سريعة من فوق كتفي كلما اجتزت مسافة خمسين متراً تقريباً.

لكنني لم أرَ أي شيء مُقلِق. وعندما بلغتُ أعلى التلة المؤدّية نزولاً إلى منزل جدتي وجدّي، بدأت بالاسترخاء قليلاً. لم أتوقف عن النظر من فوق كتفي أو ما شابه، ولكنني لم أعُد أقوم بذلك طوال الوقت. لذلك، عندما أطلقت سيارة بوقها خلفي تماماً ونظرتُ حَولي ورأيت سيارة نيسان سكايلاين تتبعني تفاجأتُ نوعاً ما.

إنها سيارة سباق؛ ذات إطارت مصنوعة من خليط من المطاط، ومُبطئ خَلفيّ، وعادم كبير يصدر الكثير من الضجيج. كانت الشمس تسطع في عينَيّ، والسيارة مزوَّدة بزجاج أماميّ يحمل مسحة من اللون، لذلك صَعُب عليّ رؤية من بداخلها. كان هناك شخصان بالتأكيد يجلسان في الأمام، وتولّد لديّ انطباع بوجود المزيد منهم في الخلف، ولكنني لم أحاول التحقق من ذلك، بل أطلقتُ العنان للدوّاستين وأنا أقود الدراجة واقفاً، فاندفعتِ الدراجة بسرعة كبيرة على منحدر التلة.

أطلقت السيارة بوقها مجدداً أثناء انطلاقها بأقصى سرعة، وظننت أنني سمعت شخصاً ما ينادي باسمي، ولكنني لم أتوقف. بعد لحظات، سمعت صوت السيارة وهي تتبعني، وصوت الإطارات وهي تزعق أثناء سرعتها، وصوت جهاز نقل الحركة وهو ينتقل من سرعة إلى أخرى بسرعة، وهدير محرك عُزّزت قوّته...

كنت منطلقاً بأقصى سرعة، ولم يكن لديّ وقت للتفكير.

غيّرتُ اتجاهي في منتصف الطريق، وانتظرتُ مرور شاحنة، ومن ثم انحرفت بالدراجة إلى اليمين، وعبرتُ إلى الجانب المقابل من الطريق...

أمام عربة نقل تِسكو مُقفَلة، مباشَرةً.

كادت عربة النقل تِسكو المُقفَلة تصطدم بي، وكان مِصَدّها الأمامي على بُعد مليمترات من صَدم إطار دراجتي الخَلفي. وأثناء أزيزها بجانبي- وبوقها يزعق، وسائقها الغاضب يصيح بكلمات بذيئة- كاد الاندفاع الفجائي للهواء يوقعني عن دراجتي، ولكنني تمكنت من المحافظة على توازني في اللحظة الأخيرة. وأثناء اندفاع الأدرينالين في جسدي، مُحدثاً وَخزاً في أوردتي، قفزتُ بالدراجة على الرصيف، وواصلتُ الانطلاق بأقصى سرعة ممكنة؛ انعطفت إلى اليمين في اتجاه زُقاقٍ منحدر، ومن ثم سلكت الدرب، وعبرت بوّابة مفتوحة في اتجاه ممرٍّ للمشاة آمنٍ نسبياً.

كان الدرب ضيّقاً جداً ولا يتّسع لمرور سيارة، ولذلك عرفت أنه لم يَعُد باستطاعة سيارة نيسان اللحاق بي، ولكنني كنت لا أزال راغباً في الابتعاد أكبر مسافة ممكنة عن الطريق. لذلك، تابعتُ سيري وواصلتُ الدَّوس.

يمتدّ ممرّ المشاة بموازة لونغ بارتون روود، وكان منزل جدتي وجدّي على بُعد أقل من كيلومتر واحد. وتطل حديقة منزلهما الخلفية على الدرب، فعرفتُ أن بإمكاني دخولها من دون الاضطرار إلى سلوك الطريق العام.

كل ما تعيّن عليّ القيام به هو مواصلة السير.

ألقيت نظرة سريعة من فوق كتفي، متوقعاً رؤية سيارة نيسان مركونة في الزُّقاق، والسائق والركّاب يقفون عند مدخله وهم ينظرون في اتجاهي بانكسار، مُذعنين لواقع إفلاتي منهم. ولكن الزُّقاق كان فارغاً. فلا سيارة نيسان مركونة، ولا أحد عند مدخله. لقد بدا لي الأمر غريباً قليلاً. لا بد أن يكونوا قد رأوني وأنا أعبر الطريق إلى الناحية المقابلة وأنعطف إلى داخل الزُّقاق. إذاً، لماذا لم يتبعوني؟ الأمر غير منطقي!

فكرتُ في ذلك للحظات قليلة، ومن ثم أدركت أن هناك أمراً آخر غير منطقي. فلماذا سيتبعني أحدهم مستقلاً هذه السيارة الملحوظة؟ ولماذا سيُطلقون بوقهم وينادونني باسمي؟ إنه أمر غير منطقي أبداً.

غير أنني قلتُ لنفسي: انسَ الأمر. الآن ليس الوقت المناسب للأسئلة. فالأمر الوحيد الهام الآن هو العودة إلى منزل جدتي وجدّي.

لم تكن المسافة التي تفصلني عن منزلهما بعيدة. وكنت متّجهاً نحو نقطة التقاء الزقاق بالطريق، وكل ما تعيّن عليّ القيام به هو العبور إلى الناحية المقابلة للطريق ومواصلة سيري على ممرّ الممشاة لأبلغ منزل جدتي وجدّي في دقائق.

أبطأتُ لدى دُنُوّي من تقاطع الطرق، وكنت على وشك رفع قدمي عن الدوّاسة والترجّل عن الدراجة عندما سمعت صوت محرّك عُزِّزت قوّته وهو ينطلق على الطريق بأقصى سرعة. حاولتُ إقناع نفسي بأنها ليست سيارة نيسان بالضرورة، وأن هناك الكثير من سيارات السباق في الأنحاء مزوَّدة بعوادم كبيرة

وضاجّة، ولكنني علمتُ أنني أخدع نفسي. ضغطتُ على مكابحي، وتوقفتُ في الحال، وشرعتُ بإدارة الدراجة ووضعها في الاتجاه المعاكس. ولكن الدرب ضيّق جداً لدرجة عدم وجود متّسع كافٍ للمناورة. فرفعتُ مِقوَد الدراجة إلى الأعلى، محاولاً تمرير العجلة الأمامية فوق جِذع شجرة عند جانب الدرب، ولكن قضبان العجلة علقت في غصن مكسور. لقد علقتُ تماماً. نظرتُ في اتجاه تقاطع الطرق، مُصغياً إلى السيارة المقتربة بسرعة، ومتسائلاً عما إذا كان يُفترض بي النزول عن الدراجة والهرب. ولكن، أثناء تفكيري في الأمر، سمعتُ صرير إطارات، ورأيتُ سيارة نيسان تقف عند جانب الطريق. وقبل أن تتسنّى لي فرصة القيام بأي شيء، فُتِح بابا السيارة وخرج شكلان بشريّان.

كان أحدهما فتى قاسي الملامح، في السادسة عشرة من العمر تقريباً، يلبس كنزة سوداء مزوَّدة بقُلُنسوة وسروالاً أسود. والآخر عملاق، يتخطى طول قامته الأقدام الست، ولديه جسم ملاكمٍ من فئة الوزن الثقيل، وكتفاه أشبه بكتفَي ثور، ورأسه ضخم ويبدو منحوتاً من الصخر.

«هِيه يا ترافيس». نادى الفتى قاسي الملامح، ثم سألني: «ماذا تفعل يا رجل؟».

فقلت مُطلِقاً تنهيدة ارتياح: «تبّاً لك يا مايسون. لقد أخفتني حتى الموت».

على الأرجح، لا يفكر معظم الناس في مايسون يوسف كثيراً. فهم يُلقون نظرة عليه، ويفكرون أنه فتى شارع، وأنه فتى عصابة، ومجرم. ويفترضون أنه مجرد فتى آخر يُقيم في منطقة سكنية يملكها المجلس البلدي؛ مراهق أُمّيّ آخر من عائلة مُفلِسة أخرى، وأنه مجرد فتى تائه آخر لا مستقبل له أو أمل. وهم مُحِقّون من بعض النواحي. فمايسون فتى يقيم في منطقة سكنية يملكها المجلس البلدي، إذ وُلد ونشأ في منطقة سليد، وعاش هناك طوال حياته، ونشأ مع فتيان العصابات الذين يطوفون المنطقة السكنية. وهو يعرفهم ويتسكع معهم، بل إنه واحد منهم. وبالرغم من عدم رؤيتي له وهو يخرق القانون، إلا أنه يُدهشني كثيراً ألا يخرقه مرات قليلة في حياته. يعتبر مايسون- كما شرح لي ذات مرة- أن قانون المنطقة السكنية هو القانون الوحيد الذي يهمّ إذا عشتَ في سليد وأردتَ مواصلة الحياة. «وقوانيننا ليست منسجمة مع قوانينكم على الدوام». قال لي حينها، وعلى وجهه ابتسامة عريضة ماكرة.

ولكن، أيّاً يكن الصواب والخطأ في طريقة حياته، فهناك أكثر بكثير مما يمكن للمرء ملاحظته؛ أكثر بكثير.

لقد تسنّى لي التعرّف إليه منذ نحو عام؛ بعد تعرّض شقيقته الصغرى جايدي لحادث. في الواقع، لم أكن أعرف جايدي آنذاك، بل التقيتها فحسب ذات يوم عندما كنت أقود دراجتي عبر الحديقة العامة الصغيرة قرب منطقة بيكون فيلدس. كانت تقود دراجتها عبر الحديقة العامة أيضاً، ولكنها صادفت مجموعة فتيان قطعوا عليها الطريق ولم يسمحوا لها بالمرور. لا أعتقد أنهم أرادوا إلحاق أي أذى بها، بل كانوا يمرحون معها قليلاً؛ مُطلقين عليها أسماء، ومضايقين إيّاها، ومُحدِثين بعض الفوضى في الأنحاء. ولكنها كانت آنذاك في الحادية عشرة من عمرها فقط، وبمفردها، وكانوا جميعاً في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من العمر. لذا، لم يكن الأمر صائباً. وعلمتُ أنه يتعيّن عليّ القيام بشيء ما لمساعدتها، فقدتُ درّاجتي في اتجاههم، وطلبتُ منهم تركها وشأنها. حينها، أذعنوا لطلبي، ولكنهم أزعجوني بدلاً منها. وبما أنني أكبر سنّاً من جايدي بقليل، ولست فتاة، لم يكونوا مُلزَمين بالامتناع عن القيام بذلك، ولم يمتنعوا.

لقد تمكنتُ من مقاومتهم بما يكفي لتتمكن جايدي من الفرار. وبقدْر ما أذكر، طرحتُ اثنَين منهم على الأقل أرضاً، ولكنني لم أتمكن من التغلّب عليهم جميعاً. إذ كان هناك عدد كبير منهم. وفي غضون دقائق قليلة، طرحوني أرضاً، وأبرحوني رَكلاً. وآخر ما أذكره هو نظري إلى حَلْقة من الوجوه المحيطة بي والتي تُطلق ابتسامات عريضة، متسائلاً عن مدى الألم الذي سأشعر به، ومن ثم انفجر رأسي واسودّ كل شيء.

لم أُصَب بأذى كبير؛ فلا عظام محطَّمة. وبعد يومَين، استعدتُ عافيتي. لا أعرف كيف عرف مايسون من أكون، ولكنه كان بانتظاري عند بوابة المدرسة في

نهاية يوم عودتي إلى المدرسة بعد تعرّضي للضرب.

وسألني: «هل أنت ترافيس ديلاني؟».

فنظرت إليه. كان فتى قاسي الملامح في الخامسة عشرة من العمر، من منطقة سليد السكنية، وتساءلت عما يريده.

فقال مادّاً يده لمصافحتي: «مايسون يوسف. لقد ساعدتَ شقيقتي».

«أوه، صحيح». قلت مصافحاً إيّاه. «كيف حالها؟».

فأطلق مايسون ابتسامة عريضة وقال: «لا تستطيع الكفّ عن التحدث عنك. أنت بطلها».

فهززتُ كتفَيّ مُحرَجاً، وقلت: «في الواقع، لم أفعل أي شيء».

«بلى، لقد فعلتَ. فقد واجهتَ ستة فتيان من بيكون، وتلقّيتَ الضرب بسببها».

«نلتُ من اثنَين منهم».

«هذا ما تبادر إلى مسمَعيّ». وألقى نظرة جانبية سريعة، ومن ثم نظر إليّ مجدداً وتابع: «بأية حال، أردت فقط إعلامك أنه تمّ الاهتمام بأمرهم».

«ما الذي تعنيه؟».

«الفتيان الذين ضربوك، أولئك الذين عبثوا مع جايدي. لقد تمّ التعامل معهم، ولن يُزعجوك مجدداً».

«صحيح...» قلت وأنا غير واثق تماماً مما يعنيه.

تناول قُصاصة ورق من جَيبه، ومرّرها لي قائلاً: «هذا هو عنواني ورقم هاتفي المحمول. إن واجهت أي مشاكل، أي شيء تريده، أي شيء، اتصل بي. اتفقنا؟».

فتمتمتُ: «شكراً».

فقال ببساطة: «لقد حميتَ جايدي، والآن أنا أحميك».

«لستَ مضطراً إلى القيام بذلك. أعني، لا حاجة...»

غير أنه قال متجاهلاً اعتراضي: «عليّ الذهاب». وابتعد وهو يتابع: «عندما تمرّ بسليد في المرة التالية، قُم بزيارتنا». وأطلق لي ابتسامة عريضة من فوق كتفه. «ستُسرّ جايدي».

ومذّاك الحين، التزم مايسون بوعده. فقد كان يحميني ويرعاني، ويساعدني عند الحاجة. وبالرغم من تحدّرنا من خلفيّتَين اجتماعيّتين مختلفتَين تماماً، ونعيش في عالمَين مختلفَين، فقد غدَونا صديقَين مقرَّبَين جداً. ووثّقتُ معرفتي بجايدي أيضاً. إنها في الثانية عشرة من العمر الآن، ولا تزال مفتتنة بي قليلاً؛ مما يجعل الأمور مُربِكة بعض الشيء بيننا. ولكننا نتمكن من تخطّي الأمر في معظم الأحيان. نحن صديقان. لقد نجحنا في تخطّي الأمر معاً. هذا ما يقوم به الأصدقاء.

رأيتُ جايدي تترجّل من المقعد الخلفي للنيسان، وابتسمتْ لي، ثم تبعتْ مايسون والشخص الآخر إلى حيث أقف. كنت قد نزلتُ عن الدراجة، وأحاول

تخليص الإطار الأمامي من جذور الشجرة.

فبيغ ليني هو الشخص المرافق لمايسون. لا أعرف إذا كان ليني هو اسمه الحقيقي أم لا، ولكن الجميع يدعونه بهذا الاسم. إنه المعتني بمايسون، ويرافقه أينما يذهب تقريباً. يُخطئ بعض الأشخاص في اعتقادهم أن ليني غبيّ، ويعود سبب ذلك جزئياً إلى ضخامة بنيته على نحو غريب، وإلى عدم قوله أي شيء إلا نادراً، وإلى ارتدائه على الدوام ملابس غريبة إلى حد ما. فاليوم مثلاً، إنه يرتدي سروال جينز رديء النوعية ومزوَّداً بطيّات بعرض ست بوصات، وسترة بحّار ذات ياقة على شكل V ومن دون قميص، وسترة بذلة مستعمَلة أصغر من قياسه بمقدار الضعف تقريباً؛ مما جعله يبدو غريباً بعض الشيء. ربما كان ليني غريباً بعض الشيء، ولكنْ لا خَطْب في ذلك. وبالنسبة إلى غبائه... حسناً، قد لا يقول الكثير، وقد لا يكون المفكر الأعظم في العالم، ولكنه يبدو على الدوام قانعاً تماماً بحياته. بالنسبة إليّ، إنها طريقة ذكية جداً.

قلت ناظراً إليه: «هِيه، يا ليني، تسُرّني رؤيتك».

لم يُجِب، بل أومأ برأسه الضخم فقط.

بعد ذلك، دَنَتْ جايدي مني وعانقتني، واضعةً ذراعَيها حول خصري، وضاغطةً رأسها على صدري. «آسفة حقاً في شأن أمك وأبيك يا ترافيس. إذا كان هناك ما يمكنني القيام به... أعني، إذا كنت تريد التكلّم عن أي شيء... حسناً، أنت تعرف أين أكون».

«شكراً». تمتمتُ وأنا أشعر بالقليل من الإحراج، ولكنني شعرت أيضاً بتحسّن نوعاً ما.

أفلتتني وتراجعتْ، فوقفتُ هناك مبتسماً لثلاثتهم. لقد بدوا كمجوعة أشخاص غير متكيّفين مع مجتمعهم وخارجين عن القانون، وأفترض أنهم كذلك بطريقة ما. ولكن أثناء وقوفنا هناك معاً في ذلك اليوم، معرَّضين لحرارة شمس بعد الظهر، اعتبرتُ أنهم الأشخاص المناسبون لأكون معهم.

«إذاً، ماذا تفعل هنا يا مايسون؟». قلت وأنا أسحب العجلة الأمامية بقوة مرة أخرى.

«أبحث عنك». أجاب وهو يساعدني في تحرير العجلة. «بلغني أنك تُقيم مع جدتك وجدّك الآن، وكنا في طريقنا لرؤيتك. لماذا انطلقتَ بأقصى سرعة عندما رأيتنا؟!».

«لم أعرف أنكم من يلحق بي».

«من ظننتَنا إذاً؟ هل يلاحقك أحد ما؟».

«ربما...»

«من؟».

«حسناً، إنها قصة طويلة نوعاً ما».

وسحبتُ العجلة بقوة مرة أخرى، فتحرّرت أخيراً. قوّمتُ وقفتي مستعيداً أنفاسي، وألقيت نظرة سريعة على النيسان. كانت موسيقى الراب تنبعث من الداخل بصوت مكتوم، وعلى مقعد السائق يجلس شاب نحيل يدخّن سيجارة ويومئ برأسه على وقع الموسيقى. لقد أدركتُ أنني عندما انطلقتُ على التلة بأقصى سرعة، وانعطفتُ إلى داخل الزُّقاق، ظنّ مايسون أنني متّجه إلى منزل جدتي وجدّي عبر ممرّ المشاة، وبدلاً من أن يتبعني في الزُّقاق طلب من السائق سلوك لونغ بارتون روود، ومن ثم الانعطاف يميناً لقطع الطريق عليّ عند التقاطع.

سألتُ مايسون: «من الشخص الذي يجلس في السيارة؟».

فأجاب: «يدعونه توت. لا بأس به. ليس شديد الذكاء، ولكنه سائق جيد».

فقلت مُطلقاً ابتسامة عريضة: «إنها سيارة جميلة، وهي تنمّ عن ذَوق رفيع حقاً».

فهز مايسون كتفَيه، ونظر إليّ قائلاً: «إنها مجرد سيارة. إذاً، ما هي تلك القصة الطويلة يا تراف؟ من يتبعك برأيك؟».

لم أروِ لهم القصة كاملةً، ولكنني أخبرتهم بما يكفي لوضعهم في الصورة. لم أتفاجأ عندما عرفت أن مايسون يعرف كل شيء عن بشير كمال- فمايسون يعرف كل شيء تقريباً- وعندما ذكرتُ إيفي جونسون، تبيّن لي أنه يعرفها أيضاً منذ طفولتها.

«إيفي هادئة الطبع». قال وأومأ برأسه. «يمكنك الوثوق فيها. وإذا قالت إنها رأت «بشير» مع شخصَين في سيارة، فذلك يعني أنها رأته».

سألتُه: «هل بلغك أي شيء عن بشير؟ أي شائعات أو ما شابه؟».

«انتشر خبر في سليد عن أنه في باكستان. للأمر علاقة بجدّة مريضة».

«هل تصدّق ذلك؟».

«ربما، كما أفترض. ولكنّ كيفية مغادرته بسرعة أمر غريب نوعاً ما، ولا سيما

مع دُنُوّ موعد مباراته الكبيرة. وهناك أمر شديد الغرابة في كيفية انتشار الخبر بهذه السرعة أيضاً. أعني، عندما تسري شائعة في العادة في المنطقة السكنية، فهي تبدأ ببطء مع معرفة عدد قليل من الأشخاص بها، ومن ثم تنتشر شيئاً فشيئاً حتى تبلغ أخيراً حدّاً معيَّناً، وبعد ذلك تنفجر نوعاً ما ويعرف الكل بأمرها. ولكن هذه الشائعة عن ذهاب باش إلى باكستان مختلفة. فقد بدا الأمر كما لو أن أحداً لم يكن يعرف شيئاً قبل دقيقة، وبعد ذلك انتشرت الشائعة في مختلف أنحاء المنطقة السكنية. هل تفهم ما أعنيه؟».

فأومأت برأسي وقلت: «أنا على ثقة تامة بأنه ليس في باكستان».

«حقاً؟!».

فأخبرت مايسون عن عثوري على جواز سفر بشير.

فقال: «لا يعني ذلك بالضرورة أنه لا يزال في البلد. فمن غير الصعب الحصول على جواز سفر زائف».

«ولماذا سيسافر بجواز سفر زائف؟».

«أخبِرْني أنت، فأنت المحقِّق». وكفّ عن الكلام للحظات، مفكراً في أمر ما ثم قال: «أرِني تينك الصورتين اللتين أخبرتَني عنهما».

فأَرَيتُه النسخة المطبوعة والصورة الفوتوغرافية لرجل الجنازة.

«هذا هو الرجل». قال ناقراً على النسخة المطبوعة.

«أي رجل؟».

«هذا الرجل». قال مشيراً إلى الرجل ذي الشعر القصير الداكن واللحية العُثنون. «هذا هو الرجل الذي جئتُ إلى هنا لأخبرك عنه».

لم يشارك مايسون في أعمال الشغب التي حُطِّمت فيها كل المتاجر والمكاتب في نورث واك، ولم يعرف أنها ستقع- كما قال لي- ولكنه يعرف كل من شارك فيها؛ غير أنه لم يكن هناك.
قال لي: «عرفتُ أنه من المحتمل تعرّض مكتب أمك وأبيك للنَّهب. وبالرغم من عدم تمكّني من القيام بأي شيء لإيقاف ما حدث، إلا أنني لم أشأ المشاركة فيه. فكرتُ في إبلاغك، ولكنني في الواقع لم أرَ أية فائدة في ذلك. واعتقدتُ أن لديك اهتمامات أكثر أهمية يتعيّن عليك التعامل معها بأية حال. أعني أنك كنتَ قد فقدتَ أمك وأباك للتوّ... لذا، اعتقدتُ أنه من الأفضل تركك وشأنك؟».
كنا أربعتنا جالسين معاً على مقعد خشبي على الطريق عند التقاطع، فسألتهم عما إذا كانوا يريدون العودة معي إلى منزل جدتي وجدّي، ولكن مايسون قال إن عليه المغادرة قريباً لأن عليه القيام ببعض الأمور في سليد.
وتابع: «ظننتُ أن الأمر برمّته فكرة غبيّة بأية حال. أعني، إذا كنتَ ذاهباً للنَّهب والسَّلب، فعلى الأقل ينبغي أن تحرص على القيام بذلك في مكان تكون سرقته جديرة بالمحاولة». وهز رأسه. «أعني، لا شيء في نورث واك جدير بالسرقة، ولا شيء هناك سوى متاجر ومكاتب صغيرة، وما شابه. فلماذا تكبدوا عناء تحطيمها؟! لا فائدة من ذلك. إنه مجرد تخريب غبيّ، أليس كذلك؟».
«أفترض ذلك». قلت غير واثق حقاً مما يحاول قوله.
فنظر مايسون إليّ وتابع: «كانت العملية منظَّمة يا ترافيس. فكل من في سليد كان يعرف بالتحديد متى ستنطلق أعمال الشغب وأين ستضرب. كل شيء كان مخطَّطاً له، وأنت لن تُخطط لتخريب غبيّ، أليس كذلك؟».
«لا أفهم ما الذي تعنيه!». قلت وأنا أهز رأسي.
فقال لي مايسون: «لم أفهم أنا أيضاً في بادئ الأمر، ولهذا السبب شرعتُ بطرح أسئلة في الأنحاء. وهكذا، سمعتُ عن هذا الرجل الموجود في الصورة».
وأخرج مايسون هاتفه المحمول، ونقر على الشاشة، ومن ثمّ مدّ يده ليُريني الصورة. ظهر في الصورة الفوتوغرافية رجل يرتدي بذلة، ويخرج من مجمَّع سكنيّ غير مرتفع. إنه الرجل داكن الشعر بلحيته العُثنون. «التُقطت هذه الصورة في سليد قبل يومَين من أعمال الشغب. واستناداً إلى ما قيل لي، كان رجلُ البذلة خارجاً للتوّ من اجتماع مع رجل يدعى دروو ديفن، ويدعونه دي دي». ونظر مايسون إليّ. «هل سبق لك أن سمعت به؟».
«لا».
«دي دي يُدير كل شيء تقريباً في سليد، ويملك هذا الشخص نفوذاً كبيراً».
«ما زلت غير فاهم». قلت عابساً، ثم تابعت: «ما علاقة كل ذلك بأعمال الشغب!؟».
«تقول الشائعة المنتشرة إن رجل البذلة قد دفع المال لدي دي لتدبّر الأمر».

«تدبُّر ماذا؟».
«أعمال الشغب».
«أتعني أنه تم دفعه لإحداث أعمال شغب؟».
فأومأ مايسون برأسه. «أعني، لا يمكنني إثبات الأمر أو أي شيء، ولكنْ هكذا يبدو لي الأمر. قال لي أحد الفتيان الذين كانوا هناك في تلك الليلة إنه صدّق الأمر لأن أتباع دي دي أخبروه بذلك. أنا على ثقة تامة بأن بعض الفتيان الأكبر سناً دفعوا قَدْراً كبيراً من المال للحرص على القيام بأعمال الشغب».
«أتعتقد أنهم تلقّوا المال من دي دي؟».
ابتسم مايسون بأسف وقال: «حسناً، ما كان ليدفع لهم من ماله الخاص بالتأكيد، ولا بد أنه حمَل شخصاً آخر على القيام بذلك. ولكن، أجل، أعتقد أن دي دي هو من يقف وراء ما حدث ربما. لقد دفع له رجل البذلة، فدفع هو لأتباعه، وعالجوا المسألة».
«ولماذا سيريد رجل البذلة القيام بأعمال شغب؟!». قلت وأنا أنظر إلى مايسون باستغراب. «لماذا سيريد أي شخص أعمال شغب؟ الأمر غير منطقي، أليس كذلك؟».
«لم يكن منطقياً إلى أن رأيت هذه». قال مايسون، متفرّساً للمرة الثانية بالنسخة المطبوعة للصورة الفوتوغرافية. «الآن، أنا أعتقد أن الأمر منطقيّ تماماً». وحمل هاتفه فوق النسخة المطبوعة، واضعاً إيّاه بطريقة تجعل الصورة الفوتوغرافية للرجل على هاتفه تظهر إلى جانب صورة الرجل على النسخة المطبوعة. «إنه الشخص نفسه من دون شك، أليس كذلك؟».
«أجل». وافقتُه الرأي.
«والتقط والدك هذه الصورة عندما كان يحاول العثور على بشير كمال؟».
«أجل».
«إذاً، فللرجال الموجودين في صورة أبيك علاقة باختفاء بشير، وقد دفع أحدهم المال لدي دي كي ينظّم أعمال شغب في نورث واك، وصودف أنها حدثت حيث يوجد مكتب أمك وأبيك». ونظر إليّ. «هل ترى ما أراه؟».
«لا». اعترفتُ.
فنظر إلى جايدي وسألها: «هل فهمتِ الأمر يا جاي؟».
فأومأت برأسها.
عندها، ابتسم لها، ومن ثم التفت إليّ شارحاً: «ماذا لو كان لدى أمك وأبيك دليل من نوع ما بأن أشخاص البذلات هؤلاء متورّطون بما حدث لبشير؟ وماذا لو علم رجال البِذلات بأن أمك وأباك يملكان دليلاً، وظنّوا أنه في مكتبهما، ولكنهم لم يشاءوا اقتحام المكان وسرقته لأن شخصاً ما قد يلاحظ أخيراً أنه مفقود فيثير الأمر الشُّبهة».
فقلت وقد بدأت أستوعب الأمر: «هذا صحيح. ولكن، إذا فُقد مع مجموعة كبيرة من الأغراض الأخرى عندما حُطّم المكتب ونُهب أثناء أعمال الشغب،

فعندها ما كان أحد لِيعرف».
فقالت جايدي: «بالتحديد».
فنظرت إليها، وابتسمتْ.
والتفتُّ بعد ذلك إلى مايسون، وسألته: «إذاً، من هو الرجل الذي دفع لـدي دي؟».
فأجاب: «لا فكرة لديّ. سألتُ في الأنحاء، ولكن لا أحد يعرف أي شيء عنه».
فقلت: «دي دي يعرف من يكون، فلماذا لا نسأله؟».
فكبَتَتْ جايدي قهقهتها بصعوبة.
عندها، قلت لها: «ماذا؟ ما الخطأ في ذلك؟».
فقالت ببساطة: «إنه دي دي، ولا يمكنك قرع بابه ببساطة والشروع بطرح الأسئلة عليه».
«لِمَ لا؟».
فقالت عابسةً في وجهي كما لو أنه الأمر الأكثر بديهية في العالم: «لأنك لا تستطيع».
فنظرتُ إلى مايسون وقلت له: «أنت تعرف كل الأشخاص المناسبين، أليس كذلك؟ أعني، بإمكانك رؤيته بالتأكيد».
«باعُ نفوذي طويلة جداً يا ترافيس. أعني، أجل، أعرف الكثير من الناس، والكثير من الناس يعرفونني. ولكن الطلب مني زيارة دي دي أشبه بالطلب منك زيارة رئيس الوزراء أو ما شابه». وهزّ كتفَيه. «لن يحدث ذلك أبداً».
«ربما يمكنني محاولة التحدث إليه؟». اقترحتُ.
«أجل، صحيح». قال مايسون بطريقة تدل على رفضه اقتراحي، وتابع: «وأثناء قيامك بذلك، يمكنك محاولة إنبات بعض الأجنحة والطيران إلى القمر أيضاً».
واصلنا مناقشة الأمور لبعض الوقت، محاولين معرفة هويّة الأشخاص الموجودين في الصور، وإذا كانوا على علاقة بالرجال في سيارة الأودي. ولكن، عندما قال مايسون إنه يتعيّن عليه المغادرة، لم نكن قد حققنا أي تقدّم.
وحين وقف قال لي: «سأواصل السؤال في الأنحاء، اتفقنا؟ وسأُعلِمك إذا بلغ أي شيء مسمعي».
«شكراً».
«فلنبقَ على تواصل، اتفقنا؟».
«أجل».
«إن احتجت إلى أي شيء، أو واجهت أي مشاكل، فاتصل بي فحسب».
فأومأت برأسي.
عانقتني جايدي مجدداً قبل أن تذهب، ومن ثم ربّت بيغ ليني على كتفي- وكاد يوقعني أرضاً عن المقعد- وتوجّه الثلاثة نحو النيسان. وما إن جلسوا حتى ازدادت سرعة دوران المحرك وأصدر صوتاً مرتفعاً، وهدر العادم الكبير كطائرة نفّاثة، وانطلقت السيارة بأقصى سرعة على الطريق. راقبتُها وهي تبتعد، ومن

ثم ركبتُ دراجتي وتوجّهت إلى منزل جدتي وجدّي.

بعد تناولي الشاي مع جدتي وجدّي ووالدة جدّي نورا- التي بدت بصحة جيدة بما يكفي كي تنزل إلى الطابق السُّفلي لمرة واحدة- ذهبتُ إلى غرفتي، واستلقيت على سريري، وحاولت تحليل كل ما اكتشفتُه بطريقة منطقية. كان الأمر صعباً في الواقع بسبب كثرة المعلومات في رأسي، وبسبب أمورٍ عديدة قالها لي الناس، وأفكارٍ ومشاعر واحتمالات عدة... كان الأمر صعباً جداً. كنت أعرف أن كل ذلك يعني أمراً ما، وأن كل شيء مرتبط بطريقة ما، ولكنني لم أتمكن من تشكيل صورة واضحة في ذِهني. بدا الأمر كما لو أنني أمام أُحجيةِ صورةٍ مقطَّعة ومختلطة على نحوٍ مشوّش تطفو في ذِهني؛ أُحجية صورة مقطّعة ثلاثية الأبعاد، مع فقدان بعض القِطَع. وكلما ظننت أنني أحدث تقدّماً بعد جمع قطعتَين معاً، أدركت فجأةً أن الألوان غير متطابقة، أو أن القِطع غير منسجمة مع بعضها، أو ما شابه، ومن ثم تعيّن عليّ البدء من جديد.

لقد استلقيت هناك لمدة طويلة، محدّقاً إلى السقف فحسب، وتائهاً في الأُحجيات داخل رأسي.

لا أعرف كم كانت الساعة عندما صعد جدّي لرؤيتي، ولكنني أذكر إدراكي أن الظلام يَحلّ في الخارج، وسماء الليل ملونة بأشعة الشمس قِرمزية اللون عند المغيب. لذلك، لا بد أن الساعة كانت نحو التاسعة، أو التاسعة والنصف. كنت قد تخلّيت عن التفكير في الأمور في نصف الساعة الأخير، وجلستُ على سريري لأمارس لعبة الشطرنج على جهاز الكمبيوتر الحضني. فكّرتُ في ممارسة لعبة أخرى، ولكنني لم أكن في مِزاج ملائم لإطلاق النار على الناس أو إدارة فريق كرة قدم. وبالرغم من كوني غير متمرّس بالشطرنج، إلا أن محاولتي حلّ قواعد هذه اللعبة في رأسي يساعدني على الدوام. فالشطرنج ينقل عقل المرء إلى مكان مختلف، وأثناء وجوده في ذلك المكان- مركّزاً على تعقيدات اللعبة- يكون ما تبقى من عقله مستعداً للتركيز على الأمور التي يتعيّن حلّها.

هكذا أجد ممارسة لعبة الشطرنج بأية حال.

كنت على وشك أن أخسر المباراة عندما قرع جدّي الباب، وقد بقيت لديّ ملكة وقلعة، ولدى منافسي ملكة وقلعتان، وهزيمتي على يد القلعة الإضافية مسألة وقت فحسب. لذلك، عندما سمعتُ جدّي يقرع بابي ويناديني برِفق- «هل أنت مستيقظ يا تراف؟»- كنت سعيداً جداً بإيقاف المباراة من دون حفظها في ذاكرة الجهاز، قائلاً لنفسي إنني لم أخسر في الواقع، بل قوطعتُ فحسب.

كنت قد لاحظت في موعد تناول الشاي أن جدّي يبدو أفضل حالاً. وعندما دخل غرفتي في تلك الليلة أدركت من طريقة سيره أنه عاد إلى طبيعته مجدداً. لم يكن يجرجر خُطاه، ولم تكن كتفاه منحنيَتين، بل كان واثقاً من نفسه.

«كيف تجري الأمور؟». قال متوجّهاً إلى النافذة.

«حسناً، كما تعلم...»

فنظر إليّ، وأومأ برأسه ببطء وقال: «أجل، أعلم».
«كيف حالك؟». سألتُه.
«لست سيّئاً جداً، شكراً». ثم تنهّد ونظر إلى خارج النافذة وقال بكآبة: «اسمع يا ترافيس، آسف لأنني لم أكن موجوداً هنا من أجلك في الأسبوعَين الفائتين. لم يحدث ذلك لأنني غير راغب في...»
غير أنني قاطعته قائلاً: «لا تُبالِ يا جدّي. لستَ مضطراً إلى تقديم أي شرح».
فقال بحزن، وهو يهزّ رأسه: «لا، بل أُبالي. إنه أسوأ وقت تمرّ به. إنه أسوأ وقت بالنسبة إلينا كلنا، وكان يُفترض بي أن أكون معك؛ كل يوم، وكل ساعة، وكل دقيقة. ولكنني لم أكن معك. إنه أمر لا يُغتفَر».
فقلت: «لا شيء لا يمكن غفرانه يا جدّي. قال لي أبي ذات مرة إنك إذا أحببت شخصاً ما حقاً، فلا يمكنك إلا أن تغفر له».
فابتسم جدّي. وكانت هذه هي المرة الأولى التي أراه يبتسم فيها منذ أسابيع. «طالما كان أبوك يجيد استخدام الكلمات، أليس كذلك؟ حتى في صِغره، كان يجد مَخرجاً لكل ورطة تقريباً بفضل الكلمات التي يختارها، ويقود والدته إلى الجنون أحياناً». وأطلق ابتسامة عريضة متذكراً: «أذكر مرة عاد فيها أبوك من المدرسة إلى المنزل بملابس ممزَّقة وهو مغطى بالوحل... حدث ذلك عندما كان في السادسة أو السابعة من العمر تقريباً، وربما أكبر سنّاً بقليل...»
قضينا الساعات القليلة التالية متبادلَين الأحاديث. وفي حين لازمتُ السرير مسترخياً، وجد جدّي الراحة على كرسيّ موضوع في الزاوية. روى لي قصصاً عن أبي عندما كان صغيراً؛ فقد نشأ في جنوب لندن، وكان يتورط في المتاعب أحياناً، ويذهب لمشاهدة مباريات فريق ميلوال. ومع غياب الشمس وحلول ظلام الليل، تناول الحديث تدريجياً أموراً شخصية. فقد أراد جدّي أن يعرف حقيقة مشاعري؛ وسألني عما أشعر به في الواقع، وعما يدور في رأسي وفي قلبي، وإن كان هناك أي شيء أريد إطلاعه عليه، أو أي شيء أريد التحدث عنه، وإن كانت لديّ أسئلة عن أي شيء، أي شيء على الإطلاق...
لم أعرف ما أقوله في بادئ الأمر. إذ كان قلبي وعقلي مليئَين بأمور عن أمي وأبي- مشاعر، أسئلة، ارتباك- ولكنني لم أعرف كيفية التعبير عنها بالكلمات. كانت هناك فحسب، في داخلي. كانت جزءاً مني. وأيّاً تكن رغبتي في التعبير عنها، إلا أنها لم تكن تريد الخروج كما يبدو؛ إنها ليست مستعدة للخروج بعد كما يبدو. ولكن الأمر الآخر- أحجية الصورة المقطَّعة- فقد كان مستعداً للخروج. وبالرغم من عِلمي أنه ليس نوع الأمور التي يفكر فيها جدّي، إلا أنني وجدتُ أنه يتعيّن عليّ إطلاعه عليه.
لذا، قلت له: «هل تذكر الرجل الذي كان في موقف السيارات في الجنازة؟ ذلك الذي التقطتُ صورة له بواسطة هاتفي المحمول؟».
قطّب جدّي جبينه للحظات، ثم سألني: «أتعني الرجل الذي يملك سيارة بي أم دبليو؟».

فأومأت برأسي، سعيداً لتذكّره إياه.
ومن ثم شرعت بإطلاعه على كل شيء.

يقال إن العينَين هما نافذة الروح. وأثناء جلوسي في غرفتي مع جدّي في تلك الليلة، مُطلعاً إيّاه على كل ما توصلت إليه عن بشير كمال والرجال الغامضين، اتّضح لي من النظرة التي بدت في عينَي جدّي أن روحه حالت دون اتخاذه قراراً. كان من الواضح أن فُضوله قد أُثير بما قلتُه له، ومهما حاول إخفاء الأمر، إلا أنني تمكنت من رؤية فُضول فِطريّ يتلألأ في عينَيه. ولكن، كلما أخبرتُه المزيد، ازداد التلألؤ قتامة، وارتسمت في عينَيه تدريجاً نظرةُ قلق وارتياب. لقد شعر بالقلق عليّ، وخاف عليّ؛ مما جعلني تقريباً أتمنى لو أنني أبقيتُ فمي مُطبَقاً.

ولكن، بعد فوات الأوان.

علاوةً على ذلك، ومهما تمنيت لو أنني لم أطلعه على أي شيء، إلا أنني شعرتُ بارتياح لا يصدَّق لإخباري إياه بكل شيء. وشعرتُ بأنني أكثر خِفّة، كما لو أنني كنت أسير طوال اليوم وعلى كتفَيّ جُلمود، وها هو الجُلمود يُزال فجأةً.

وعندما أنهيت، قال جدّي بصرامة: «كان يُفترض بك إخبار شخص ما بكل ذلك يا ترافيس. كان يُفترض بك إبلاغ شخص ما بما تفعله».

فقلت: «لقد فعلتُ، فقد أخبرت كورتني. وقد رافقتني لرؤية السيدة كمال».

«كان يُفترض بك إخبار جدتك».

«لم أشأ إزعاجها».

فتنهّد بحزن وقال: «وأفترض أن هذا هو سبب عدم قدومك إليّ، أليس كذاك؟ لم تشأ إزعاجي».

إنه سؤال تصعب الإجابة عنه، ولم أكن واثقاً من كيفية القيام بذلك. فأنا لم أشأ أن أكذب عليه، ولكنني لم أشأ حمله على الشعور بالسوء أكثر أيضاً؛ فقد شعر بالسوء بما يكفي. لذلك، لم أقل أي شيء لبعض الوقت، بل نظرتُ إليه فحسب؛ محاولاً حمله على التيقّن من أنني لا ألومه على أي شيء، وأنني أعرف أنه لم يستطع السيطرة على غرقه في مزاجه المُظلِم، وأن كل شيء بخير بأية حال. فأصبح أفضل حالاً مجدداً، وتحدّثنا، وهذا كل ما يهمّ.

بعد جلوسنا معاً هناك لمدة دقية واحدة أو دقيقتَين إضافيّتين، متبادلَين النظرات في ظُلمة غرفتي المضاءة بنور القمر، أخيراً أومأ جدّي برأسه فحسب. لم تكن إيماءة واضحة، ولكنها كل ما كنا بحاجة إليه. فابتسمتُ بهدوء، وأومأتُ له برأسي بالمِثل.

اعتقدتُ أنه سيرغب في رؤية الصورتين أولاً- الصورة الفوتوغرافية الموجودة على هاتفي المحمول، والنسخة المطبوعة التي أخذتها من الخزانة المعدنية- ولكنه شرع بطرح الأسئلة عليّ أولاً. سألني عن سيارتَي الأودي، وعن رجل الجنازة، وذلك الرجل الأصلع، وعن كل شيء. أي نوع من الرجال هم؟ هل هم هادئون أو غاضبون؟ أهم أذكياء؟ مُثارون؟ كيف تكلّموا؟ هل لديهم لَكنات؟ ماذا

قالوا بالتحديد؟ هل أنت واثق من أن الأودي كانت تتبعك؟ هل أعطتك إيفي جونسون وصف الرجال الذين رأتهم في الأودي مع بشير؟

كان من الصعب تذكّر التفاصيل، وقد فاجأني الأمر، وشعرتُ بالانزعاج من نفسي بسبب اضطراري إلى قول «لا أعرف»، أو «لا يمكنني أن أتذكر» طوال الوقت. فأكد لي جدّي أن لا شيء يدعو للقلق، وقال لي إن الجميع تقريباً يناضلون لتذكّر أمور صغيرة، وإن معظم الناس لا يستطيعون تذكّر التفاصيل الأكثر أساسية- كلون الشعر، وطول القامة، والملابس- عندما يُطلب منهم وصف أشخاص لم يروهم سوى مرة واحدة.

«لقد استجوبتُ عدداً كبيراً من شهود العَيان يا تراف. وصدّقني، أنت أفضل من معظمهم».

«إذاً، كانوا عديمي النفع بالتأكيد».

«لا تُقلّل من شأن نفسك، فأنت تعرف أكثر بكثير مما تعتقد».

لم أكن واثقاً مما إذا كان مُصيباً في ذلك، ولكنني شعرت بالسعادة بما يكفي لتقبُّل الأمر.

ثم قال: «لِنرَ تلك الصور التي أخبرتَني عنها».

عندها، توجّهتُ إلى الكرسيّ وسلّمتُه النسخة المطبوعة، فتناول نظارة القراءة من جَيب سترته الصوفية، ونظّفها بقميصه، ومن ثم وضعها وتأمل الصورة. وأثناء قيامه بذلك، أخرجتُ هاتفي المحمول، وفتحت الصورة الفوتوغرافية لرجل الجنازة. كان جدّي يتفرّس بالنسخة المطبوعة عن كَثب، ممعناً النظر إليها، ومتفحّصاً كل تفصيل صغير بصمت مركَّز. راقبتُه بهدوء وهو يخلع نظارته ويحملها فوق صورة الرجال الثلاثة، ناظراً شزَراً عبر العدستين للحصول على رؤية أفضل. لكنه لم يبدُ مسروراً جداً بالنتيجة، وبعد قليل هز رأسه وأعاد وضع نظارته.

قلت له: «كتب أبي مدوَّنة على الظهر».

فأدار النسخة المطبوعة، وقرأ المدوَّنة المخربَشة.

سألتُه: «ما رأيك؟».

واصل التمعّن بالمدوَّنة لبعض الوقت، ومن ثم رفع نظره ببطء، وخلع نظارته، وحدّق إلى الأمام مباشَرةً، وجبينه مجعَّد بسبب التركيز. وبعد دقيقة تقريباً، أطلق تنهيدةَ إحباط وهز رأسه قائلاً: «من الواضح أن لهذا الأمر علاقة بالرابع والخامس من آب/ أغسطس. ولكن، تبّاً لي لأنني لا أستطيع أن أعرف ما سيحدث في هذا التاريخ». ونظر إليّ، ثم سألني: «هل لديك أي أفكار؟».

قضينا الدقائق الخمس التالية مناقشَين ما يمكن أن تعنيه كلمة dem وعبارة اليوم الأخير، ولكننا لم نتمكن من استنتاج أي شيء مفيد. وفي النهاية، اقترح جدّي جعل هذا الأمر من آخر أولوياتنا في الوقت الحاضر، وقال:

«أحياناً، تتمثل الطريقة الفضلى لحلّ أُحجية ما بعدم التفكير فيها». وأدار النسخة المطبوعة، وأعاد وضع نظارته، ونظر إلى صورة الرجال الثلاثة مجدداً، ثم سألني: «من منهم الذي جاء إلى المكتب؟».

«هو». قلت مشيراً إلى الرجل الأصلع.

«وهذا؟». سألني مشيراً إلى الرجل ذي اللحية العُثنون. «أهو من قال لك صديقك إنه دفع المال لإحداث أعمال شغب؟».

فأومأت برأسي.

«وهذا رجل الجنازة». قال مشيراً إلى الرجل ذي العينَين الرماديّتَين فولاذيّتَي اللون.

«أجل». ومرّرتُ هاتفي إلى جدّي وتابعت: «وهذه هي الصورة التي التقطتُها له في موقف السيارات».

تناول جدّي الهاتف، وأمعن النظر إلى الصورة الفوتوغرافية. حدّق إلى الرجل بتركيز، وبعد قليل رأيت عينَيه تضيقان حتى بات مقطّب الجبين. ثم قرّب الهاتف من عينَيه محاولاً التركيز على شيء ما، وبعد ذلك أبعده عنه مجدداً، وحمله مادّاً ذراعه، ومُميلاً رأسه، وناظراً إلى الصورة شزَراً من فوق أعلى نظارته. غير مكتفٍ، خلع نظارته ثانيةً، وحمل الهاتف بيده اليسرى، وشرع بتعديل موقع تركيز الصورة على الشاشة وتكبيرها بواسطة إبهام يده اليمنى وسبّابتها. لقد تطلّب منه الأمر بعض الوقت لجعل الصورة في الوضع الذي يريده، ولكنه كفّ أخيراً عن تحريك الهاتف، وجلس هناك للحظات محدِّقاً إلى الصورة ومستغرِقاً في التفكير. كبّر الصورة على الشاشة كثيراً لدرجة أنها بدت غير واضحة قليلاً، ولكنني لاحظت أنه أراد الحصول على صورة مكبَّرة لذراع الرجل اليسرى التي تُظهر يده التي وضعها على صندوق سيارة البي أم دبليو أثناء قيامه بإغلاقه.

«هل يمكنك أن تراه؟». سأل جدّي بهدوء، مواصلاً التحديق إلى الصورة.

«ما هو؟».

فمرّر لي الهاتف قائلاً: «انظُر إلى معصمه».

حدّقتُ إلى الشاشة، مركزاً على معصم الرجل الأيسر. كان يضع ساعة غير واضحة، ولكنها بدت لي عاديّة جداً؛ فهي ساعة بسيطة فضيّة اللون مزوَّدة بحزام معدني.

قلت وأنا أهز رأسي: «إنها مجرد ساعة».

عندها، انحنى جدّي إلى الأمام، وأشار بحِرص إلى بُقعة مُظلِمة على قفا معصم الرجل، فوق الساعة تماماً، وسألني:

«هل ترى ذلك؟».

نظرتُ عن كَثب. لم تكن مجرد بُقعة، بل هي وشم.

قرّبتُ الهاتف من عينَيّ. لم يكن الوشم كبيراً جداً، إذ يبلغ امتداده سنتمترَين فقط تقريباً، وتصعب حقاً معرفة ماهيته. لقد بدا أشبه بالحرف O مع قطعة صغيرة مفقودة في الأسفل وقدمَين صغيرَين.

على غرار الحرف: Ω

«حزام ساعته غير مشدود». تمتم جدّي كما لو أنه يكلّم نفسه تقريباً. «لهذا السبب يمكنك رؤيته. لو لم يكن الحزام غير مشدود، لَغُطّي الوشم بالساعة.

ولكن، عندما رفع يده لإغلاق الصندوق...» ورفع جدّي معصمه، مقلّداً وضعية الرجل «... انزلقت الساعة في اتجاه معصمه، كاشفةً عن الوشم تحتها».

«ما هو؟». سألت جدّي محدّقاً إلى الوشم بتركيز. «يبدو لي مألوفاً على نحو مُبهَم، ولكنني لا أعرف السبب».

«إنه حرف يوناني». قال ناظراً إليّ. «أوميغا. إنه الحرف الأخير من الأبجدية اليونانية».

فقطّبتُ جبيني وسألته: «وما الذي يعنيه؟».

«لست واثقاً». قال متنهداً. «قد لا يعني أي شيء. وربما صودف وجوده على معصم هذا الرجل. ولكن، من جهة ثانية...»

«ماذا؟».

«حسناً، إذا كان ذلك يعني ما أعتقد أنه يمكن أن يعنيه، فلست واثقاً من أنني أريد التصديق».

بالرغم من معرفتي القليل عن مهنة جدّي في وحدة الاستخبارات العسكرية، إلا أنه لم يسبق له أن أخبرني بالتحديد عما كان يفعله كضابط استخبارات، وطالما كان متردداً بصفة خاصة في الحديث عن العمل الذي قام به في الجزيرة الشمالية في ثمانينيات القرن الماضي. وقد افترضتُ دائماً أن لهذا الأمر علاقة بتفجير السيارة الذي كاد يقتله، والذي ألقى بظلاله على ذِكرياته المرتبطة بذلك الوقت. ولكن، أثناء جلوسنا معاً في غرفتي في تلك الليلة، وشروع جدّي بإطلاعي على ما يعرفه عن منظمة تدعى أوميغا، أدركتُ أن ما يحاول نسيانه ليس تفجير السيارة فقط.

فقد قال لي: «بين عامَي 1982 و1990، كنت ضابطاً في فرقة استخبارات عسكرية سرّيّة قائمة في بلفاست تدعى أف أر يو؛ أي وحدة البحث العسكرية. وقد تمثلت مهمتنا الرئيسة بتجنيد مُخبرين من القوات شبه العسكرية وتدريبهم كعملاء سرّيّين. ومعظم الأشخاص الذين تعاملنا معهم كانوا إما أعضاء في آي أر أيه- الجيش الجمهوري الإيرلندي- أو مؤيّدين له، ولكننا جنّدنا أيضاً عملاء من بعض المجموعات الماصرة لبقاء إيرلندا ضمن المملكة المتحدة». وصمت جدّي ناظراً إليّ قليلاً ثم تابع: «أنت تملك معلومات كافية عن الاضطرابات في إيرلندا الشمالية لتعرف ما أتحدث عنه، أليس كذلك؟».

فأومأت برأسي بالإيجاب؛ إذ سبق لمدرّس التاريخ أن أخبرنا قليلاً عن النزاع في إيرلندا الشمالية. وبالرغم من عدم فهمي كل شيء عن الموضوع، علمتُ أن الحرب بين المجموعتَين القومية والاتحادية اندلعت بسبب خلاف على وضع إيرلندا الشمالية. فالقوميون- أو الجمهوريون- كاثوليك، والاتحاديون- أو المناصرون- بروتستانت. أراد القوميون إيرلندا موحَّدة وإنهاءً للحكم البريطاني، فيما أراد الاتحاديون بقاء إيرلندا الشمالية جزءاً من المملكة المتحدة. واستخدم كل من الجانبين قوات شبه عسكرية للقتال من أجل قضيّته. كان الجيش الجمهوري الإيرلندي القوةَ الجمهورية الرئيسة. وطوال ثلاثين عاماً تقريباً، شنّ حرب عصابات ضد القوات المناصرة والشعب البريطاني الذي اعتبره عدوّاً له. أزهقت الاضطرابات أرواح آلاف الأشخاص من كلا الجانبَين- من جنود، وقوات شبه عسكرية، وشرطة، ومدنيين- وأُصيب عدة آلاف من الأشخاص الآخرين بجراح وإعاقات.

قال جدّي بهدوء: «كانت حرباً طويلة وقذرة يا ترافيس. وحدث فيها الكثير من الأمور السيّئة حقاً. وهي أمور تحدث في الحروب على الدوام بالطبع. إذ يُقتَل أشخاص أو يُصابون بجراح مروِّعة، ويتغيّر كل شيء. تكشف الحروب على الدوام عن أسوأ ما في الجنس البشري». وتنهّد. «ولكن، بالإضافة إلى الجحيم الذي يعرفه الجميع، هناك نوع آخر من الجحيم الذي تشهده الحروب؛ وهو جحيم مَخفيّ. وهناك قضيتُ معظم وقتي».

وأظلمت عيناه أثناء مواصلته إخباري عن عمله مع وحدة البحث العسكرية، وأدركت أن التحدث عن الأمر يؤلمه.

«كان يتعيّن علينا تجنيد مُخبرين يملكون معلومات من مصدر داخلي. مما يعني العمل مع أشخاص لا يزالون أعضاء ناشطين في مجموعات إرهابية. لذلك، كنا نعلم أنهم متورّطون شخصياً في التخطيط للأعمال الوحشية بأنواعها كافة وتنفيذها، ولكن لم يكن بإمكاننا القيام بأي شيء حيال ذلك في معظم الأحيان؛ كي لا نعرّض مخبرنا للخطر، وكي لا يؤدّي ذلك إلى فقدان المزيد من الأرواح على المدى البعيد. لذلك، توجب علينا أحياناً الموافقة على التعامل مع قَتَلة، ودفْع المزيد من المال لهم لقاء المعلومات، والاعتناء بهم، والمحافظة على سلامتهم». وهز جدّي رأسه. «لم يكن الوضع سهلاً، ولم يكن من الممكن العيش في ظله. وما زاد الأمر سوءاً عدم وجود أي إشراف على ما نفعله. فنحن جنود، ونعمل للجيش، ونقوم بما يُطلَب منا القيام به. ويقوم الجيش بما تطلب منه الحكومة البريطانية القيام به. وكانت الحكومة خاضعة باستمرار لتأثيرات قوى أخرى؛ مثل أم آي 5، وأمن الدولة، ووحدة مكافحة الإرهاب، والشرطة العسكرية المَلَكية. لقد شاركت منظمات عديدة مختلفة في الحرب، وكل منها يملك استراتيجية مختلفة ودوافع مختلفة لدرجة استحالة تنفيذ أي شيء تقريباً في بعض الأحيان». ونظر جدّي إليّ مجدداً، وتابع: «أعرف أن كل ذلك يبدو معقَّداً بعض الشيء ومُربِكاً يا تراف، ولكن الفكرة الرئيسة التي أحاول التعبير عنها هي أن الأمور كانت معقَّدة ومُربِكة إلى حد كبير؛ لدرجة تحرّر الكثيرين منا بالكامل من الآمال الكاذبة. أصبح هناك أشخاص مثلي يكرهون فحسب ما نقوم به، ورفضوا المشاركة فيه، في حين نفّذ آخرون ما يطلب منهم باقتناع تام، ولكنهم سئموا من قيود كل قواعد العمل الاستخباراتي وسياساته، وأرادوا أن يتمتعوا بالحرّية للقيام بعملهم بالشكل الملائم، وعنى ذلك بالنسبة إليهم عدم وجود أي قواعد أو قيود أو مسؤولية». بعد ذلك، نهض جدّي وشرع بذَرع الغرفة بهدوء ذهاباً وإياباً، وتابع: «وقد بلغت مسمعَيّ في بادئ الأمر شائعات عن مجموعة منظَّمة من ضباط استخبارات ناقمين في أواسط ثمانينيات القرن الماضي. لم يكن هناك أي مغزى حقيقي للشائعات، ولا دليل يدعمها، وواصلت الوقائعُ المتعلقة بهذه المنظمة السرّية التبدّلَ باستمرار وفقاً لمن تُصغي إليه. ولكنّ الرواية الأساسية لم تتبدّل؛ فقد اجتمعت مجموعة صغيرة من ضباط الاستخبارات، وشكّلت جهازاً أمنياً غير رسمي. كان بعضهم لا يزالون ناشطين في وحداتهم الرسمية، واستقال آخرون أو تقاعدوا، وكانوا متحدّرين من مختلف أنواع الخلفيات: استخبارات عسكرية، وحدة البحث العسكرية، أم آي 5، أم آي 6، قوات خاصة...» وكفّ جدّي عن الكلام وهو يقف قرب النافذة ويحدّق إلى الظلام في الخارج. «كان هناك قدْر كبير من التخمين حيال هذا الجهاز الأمني المارق- حول المتورطين فيه، وحجم المنظمة، ومصدر تمويلها- ولكنّ أحداً لم يكن يعرف شيئاً في الواقع. وحتى عندما بدأ الناس بدعوة المجموعة أوميغا، لم يكن بالإمكان معرفة ما إذا

كانت تدعو نفسها بهذا الاسم، أو كان الأمر مجرد شائعة أخرى».

«ما الذي كانت هذه المجموعة تقوم به برأي الناس؟».

فاستدار جدّي نحوي وأجاب عن سؤالي: «طالما كان هناك إجماع على أن أوميغا تعمل لصالح البلد. وهي تقوم بالأعمال نفسها التي تقوم بها الأجهزة الأمنية الرسمية- كمكافحة الجاسوسية، ومكافحة الإرهاب، كما تُعنى بقضايا الأمن قومي الداخلي والخارجي- ولكنها تقوم بذلك وفقاً لشروطها».

«ما الذي يعنيه ذلك؟».

فأجاب جدّي: «كانوا يقومون بما يعتقدون أن عليهم القيام به؛ فلا قواعد، ولا قيود، ولا مسؤولية. وهم يقومون بما يتطلبه الأمر لإتمام المهمة، أيّاً تكن المهمة».

«إذاً، أتعتقد أن أوميغا موجودة حقاً؟».

فهز كتفَيه ثم أجاب: «لم أتمكن قط من اتخاذ قرار في هذا الشأن. أعتقد أحياناً أن الأمر برمّته مجرد خُرافة؛ إحدى تلك القصص التي يحب الناس التحدث عنها، ولا سيما أفراد الأجهزة الأمنية. ولكنّ أموراً غريبة حدثت على مَرّ السنين، أموراً لا يمكن شرحها بسهولة ما لم تتقبّل وجود أوميغا، أو على الأقل وجود منظمة مماثلة لها».

ونظرت إلى الصورة الفوتوغرافية على هاتفي المحمول، محدّقاً إلى رمز أوميغا الموشوم على معصم الرجل، ثم سألت جدّي: «هل يميّزون أنفسهم بهذه الطريقة؟ أعني بواسطة الأوشام؟».

«صِدقاً، لا أعرف يا ترافيس. قال لي شخص ما ذات مرة إنه رأى رمز أوميغا موشوماً على معصم رجل عُثر على جثّته في مسرح هجوم على خليّة إرهابية مشتبَه بها في غلاسغو. وعندما صدر التقرير الرسمي عن الهجوم، لم تُذكر هذه الجثة، ولم يتم العثور على دليل قاطع يشير إلى هوية من شنّ الهجوم».

«هل هذا هو نوع الأمور التي تقوم بها أوميغا؟ أعني، هل تشنّ هجوماً على إرهابيين مشتبَه بهم؟».

«حسناً، انطلاقاً مما سمعتُه، لقد شنّت هجوماً عى إرهابيين مؤكَّدين. وأعضاء هذه الجماعة لا يبالون أيضاً بكيفية الحصول على دليلهم».

قلت ببطء، مركّزاً انتباهي مجدداً على الصورة الفوتوغرافية: «إذاً، إذا كانت أوميغا حقيقية... إذا كانت موجودة حقاً، وهذا الرجل جزء منها...» وهززت رأسي، غير قادر على إتمام جملتي. كنت مُرتبكاً جداً لدرجة عدم تمكّني من معرفة ما يجدر بي قوله.

فقال جدّي بشكل فجائيّ: «عليّ إجراء اتصال هاتفي، وأنا بحاجة إلى أرقام التسجيل تلك التي حصلتَ عليها».

«أي أرقام؟».

«كلها».

فعثرتُ على قُصاصة ورق، ونسخت أرقام لوحتَي تسجيل سيارتَي الأودي

المدوّنة على يدي، ومن ثم نظرت إلى الصورة الفوتوغرافية على هاتفي المحمول ودوّنتُ رقم تسجيل البي أم دبليو السوداء، ثم مرّرتُ قطعة الورق إلى جدّي.

فقال ممعناً النظر إلى الرقمَين: «قل لي مجدداً، ما الذي اكتشفته كورتني؟».

«سيارة البي أم دبليو مسجَّلة باسم شركة تدعى سميث إند كو ديجيتال هولدينغز ليميتد. ومقرّ الشركة في داندي- كما هو مُفترَض- ولكنها لم تتمكن من العثور على أي شيء عنها على الإنترنت».

فأومأ جدّي برأسه وقال: «ولم تتمكن من الحصول على أي معلومات عن سيارة الأودي الأولى».

«قال لها مصدر معلوماتها إنه يُمنع ولوج سجل رقم التسجيل، وقالت إنها ستحاول التحقق من رقم تسجيل الأودي الأخرى الليلة».

فقال جدّي: «حسناً، لِنرَ ما الذي يمكنني التوصل إليه».

فسألتُه: «هل تريد استخدام هاتفي المحمول؟».

فهز رأسه رافضاً وقال: «سأستخدم الهاتف العمومي في الناحية المقابلة للشارع».

«الهاتف العمومي؟!».

«التكنولوجيا العصرية جيدة أيضاً يا تراف، ولكن الوسائل القديمة تبقى الفضلى أحياناً».

لم أعرف بمن اتصل جدّي، ولكن المرة الوحيدة التي رأيتُه فيها يستخدم هاتفاً عمومياً من قَبل كانت عندما اتصل بأحد مصادر معلوماته في الاستخبارات العسكرية، ولذلك اعتبرتُ أنه يقوم بأمر مماثل. وافترضتُ- انطلاقاً مما قاله عن أن الوسائل القديمة لا تزال الفضلى- أنه يشعر بأمانٍ أكبر لدى استخدامه هاتفاً عمومياً، أكثر من استخدامه هاتفاً محمولاً أو خطاً أرضيّاً؛ وذلك لأن فُرَص التنصّت على الاتصال الهاتفي أقلّ.

وأثناء جلوسي على السرير منتظراً عودته، خطر ببالي فجأةً أن كل شيء أصبح غريباً. ها أنذا جالس في غرفتي عند الساعة الحادية عشرة من ليلة يوم الجمعة، في حين أن جدّي في الخارج يُجري اتصالات هاتفية سرّيّة من هاتف عمومي، محاولاً معرفة الصِّلة بين قضية أشخاص مفقودين وبين منظمة أمنية خيالية تُعرف بأوميغا، ربما يكون عملاؤها قد تدبّروا حصول أعمال شغب للتغطية على اقتحام مكتب أمي وأبي...

فتساءلتُ في سري: كيف بلغ الأمر هذا الحد؟ وأين سينتهي الأمر؟

كنت لا أزال أجد صعوبة كبيرة في التفكير في ذلك. وقد حاولتُ لفترة وجيزة- مستعيداً في ذِهني كل ما سبق لجدّي أن قاله لي- فهم المعلومات التي لم أفهمها في المرة الأولى، وإيجاد معنى منطقي للمعلومات التي فهمتُها، ولكنني وجدت نفسي أمام كمّ كبير من المعلومات؛ لدرجة عدم تمكّني من التعاطي معها.

نظرت إلى ساعتي. لقد مرّت عشرون دقيقة على مغادرة جدّي، فنهضتُ عن السرير، وتوجهتُ إلى النافذة، وألقيت نظرة على الشارع. كان الهاتف العمومي على بُعد ثلاثين متراً خارج مقهى يدعى عِشْ ودَع الآخر يعيش. رأيت جدّي في مقصورة الهاتف العمومي، ورأيت مجموعة من الشبّان المتسكعين خارج المقهى وهم يصيحون ويضحكون مُحدِثين مِقداراً كبيراً من الضجيج. لقد بدوا مهيَّئين للدخول في متاعب، ولكنني لم أقلق على سلامة جدّي. فربما لم يعد متمتعاً بلياقته البدنية وقوته كما في السابق، ولكنه لا يزال قادراً على الاعتناء بنفسه. جدّي رجل صَلب جداً، وهو غير عدوانيّ أو ما شابه، ولم يسبق لي أن رأيته فاقداً السيطرة على رباطة جأشه، ولكنني رأيته يقاتل مرتَين. فقد ساعد ذات مرة امرأة في الشارع تعرّضت للسرقة، ورأيته في المرة الثانية يتدخل عندما أوقف قتالٌ مباراةً في كرة القدم. إن رؤيتي جدّي وهو يقاتل أمر يبعث الرهبة في النفس. لم أجد الأمر جميلاً- فهو يقاتل بقسوة- ولكنه يُنهي عمله، وهذا كل ما يهمّ أحياناً. وقد قال لي ذات مرة: «إذا وجدتَ نفسك مُلزَماً بقتال أحدهم يا ترافيس، ولا أعني في حَلَبة الملاكمة، بل في قتال موت أو حياة حقيقيّ، فلا يمكنك العبَث. عليك أن تضرب خصمك قبل أن يضربك، عليك ضربه بأقسى درجة ممكنة- ومن الأفضل أن تفعل ذلك بشيء ما غير قبضتَيك- وعليك

ضربه حيثما تُلحق به أكبر ضرر ممكن. هذا كل ما عليك أن تذكره، اتفقنا؟ يجب أن توقعه أرضاً بأقصى سرعة ممكنة، وتَحرص على بقائه أرضاً».

خرج جدي من مقصورة الهاتف العام، ولاحظتُ- وإن من بعيد- أنه مستغرق في التفكير؛ إذ كان يسير بحيوية، ونظراته موجَّهة إلى الأمام مباشَرةً، ووجهه المُسِنّ الأشيب عازم ومتجهّم. وأثناء مروره أمام مجموعة الشبان، أبدى أحدهم- شخص لئيم المظهر يرتدي ملابس تمرين- ملاحظة غبية من نوع ما، ضاحكاً ومُشيراً إلى جدّي. لم ينظر جدّي إليه، حتى إنه لم يُلقِ نظرة سريعة عليه، بل واصل السير كما لو أنه غير موجود.

كنت جالساً على سريري عندما عاد جدّي إلى غرفة النوم. لم يقل لي أي شيء في بادئ الأمر، بل أغلق الباب بهدوء، وقصد النافذة، ووقف هناك مُديراً ظهره لي، محدِّقاً إلى ظلمة الليل. كنت يائساً ومتشوقاً لكي أسأله عن الشخص الذي اتصل به هاتفياً، وعن الأمور التي اكتشفها، ولكنني وجدت أنه لا يزال مستغرقاً في التفكير، ولم أشأ أزعاجه. لذلك، أرغمت نفسي على التزام الهدوء والانتظار. وبعد دقيقة واحدة أو دقيقتَين، رأيته يقوّم ظهره ويأخذ نفساً عميقاً ويزفر ببطء، فأدركتُ أنه بات مستعداً للكلام.

إن الأمر الوحيد الذي أطلعني عليه جدّي في شأن الشخص الذي اتصل به هو معرفته له منذ مدة طويلة، وأنه لا يزال عميلاً ناشطاً في أحد الأجهزة الأمنية الوطنية، وأنه يثق فيه بقَدْر ما يثق في أي شخص يعمل في المجال الأمني.

أقرّ وهو يجلس على الكرسي ذي الذراعَين: «لا يمكنك لَومهم بسبب كذبهم طوال الوقت. أعني أنهم جواسيس، ويُطلقون أكاذيب كي يكسبوا رزقهم. وإذا قضيت كل حياتك وأنت تكذب وتخدع وتحرّف الحقيقة فستعتاد الأمر؛ لدرجة عدم إدراكك أنك تفعل ذلك معظم الوقت». ونظر جدّي إليّ وتابع: «هذا جزء من سبب توقفي عن العمل؛ إذ لم أشأ أن أصبح خالياً من مشاعر العطف على غرارهم». وكفّ عن الكلام للحظات مفكراً في شيء ما، ومن ثم تابع: «بأية حال، أنا على ثقة تامة بأن مصدر معلوماتي لم يُطلعني على كل ما يعرفه، ولكنني واثق أيضاً من أنه لم يكذب عليّ. هكذا تجري الأمور معه. فإذا كان هناك أمر ما لا يريد إطلاعي عليه، أو أمر ما لا يستطيع إطلاعي عليه، فهو لا يكذب في شأنه، بل يمتنع عن قوله فحسب. لذلك، إن ما يُطلعني عليه هو الحقيقة على الدوام؛ تقريباً».

«على الدوام تقريباً؟!».

فابتسم جدّي بأسف وقال: «لا تثق أبداً بعميل سرّي يا تراف».

فقلت مُطلقاً ابتسامة عريضة: «كنتَ أحدَهم. فهل يعني ذلك أنه لا يُفترض بي الوثوق فيك؟».

«لا جدوى من سؤال أحدهم إذا كان بإمكانك أن تثق فيه».

«لماذا؟».

«لأنك إذا كنت تثق فيه في المقام الأول فلا حاجة بك إلى السؤال. وإذا لم تكن تثق فيه في المقام الأول فلن تصدّق ما يقوله. إذاً، في كلتا الحالتين لا جدوى من طرح السؤال، أليس كذلك؟».

«أفترض ذلك...» تمتمتُ وأنا أحكّ رأسي.

راقبني للحظات بهدوء مستمتعاً بارتباكي، ومن ثم نظر إلى الأسفل، وأصبح وجهه جدّياً مرة أخرى.

«هل تذكر قصص الجواسيس تلك التي اعتدتُ قراءتها لك عندما كنتَ صغيراً؟».

«أجل...»

فتنهّد قائلاً: «حسناً، لديّ قصة أخرى لك. ولكنها حقيقية هذه المرة».

في السادس من شهر نيسان/ أبريل عام 2009، وبعد يومَين من ذكرى مولد بشير كمال السادسة عشرة، قُتل شقيقه الأكبر سعيد في عملية تفجير في إسلام أباد، عاصمة باكستان. كان سعيد في إجازة آنذاك- يتمتع بالمناظر، ويزور مسقط رأس والدَيه- وصودِف وجوده في المكان غير المناسب وفي الوقت غير

المناسب. كان في ساحة السوق عند الساعة الثالثة من بعد الظهر. وكان الانتحاري فتى في الثانية عشرة من العمر يرتدي زي المدرسة الموحد. بقي المستهدَف مجهولاً. لقد قُتل اثنا عشر شخصاً في الانفجار، وأُصيب ثمانية وتسعون شخصاً آخرون بجراح خطرة. وأعلن المتمردون الطالبان مسؤوليتهم عن الهجوم، ولكن الهجوم كان يحمل بصمات تنظيم القاعدة؛ وفقاً لمصادر سي آي أيه.

«بالرغم من ذلك، لا أفترض أن الأمر كان ذا أهمية بالنسبة إلى بشير ووالدَيه. فوفاة سعيد هي كل ما اهتموا به. فقد كان ضحية بريئة لوحشية غير مُجدية». قال جدّي بمرارة.

حدّقتُ إلى الأرض واجماً، وحاولت تخيُّل فتى في الثانية عشرة من العمر يعبر ساحة سوق عند الساعة الثالثة من بعد الظهر، ويرتدي حزاماً ناسفاً... فتى في الثانية عشرة من العمر؛ أي أصغر مني سنّاً بعام واحد فقط... عالِماً أنه على وشك أن يلقى حَتفه... عالِماً أنه على وشك القتل والتسبب بإعاقة عشرات الأشخاص. كيف استطاع أن يقوم بذلك؟! ولماذا؟ هل أُرغِم، أو هُدِّد، أو غُسل دماغه؟ ما الذي كان يدور في خلده؟ كيف كان يشعر؟ كيف كان يرى ما يقوم به؟

لم أتمكن من الشروع بتخيُّل الأمر؛ إذ كان أكبر من قدرتي على التحمّل، وغير مفهوم البتة.

تابع جدّي: «لست واثقاً من كيفية قبض أم آي 5 على بشير. ولكن وفقاً لطريقة عملهم، أنا مستعد للمراهنة على أنهم شرعوا بمراقبته بعد فترة قصيرة من مقتل شقيقه».

«لماذا راقبوه؟!».

«حسناً، بادئ ذي بدء، أرادوا التأكد من أن «سعيد» مجرد ضحية بريئة. لقد تحققوا من خلفيّته، وتأكدوا نوعاً ما- على الأرجح- من أن لا علاقة له بعملية التفجير. ولكن بعد كل الأخطاء التي تم ارتكابها في الماضي، تتحقق أم آي 5 بشكل مضاعَف من كل شيء في هذه الأيام لتكون في الجانب الآمن. وعندما يتأكد أعضاؤها من عدم ارتكاب شخص ما أعمالاً مُخلّة بالأمن، يبدأون بالبحث في كيفية استغلاله.

«استغلاله لأجل ماذا؟».

«لقد قُتل شقيقه. لذا، لا بد أنه كان غاضباً، ويسعى إلى الانتقام، ويتآكله الحقد والمرارة. لقد احتقر الأشخاص الذين تسببوا بوفاة شقيقه، لذا سيقوم بأي شيء للثأر منهم. على الأقل، هكذا تنظر أم آي 5 إليه. وحتى لو لم يكن غاضباً ويسعى إلى الانتقام، فلن يحتاجوا إلى وقت طويل كي يجعلوه على هذا النحو. ـم يكن منيعاً، ويسهل إقناع الأشخاص غير المنيعين. فكل ما يتعيّن على أم آي 5 القيام به هو إقناعه بأنه سيثأر من الأشخاص الذين قتلوا شقيقه إذا عمل معهم».

«إذاً، هل كان بشير يعمل لصالح أم آي 5؟».

«لقد جنّدوه كمُخبر، وفي غضون عام تسلّل إلى داخل خليّة إرهابية محلّية، في لندن. ومعظم أفراد هذه الخلية باكستانيون بريطانيّو المَولد في الغالب. كانت أم آي 5 تراقبهم منذ مدة، ولذلك علِم أعضاؤها أنهم يزورون معسكرات تدريب تابعة للقاعدة في العراق واليمن، وعلِموا أنهم يخططون لهجوم في مكان ما من المملكة المتحدة، ولكنهم لم يعرفوا المكان والزمان. لم يتمكن بشير من الانسجام مع الإرهابيين فحسب، بل انتهى به الأمر في الواقع مقيماً في منزلهم في ستراتفورد. وهكذا، اكتشف أنهم يخططون لمهاجمة السفارة الأميركية في لندن. كان المخطط متطوراً جداً كما يبدو، ولو تمكنوا من المُضيّ به قُدُماً... حسناً، الشكر لله على عدم تمكّنهم من ذلك».

«ماذا حدث؟».

«التفاصيل غير دقيقة بعض الشيء، ولكن يبدو أن الأمر كان وشيكاً جداً. ووفقاً للمعلومات، تمكّن بشير من تحذير أم آي 5 في الوقت المناسب كي يحبطوا المخطط. وعندما أغار ضباط مكافحة الإرهاب على المنزل في ستراتفورد، كان المفجرون الانتحاريون يُجرون استعدادتهم النهائية. لحسن الحظ، كانوا هناك جميعاً في ذلك الوقت، وأُلقي القبض على كلٍّ منهم واعتُقلوا، بمن فيهم بشير».

«للحؤول دون الكشف عن هويّته الحقيقية، أليس كذلك؟».

فأومأ جدّي برأسه وقال: «لقد قام بعمل ممتاز، وأملت أم آي 5 أن تتمكن من استخدامه مجدداً. وكما يبدو، كان بشير سعيداً تماماً بمواصلة العمل لصالحهم. ولكنه لم يحظَ بالفرصة للقيام بذلك قط».

«لماذا؟».

فتنهّد جدّي وقال: «حسناً، هنا تعقّدت الأمور قليلاً. فكما يبدو، عندما كتشفت أم آي 5 أن الإرهابيين كانوا سيستهدفون السفارة الأميركية، قررت عدم مشاطرة هذه المعلومات مع نظرائها الأميركيين؛ أي سي آي أيه. لست واثقاً من سبب رغبتهم في إخفاء هذا الأمر، ولكن لا يمكنني القول إنني تفاجأت. إذ تشتهر الأجهزة الأمنية في مختلف أنحاء العالم بإبقاء الأمور لنفسها. ولكن، بالطبع، اكتشفت سي آي أيه أخيراً الهجوم الذي كان مخطَّطاً له، وشرعت على الفور بالضغط على الحكومة البريطانية لتسليمها كل التفاصيل التي تتناول المخططَ التفجيري المُحبَط والإرهابيين المعتقَلين؛ لأن السفارة الأميركية هي المستهدَفة. وبما أن الإرهابيين خططوا لمهاجمة السفارة الأميركية ومدنيين أميركيين، كان يجب تقديمهم للمحاكمة في الولايات المتحدة الأميركية- برأي سي آي أيه- وإصدار أحكام بحقهم».

فقلت: «مما يعني رفع الغطاء عن بشير».

«بالتحديد، ولم تشأ أم آي 5 حدوث ذلك. إذ لم تشأ قيام الولايات المتحدة الأميركية بإحداث جَلَبة كبيرة أيضاً؛ لأن من شأن ذلك كشف كل الأوراق، وهو أمر أرادت تجنّبه. ولكن، بسبب حاجة المملكة المتحدة إلى كل المساعدة التي

يمكنها الحصول عليها من الولايات المتحدة، إن رفضاً مُطلَقاً لتسليم الولايات المتحدة ما تريده لن يكون جيداً للعلاقات الدولية. لذلك، في النهاية، قامت أم آي 5 بما تقوم به على الدوام. فلم توافق على أي شيء أو ترفضه، بل تركت الأمر لمحاميها، وأملت في إرجاء الأمور لأطول مدة ممكنة».

«هل كانت سي آي أيه تعلم بشأن بشير؟ أعني، هل أخبرتها أم آي 5 بأن أحد الإرهابيين المعتقَلين مُخبِر في الواقع».

«لا أعرف». قال جدّي مفكراً بعمق. «ولكن، إذا طلبتَ مني أن أتوقع فسأقول لا. فمن وجهة نظرهم، كلما قلّ عدد الأشخاص الذين يعلمون بأمر بشير، كان ذلك أفضل».

«إذاً، إذا اكتشفت سي آي أيه أمره، فقد يُعتقد في الواقع أنه إرهابي؟».

«هذا أمر محتمَل تماماً». ونظر جدّي إليّ وتابع: «هل تستطيع فهم كل هذه الأمور حتى الآن يا تراف؟ أعني، أعرف أنها مُربِكة قليلاً...»

فأومأت برأسي. وبالرغم من عدم فهمي كل ما قاله لي، إلا أنني بدأت برؤية ما ستؤول إليه القصة. حاول بشير القيام بالأمر الصائب... لقد قام بالأمر الصائب. ولكنه أصبح بَيدقاً في لعبة شطرنج مشؤومة.

وتذكرتُ ما سبق لجدّي أن قاله لي عن المنافسات بين مختلف وكالات الاستخبارات. هناك منظمات عديدة مختلفة، وكل منها تملك استراتيجية مختلفة ودوافع مختلفة؛ لدرجة استحالة تنفيذ أي شيء تقريباً في بعض الأحيان... كانت الأمور معقَّدة ومُربِكة إلى حد كبير، لدرجة تحرّر الكثيرين منا بعد فترة من الآمال الكاذبة بالكامل. وهنا ظهر الدور الذي تلعبه أوميغا، إذ تألّفت من مجموعة من ضباط الاستخبارات الذين وثقوا حقاً بما يفعلونه، ولكنهم سئموا من قيود كل قواعد العمل الاستخباراتي وسياساته.

فكرت في ذلك لبعض الوقت، ومن ثم نظرت إلى جدّي وسألته: «ماذا حدث لبشير؟ أعني، ما الذي فعلته به أم آي 5؟».

فأجاب: «حسناً، هذا هو لبّ الموضوع. ففي هذه المرحلة، سار كل شيء بشكل خاطئ».

كان الوقت قد تأخر، وحلّ منتصف الليل تقريباً، ووجدتُ أن جدّي بدأ يتعب؛ إذ كان الأمر مرهقاً جسدياً ومعنوياً. ولكن، بالرغم من شعوري بأنني مستنزَف القوة ومُرهَق، كان هناك جزء مني يشعر بالإثارة على نحو غريب. إنه شعور قديم، وهو ليس غير سارٍّ بحد ذاته، ولكن لم يبدُ لي أن الشعور بالإثارة حيال أيٍّ من هذه الأمور أمراً صائباً بطريقة ما. فقد مات أبي وأمي، وهناك إمكانية واضحة بأن تكون كل هذه الأمور المتعلقة ببشير والجواسيس والإرهابيين مرتبطة بطريقة ما بما حلّ بهما. ولا شيء مثير البتة قي كل ذلك، ليس بعد مليون عام. لقد تمزّق قلبي بسبب فقداني أمي وأبي. كيف أجرؤ على الشعور بأي شيء عدا الفراغ واليأس؟ كيف يمكنني ذلك؟ لا، بل كيف يمكنني التفكير في أي شيء آخر؟

لقد واجهتُ صعوبة في إيجاد حل للأمر.

الأمر قاس جداً بالنسبة إليّ.

مسحتُ عينَيّ وحوّلت انتباهي إلى جدّي، فسألني:

«هل أنت بخير؟».

فأومأت برأسي وذكّرته: «كنتَ تخبرني عن بشير».

«صحيح...» قال بتردد، وارتسمت على وجهه نظرة قلِقة.

«ما الذي حلّ به بعد الاعتقالات في لندن؟».

فتنحنح جدّي، ثم أجاب: «حسناً، كان يُفترض بـ أم آي 5، وبالعميل الذي جنّده في المقام الأول، الاعتناء به. كان يُفترض بالعميل الحِرص على سلامة بشير، وإبقاء أمر تعاونه طيّ الكتمان حتى انتهاء كل الجدال مع سي آي أيه والحكومة الأميركية. ولكن ذلك لم يحدث».

«لماذا؟».

فقطّب جدّي جبينه، وأجاب: «لأن العميل- صدِّق ذلك أو لا- طُرد من أم آي 5 بعد نشر صحيفة يوم أحد خبراً عن تورّط زوجته في فضيحة سياسية غبيّة. إذ يبدو أنها تلقّت مبلغاً كبيراً من المال لقاء بعض الصور الفوتوغرافية التي تُثبت ارتكاب شخصية بالغة الأهمية جُرماً. في الواقع، من غير الواضح ما إذا كان زوجها متورطاً بالفضيحة، أو ما إذا كان قد تعرّض للخداع من قِبَل زوجته وزوّدها بمعلومات حساسة. وفي كلتا الحالَتين، كان الأمر مُحرِجاً جداً بالنسبة إلى أم آي 5 والحكومة».

«أطردتْه أم آي 5 لأنه سبّب لها الإحراج!؟».

«لم يُطرَد من وظيفته فحسب، بل تم إغلاق كل القضايا التي كان يعمل عليها أيضاً، وإنهاء عقود عملائه السرّيّين. لقد غسلوا أيديهم منه».

«إذاً، أين ترك ذلك الأمر «بشير»؟».

«مُنِح ضمانات بعدم كشف عمله السرّي أو اسمه لأحد على الإطلاق، ولكن

عدا عن ذلك... حسناً، تُرك بمفرده».
«هل سمحوا له بالمغادرة فحسب؟».
«هذا ما حدث، كما يبدو».
«ألهذا السبب غادر لندن وانتقل إلى بارتون؟».
«ربما. وفقاً لاستنتاجي، يبدو الأمر كما لو أن أم آي 5 وفَت بوعدها؛ لأن «بشير» كان بأفضل حال بعد عامَين. لقد عاد مع والدَيه، وركز على الملاكمة، وتابع حياته. لم يُزعجه أحد، ولم يبحث عنه أحد، ولم يعرف أحد- كما يبدو- من كان وماذا فعل. ولكن، بعد ذلك...» وهزّ جدّي رأسه. «لا أعرف ماذا حدث. ربما زلّ لسان أحد أعضاء أم آي 5 وذكر اسم بشير خطأً، أو أن تسرّباً للمعلومات حدث في مكان ما. ولكن سي آي أيه اكتشفت بطريقة ما تورّطه مع المخططين لتفجير السفارة. وعندما حصلت على اسمه، لم يكن من الصعب العثور عليه».
«لكنه لم يكن متورطاً في الواقع مع المخططين، أليس كذلك؟ أعني أن إقامته معهم في المنزل نفسه لا تجعله إرهابياً».
«لم تنظر سي آي أيه إلى الأمر من هذا المنظور. فعندما تتعامل مع إرهابيين محتمَلين، ستعتبر مُذنباً حتى تَثبت براءتك. وكان بشير يعرف المُخطِّطين ويعيش معهم... وهذا أكثر من كافٍ كي تفترض سي آي أيه أنه واحد منهم».
«هل تعتقد أنهم أمسكوا به؟».
«إنه أمر ممكن، كما أفترض. كل شيء ممكن. أعني أنه ربما يكون مختبئاً». وكفّ جدّي عن الكلام للحظات مفكراً. «ولكن، إذا أمسكت سي آي أيه به، فلا أفهم سبب مواصلة عملاء أم آي 5 البحث عنه في الأرجاء. لو أمسكت سي آي أيه ببشير لَما بقي في بارتون، بل لأُلقي به في زنزانة في مكان ما من الولايات المتحدة الأميركية، أو ربما حصل ما هو أسوأ من ذلك».
«إذا، كانت إيفي جونسون مُحِقة في شأن رؤيتها «بشير» في سيارة الأودي. أم آي 5 تقود سيارات أودي، ممّا يعني أن «بشير» كان يلتقي عملاء أم آي 5 قبل اختفائه».
«يعني ذلك أيضاً أن أم آي 5 مهتمة بك».
«أو بكورتني، فقد تبعوا سيارتها».
«ربما كانوا يراقبونكما». وكفّ جدّي عن الكلام مفكراً. «برأيي، حدث ذلك لأنك تبحث في أمر التحقيق الذي أجراه أبوك وأمك عن بشير».
سألت: «لماذا تهتم أم آي 5 فجأةً ببشير مجدداً؟ أعني أنها لم ترغب في معرفته طوال عامَين، أليس كذلك؟ ما الذي بدّل رأيها؟».
فهزّ جدّي رأسه وأجاب: «إنه أحد الأمور التي لم يُطلعني عليها مصدر معلوماتي. ربما يكونون راغبين في عدم تمكين سي آي أيه من اعتراض طريقهم. أو أن أحد عملاء أم آي 5 أدرك أن السماح لبشير بالمغادرة خطأ فادح. أو أنهم بحاجة إليه مجدداً في عملية سرّية أخرى». وهزّ كتفَيه، ثم تابع: «لا أعرف حقاً يا تراف. ولكن، إذا كان عملاء أم آي 5 لا يزالون في بارتون- وهم كذلك كما

يبدو- ولا يزالون مهتمّين بأي شخص أو أي شيء على علاقة ببشير، فمن الواضح أنهم لا يعرفون مكانه».

«ماذا عن سي آي أيه؟ هل تعتقد أنهم لا يزالون هنا أيضاً؟».

نظر إليّ جدّي للحظات، ومن ثم نهض وتوجّه إلى النافذة، وحدّق إلى الخارج بشكل عرضي، ومن ثم قال لي من دون الالتفات إليّ: «تعالَ إلى هنا».

ذهبتُ ووقفتُ بجانبه، فقال لي:

«لا تَدَعْهم يلاحظون انتباهك إلى وجودهم. ولكن، إذا نظرتَ إلى الشارع فسترى عربة نقل بيضاء مُقفَلة مركونة وراء سيارة مونديو حمراء».

ومن دون أن أدير رأسي، ألقيت نظرة سريعة على الشارع، ثم قلت: «أتعني عربة النقل التي تحمل كتابة على جانبها؟ تلك التي تحمل كلمات جيه بلوك إند سانز بلامبينغ سوليوشنز؟».

فأومأ جدّي برأسه وقال: «إنها هناك منذ يومَين. حتى إنني لم أحظَ بفرصة إلقاء نظرة عليها عن كَثب، ولكنني واثق نوعاً ما بأنها ليست عربة نقل تخص سمكرياً».

«ما الذي يحملك على الاعتقاد بأنها ليست عربة نقل تخص سمكرياً؟».

«حسناً. أولاً، كما قلتُ، إنها موجودة هناك منذ يومَين؛ ليلاً ونهاراً، وأعرف أنها لا تخصّ أي شخص مُقيم في هذا الأنحاء. كما أن السَّمكري لا يعمل على مدار الساعة؛ وإن في الحالات الطارئة. ثانياً، إذا راقبتَ العربة لمدة طويلة وكافية، فسترى أنها تتحرك ببطء شديد من حين إلى آخر؛ ولا تتحرك عربات النقل المقفَلة والمركونة ما لم يكن هناك شخص في داخلها. وثالثاً...» وابتسم لي جدّي. «طلبت من مصدر معلوماتي التحقق من رقم تسجيل العربة. لم يقل في الواقع إنها عربة تابعة للسي آي أيه، ولكنه لم ينفِ ذلك أيضاً».

ألقيت نظرة سريعة أخرى على العربة، ثم سألته: «أتعتقد حقاً أنهم عملاء سي آي أيه؟».

فوضع جدّي يده حول كتفي، واقتادني بعيداً عن النافذة وقال: «إنه فريق مراقبة فحسب. لا شيء يدعو للقلق. سيراقبوننا فحسب. ومن غير المفاجئ أن يضعونا تحت المراقبة منذ بدء أمك وأبيك بالبحث عن بشير».

«هل تعتقد أن أمي وأبي كانا على عِلم بأيٍّ من هذه الأمور؟».

«صِدقاً، لا أعرف يا ترافيس. فهما لم يناقشا قضاياهما معي- فقد اتفقنا على ذلك- ولكنني أعتقد أنهما كانا سيقولان لي شيئاً لو كانا يعرفان أن سي آي أيه وأم آي 5 متورّطان. لذلك، أعتقد أنهما لم يكونا يعرفان».

وجلست على السرير. «ألا تعتقد...؟».

«ماذا؟».

«حسناً، كما تعلم، الحادث...» ونظرت إليه. «أعني، كان حادثاً، أليس كذلك؟».

فوضع جدّي يده على كتفي وقال بهدوء: «لا شيء يدلّ على أنه لم يكن حادثاً يا ترافيس. فقد قرأتُ تقرير الشرطة الرسمي، وتحدّثتُ إلى المحققين في

الحادث. لا دليل البتة يوحي بتورّط أي شخص آخر في حادث تحطم السيارة». وجثم أمامي ونظر مباشرة إلى عينَيّ، ثم تابع: «وحتى لو كانت سي آي أيه وأم آي 5 تتبعان أمك وأباك، فلم يكن لديهما أي سبب لإيذائهما. ربما كان والداك هما السبيل الوحيد للوصول إلى بشير كمال. لذلك، كانتا تريدان توفير أكبر قدْر من الأمان لهما».

«ولكنّ سي آي أيه، وأم آي 5 ليستا الوحيدتين المنخرطتين في كل ذلك، أليس كذلك؟ فهناك أوميغا أيضاً. وقد قلتَ بنفسك إن أعضاءها سيقومون بكل ما يلزم لإتمام المهمة؛ أيّاً يكن ما يقومون به».

«حسناً، أجل، ولكن...»

«لا قواعد، ولا قيود، ولا مسؤولية؛ هذا ما قلتَه يا جدّي».

«أعلم». وتنهّد. «ولكننا لا نعرف في الوقت الحاضر دور أوميغا في كل ذلك. حتى إننا لا نعرف على وجه التأكيد إذا كان الرجال الذين يظهرون في الصورة الفوتوغرافية منتمين إلى أوميغا. لذلك، لا جدوى من القفز إلى استنتاجات حيال أي شيء. علينا أن نلتزم بالهدوء فقط و...»

«هل سألتَ مصدر معلوماتك عن أوميغا؟».

فأومأ برأسه وقال: «لا أحد يعرف أي شيء عنها. وإذا كانوا يعرفون، فهم لن يُفصحوا عما يعرفونه».

«ماذا عن الشركة في داندي التي تملك سيارة البي أم دبليو؟ ألا يمكن تتبّع آثار أوميغا من خلالها؟».

«العنوان في داندي مجرد عنوان بريديّ، ولا وجود لمكتب فعليّ أو أي شيء آخر هناك. فسميث إند كو ديجيتال هولدينغز ليميتد شركة قانونية، ولكنها شركة تابعة لشركة مقرّها دابلين، وتملك تلك الشركةَ مؤسسةٌ جنوب أفريقية، وهي بدَورها شركة تابعة لشركة أخرى... إنها سلسلة غير متناهية يا ترافيس، ولن تؤدّي إلى أي شيء. حتى إننا لا نعرف إن كانت لسيارة بي أم دبليو علاقة بـأوميغا بأية حال».

«ولكننا نعرف أن للرجال في الصورتين علاقة بما يحدث، أليس كذلك؟ أعني، كان أحدهم في الجنازة، ودخل أحدهم المكتب، وأعدّ الآخر لأعمال الشغب...»

«حسناً يا تراف». قال جدّي بلطف محاولاً تهدئتي.

«ما كان أبي ليلتقط صورة لهم لو لم تكن لهم أي علاقة ببشير...»

«أعرف يا ترافيس، اتفقنا؟». ووضع يده على كتفي مجدداً وتابع: «أعرف، وسأبذل قُصارى جهدي لبلوغ قَعر هذه المسألة، اتفقنا؟».

فزفرتُ مُدركاً فجأةً أنني كنت أثرثر كالمجنون في الدقيقة الأخيرة.

عندها، قال جدّي بلطف: «أنت مُتعَب. يكاد الليل ينتصف، وقد مررتَ بيوم طويل، وأنت بحاجة إلى الحصول على بعض النوم».

«ولكن، ماذا عن...»

غير أنه قاطعني قائلاً وهو ينظر إلى عينيّ مجدداً: «اسمع يا ترافيس، لا

يمكننا القيام بأي شيء في الوقت الحاضر، اتفقنا؟ نحن بأمان تام الآن. ولن يقوم الأشخاص الجالسون في عربة النقل المُقفَلة في الخارج بأي شيء، بل سيجلسون هناك فحسب طوال الليل مهتاجين بسبب سأمهم. في الواقع، إذا فكرتَ في الأمر، نحن بأمان الآن أكثر مما نكون عادة». وأطلق ابتسامة عريضة، ثم تابع: «أعني، إن هناك عربة نقل مليئة بعملاء سي آي أيه تراقب منزلنا. ليس نظاماً أمنياً سيّئاً، أليس كذلك؟ لذلك، إنسَ أمرهم، اتفقنا؟ انسَ أمر كل شيء في الوقت الحاضر. وفي صباح الغد، سأجري بعض الاتصالات الهاتفية، وسأحاول الحصول على معلومات إضافية، وعندما أنتهي سأذهب وألقي نظرة على أرجاء المكتب تحسُّباً لإغفالك أمراً ما عندما كنتَ هناك».

فقلت له: «سأرافقك. قلتُ لكورتني إنني سألتقيها هناك عند الساعة التاسعة».

غير أنه هزّ رأسه وقال: «عليك البقاء هنا غداً».

«لماذا؟».

«لأنني لا أعرف ما إذا كان أحدنا في خطر في الوقت الحاضر. وإلى أن أعرف كل ما يجري، لن أجازف أبداً».

«من غير الإنصاف...»

فقال بحَزم: «لا علاقة للإنصاف بالأمر. عليك أن تفهم ذلك، اتفقنا؟ أعرف أن الأمر صعب، ولكن عليك ترك كل شيء لي في الوقت الحاضر فقط. هل تعتقد أن بإمكانك القيام بذلك؟».

كان جزء مني يريد الجدالَ معه وتذكيرَه بأنه ما كان لِيعرف أن هناك خَطْباً ما لولاي. أعني أنني أبليت حسناً حتى الآن، أليس كذلك؟ فلماذا يُفترض بي ملازمة المنزل وترك كل شيء له؟ الأمر غير مُنصِف.

ولكنْ أثناء نظري إلى عينَي جدّي، لاحظت شدة قلقه. وبالرغم من محاولته إخفاءه، تمكنت من رؤية مدى تأثّره الكبير بفقدان والدَيّ. وعلمتُ في قلبي أنه من غير المناسب القيام بأي شيء قد يزيد شعوره سوءاً. لذلك، ابتلعتُ أنانيتي على مضَض، وقلت له ما يريد سماعه.

قلت بهدوء: «أجل، يمكنني القيام بذلك».

فقال مبتسماً بحزن: «حسناً، أَعِدك بأنني لن أخذلك، اتفقنا؟».

أومأت برأسي مواصلاً النظر إليه. كنت أعرف أنه اكتفى من الكلام- إذ كان بإمكاني رؤية الإرهاق البادي في عينَيه- ولكنني أردت سؤاله عن أمر آخر، وأردت القيام بذلك في الحال مهما كان مُرهَقاً.

فسألته بتردد: «ما الذي سيحلّ بـديلاني وشركاؤه الآن يا جدّي؟».

فتجهّم وجهه، وبدا مرتبكاً بشكل مؤقت، وقال: «حسناً... لا أعرف. في الواقع، لم أفكر في الأمر، صِدقاً. لماذا تسأل؟».

فهززت كتفَيَّ وقلت: «لا سبب لذلك... حسناً... تحدّثتُ إلى كورتني عن الأمر في وقت سابق، وقالت إنه يسعدها العمل معك إذا أردتَ الإبقاء على الوكالة».

«أيعقل أن تستمرّ!؟». قال متفاجئاً.

«باستطاعتي مساعدتك أيضاً. أعني، أعلم أنني سأكون في المدرسة خلال أيام الأسبوع، ولكن سيتبقى لديّ الكثير من الوقت...»

فقال: «لقد تقاعدتُ منذ عشر سنوات يا ترافيس. وأنت تعرف ذلك».

«أجل، ولكن...»

غير أنه تابع: «لقد تقدّمت بي السنّ كثيراً على ذلك. فقد تقدّمت بالسنّ كثيراً، وأصبحت عديم الجدوى إلى حد كبير. أعني أن الشظايا في ساقَيَّ تؤلمني جداً أحياناً، لدرجة تمكّني بالكاد من نزول السلّم. وتعرف كيف يصبح مِزاجي عندما يُحزنني أمر ما...» ونظر إلى الأسفل، «حتى إنني لم أستطع التحدث إليك عندما كنتَ بأمسّ الحاجة إليّ، أليس كذلك؟ ما الفائدة المرجوّة مني كمحقق خاص في هذه الأيام؟!».

فذكّرتُه: «لقد أبليتَ بلاءً حسناً في هذه الليلة».

فهزّ كتفَيه وقال: «كل ما فعلتُه هو إجراء اتصال هاتفي».

«أجل، ولكنك عرفتَ بمن تتصل، أليس كذلك؟ كما عرفتَ كيفية التصرّف بالمعلومات التي زوّدك بها. ولاحظت عربة النقل التابعة لـسي آي أيه...»

«بإمكان أي كان القيام بذلك».

«لا، ليس بإمكان الجميع القيام بذلك». ونظرت إليه. «أنت لا تزال تملك المواصفات الملائمة يا جدّي. باستطاعتك الإبقاء على ديلاني وشركاؤه، أعرف أن باستطاعتك القيام بذلك».

فهزّ رأسه وقال: «إنها فكرة جيدة يا تراف، ولكنني لا أعتقد حقاً أنني مستعدّ لذلك».

«لستَ مضطراً إلى اتخاذ قرار في الحال. لماذا لا تفكر في الأمر لبعض الوقت؟».

فتنهّد.

«رجاءً».

فنظر إليّ مستسلماً ثم قال: «حسناً، اتفقنا... سأفكر في الأمر».

«شكراً يا جدّي».

«ولكنني لن أبدّل رأيي».

فقلت له مبتسماً: «سوف نرى».

ابتسم لي بالمِثل، ولكن بسمته بدت مُرهَقة. وأثناء تمنّيه لي ليلة هانئة وتوجّهه إلى الخارج، تولّد لديّ شعور بأن كل أنواع الأفكار المتعارضة تتنازعه.

لم أنَمْ جيداً في تلك الليلة. فقد كان هناك الكثير من الأمور في رأسي؛ وقائع ونظريات وأُحجيات واحتمالات عديدة، لدرجة عدم تمكّني من نسيان كل شيء بالرغم من رغبتي الشديدة في ذلك. وكل ما تمكنت من القيام به هو الاستلقاء هناك في الظلام، محاولاً وضع الأمور التي تشوّش ذهني في قالب منطقي. أين بشير؟ هل أمسكت سي آي أيه به؟ هل تعرف أم آي 5 مكانه؟ ولماذا يهتمّون بي وبكورتني إذا كانوا يعرفون مكانه؟ وماذا عن أوميغا؟ هل هم موجودون حقاً؟ وإذا كان الأمر كذلك، فأي جانب يتخذون؟ هل هم الأخيار أم الأشرار؟ هل تبحث أوميغا عن بشير أيضاً؟ ألهذا السبب جاءوا إلى المكتب وأثاروا أعمال الشغب في نورث واك؟ وما الذي كان والداي يعرفانه عن بشير برأيهم؟ ما الذي كان والداي يعرفانه عن بشير؟ ماذا تعني كلمة dem وعبارة اليوم الأخير في الرابع من الشهر؟ ولماذا تتعقّب أوميغا بشير بأية حال؟ ماذا يريدون منه؟

واصلتُ طرح الأسئلة الأساسية نفسها على نفسي مراراً وتكراراً- لماذا؟ من؟ ماذا؟ أين؟ سي آي أيه؟ أم آي 5؟ أوميغا؟- وواصلتُ تلقّي الإجابات الفارغة نفسها: لا أعرف. لا معنى لذلك. لا فكرة لديّ عما يعنيه أيّ من هذه الأمور.

أخيراً، في الساعات المبكّرة من الصباح، وفيما كان عقلي على وشك التوقف عن العمل، تبادر إلى ذِهني فجأةً أنني أضيّع وقتي منذ البداية؛ فقد أظهرتِ الحقيقة البسيطة أنني لم أكن بحاجة إلى الإجابة عن كل الأسئلة، بل كنت بحاجة إلى الإجابة عن سؤال واحد فقط. أين بشير؟ إذا كان بإمكاني معرفة ذلك، إذا كان بإمكاني العثور عليه، فستصبح لديّ كل الإجابات التي أحتاج إليها. من الواضح أنني شعرت بالغباء بسبب عدم تفكيري في الأمر من قَبل.

وتمثّلت المشكلة في عدم امتلاكي أية إلماعة إلى المكان الذي يجدر بي البدء بالبحث فيه عنه.

أو ربما هذا ما بدا لي.

لست واثقاً من الوقت الذي انجرفت فيه أخيراً إلى نوم متقلِّب. وأذكر ملاحظتي النور الضعيف للفجر وهو يبدأ بالظهور عبر النافذة المزوَّدة بستارة، ولذلك افترضتُ أن الساعة تناهز الرابعة والنصف صباحاً. وأنا واثق من أن الأمر الأخير الذي كنت أفكر فيه قبل أن أستغرق في النوم هو الصورة الفوتوغرافية لرجال أوميغا خارج المستودع. لقد تمكنتُ من رؤية الصورة بوضوح تام في عقلي. الرجال مرتدون بذلات، وسيارة بي أم دبليو وعربة النقل المُقفَلة السوداء من طراز مرسيدس مركونتان وراءهم، وكذلك سياج الأسلاك الشبكية، والمستودع. فالمستودع هو ما كنت أركّز عليه: جدران الآجرّ الرمادية، وستائر النوافذ، والأبواب متينة المظهر. وتساءلتُ: أين يمكن أن يكون موقعه؟ هل هو في بارتون؟ كم عدد المباني المماثلة لذلك المبنى في بارتون؟ لو كان باستطاعتي إيجاد مكانه ومعرفة ما يفعله رجال أوميغا هناك...

بدأت أستغرق في النوم تقريباً، وراحت الصورة في ذِهني تخبو شيئاً فشيئاً. لم يَعُد رجال البذلات هناك، والمستودع مجرد ذِكرى، وكل ما تبقى من الصورة الفوتوغرافية هو الوقتُ والتاريخُ المطبوعان في أسفل الزاوية اليمنى:

16:08، 15/ 07/ 13

الرابعة وثماني دقائق، 15 تموز/ يوليو

اليوم السابق لوفاة أمي وأبي.

في الواقع، لم أصدّق يوماً أن الأحلام تعني شيئاً. فأنا أعتقد أنها مُنتجات ثانوية فحسب لعملية ترتيب في عقل المرء. إذ ينام المرء فينتقل عقله إلى صيغة الاحتياط، ومن ثم تبدأ آلية الترتيب بالعمل، وتشرع بفرز الأمور في ذِهنك؛ مُزيلةً الهُراء غير الضروري، وفارزةً الأفكار، ومُعيدةً الأشياء إلى حيث تنتمي. إنها عملية أوتوماتيكية، ولذلك لا يكون المرء مُدركاً هذا الأمر في معظم الأوقات، ولكن عقله النائم يلتقط أحياناً لَمْحات موجَزة عما يجري، ويستطيع رؤية بعض الهُراء الذي تمّ التخلص منه، حتى إن بإمكانه مثلاً تمييز بعض الأمور الصغيرة. ولكن حواسّ النوم تكون مشوَّشة في العادة؛ لدرجة أن معظمها لا يبدو منطقياً.

لكن عملية الترتيب تساعدك أحياناً على رؤية بعض الأمور بوضوح أكبر. وبإزالة كل التشوّش من عقل المرء، يسمح له ذلك برؤية الأمور المخبَّأة تحت كل الهُراء. الأمر أشبه قليلاً بترتيب المرء غرفة النوم، وعثوره أخيراً على ذلك الكتاب أو «الدي في دي» الذي كان يبحث عنه طوال اليوم. فهو يعرف أنه موجود هناك في مكان ما، ولكن غرفة النوم تكون في فوضى كبيرة- فهناك أكداس من الأغراض في أنحاء المكان- لدرجة عدم تمكّنه من العثور عليه.

ربما أكون مخطئاً تماماً في شأن كل ذلك بالطبع. أعني، ما الذي أعرفه عن الدماغ البشري؟ ولكن، في تلك الليلة، وأثناء تدافع أحلامي في رأسي، أعرف أنني وجدت شيئاً ما.

بدأ الحُلم على ممر المشاة. كنت أركض. كنت أحلُم بأنني أركض... أركض بأقصى سرعة ممكنة... وأحدهم يطاردني... لا أعرف من يكون... وكنت خائفاً، ويائساً للفرار منه... قدماي ترتطمان بالأرض بقوة، وذراعاي تتحركان صعوداً ونزولاً، ولكنني لا أتحرك من مكاني... فممر المشاة في الحُلم يتحرك تحت قدمَيّ كسلّم متحرك يتحرك في الاتجاه المعاكس... وكلما أسرعتُ في الركض، تحركتُ بسرعة أكبر... لم يكن بإمكاني الفرار إلى أي مكان... نظرت من فوق كتفي لأعرف من يطاردني، فرأيت إيفي جونسون... كانت تلبس قفّازَي الملاكمة في يدَيها وترتدي بِذلة سوداء... فابتسمت لها... وبادلتني الابتسامة بمِثلها... ومن ثم تحوّلت فجأةً إلى رجل الجنازة، الرجل المزوَّد بكاميرا مخبَّأة، رجل العينَين الرماديّتَين فولاذيّتَي اللون... رجل أوميغا... ولم أعُد على ممر المشاة، بل أصبحت في الجنازة... والمقبرة ساكنة وهادئة... كان مطر صيفيّ خفيف قد بدأ بالتساقط، وشرع الناس بالمغادرة، مُجرجرين خُطاهم ومبتعدين عن المدافن، وشاقّين طريقهم في اتجاه سياراتهم... وضع جدّي يده على كتفي... فنظرت

إليه... كان يحدّق إلى الأمام، ورأسه مرفوع، ووجهه المُسنّ المدبَّب مُثقَل بالحزن... ومن ثم تبدّل... وأصبح وجهه أصغر سنّاً... وابتسم لي...

فقلت له: «هِيه، يا أبي».

... لم أكن أَستطيع التفكير... كان عقلي فارغاً... نظرت إلى الرجل المزوَّد بكاميرا مخبَّأة، ولكنه لم يَعُد ذاك الرجل... بل كان أبي...

«هل تريد قول أي شيء يا ترافيس؟». سألني برفق.

... ألقيت نظرة سريعة حَولي، محاولاً معرفة ما يجري... نظرت إلى القبرين، والنعشين الموضوعين على الأرض... كانت أمي تجلس على أحدهما... وهي تبتسم لي... وكانت هناك عدة أمور أريد قولها لها، ولكنني لم أجد الكلمات المناسبة... فرحت أحدّق إليها... وهي تنظر إلى أبي.

فقالت عابسة: «لن أضع ذلك الشيء في سيارتي».

... التفتُّ إلى الوراء في اتجاه أبي، فرأيته يخرج من سيارته متجهاً نحو أمي، وبين يدَيه جهاز الملاحة عبر الأقمار الاصطناعية...

وقال لأمي: «سنقود إلى وسط لندن، وأنت تعرفين كيف تكون الطرقات...»

فقالت أمي: «لا أُبالي. أفضّل أن أضيع على استخدام أحد تلك الأجهزة».

«ولكن، سبق لي أن أدخلت العنوان. كل ما علينا القيام به عندما نصل إلى لندن هو تشغيله...»

«لا».

... فنظر إليها أبي، وكان على وشك قول أمر آخر، ولكنه عندما رأى تعابير وجهها بدّل رأيه. فتنهّد، واستدار، وأعاد جهاز الملاحة إلى المرأب، ووضعه داخل صندوق كرتونيّ مليء بأشياء صغيرة مختلفة وموجودٍ على رفّ... نحن الآن في السيارة التي تسير في الشارع... وأمي تبتسم وتمازح في شأن أمر ما... فيما يتلهّى أبي بمذياع السيارة، مرافقاً بصوته أغنية بوب قديمة مثيرة للحزن... وأجلس أنا على المقعد الخلفي مكلّماً نفسي...

وأقول: «لا يملك أبي حسّاً بالاتجاهات البتة».

وأجيب: «أعرف».

أقول: «إنه يستخدم على الدوام جهاز ملاحة عندما يقود».

وأُجيب: «أعرف».

«حتى أثناء الرحلات المحلية».

... وأنظر إلى نفسي...

«هل تفهم ما أقوله؟».

«أجل». أقول لنفسي. «أفهم».

لا أعرف ما إذا كنت قد استيقظتُ بعد الحُلم مباشَرةً أم واصلتُ النوم لبعض الوقت ومن ثم استيقظت. ولكنّ كل ما أعرفه هو أنني حالما فتحت عينَيّ، عرفت بالتحديد ما يجب عليّ فعله، وعرفت أن عليّ القيام به في الحال.

إنها الساعة السادسة، والشمس تنساب عبر الستائر. وأثناء نهوضي من السرير وشروعي بارتداء ملابسي، سمعت طيوراً تغرّد في الخارج. كان المنزل ساكناً، وكنت على ثقة تامة بأن جدّيَّ لا يزالان نائمين، ولكنني لم أشأ المجازفة. فارتديت ملابسي بأسرع ما يمكن؛ فاتحاً الأدراج بهدوء، ومتنقّلاً في الأرجاء على أطراف أصابعي وأنا عاري القدمَين، ومحاولاً عدم إحداث ضجيج. وحاولت أيضاً تجاهل الصوت في رأسي الذي كان يواصل طلبه مني التفكير في ما أفعله، ولم يكفّ عن ملاحقتي مهما حاولت جاهداً صرفه من ذهني. تعرف أن جدّك طلب منك البقاء في المنزل اليوم، أليس كذلك؟ تعرف أنه سيستشيط غضباً إذا اكتشف ما تفعله. لماذا تقوم بذلك على طريقتك الخاصة؟ لماذا لا تنتظر استيقاظ جدّك، ومن ثم تُطلعه على الأمر؟ وإذا لم يكن باستطاعتك الانتظار، اذهب وأيقظه في الحال. أيقظه واشرح له كل شيء. سيعرف ما يجدر به فعله.

لا جدال في المنطق الذي يعتمده الصوت. فقد سبق لجدّي أن طلب مني ملازمة المنزل. ولا سبب لقيامي بالأمر بمفردي، ويُفترض بي ترك الأمر لجدّي. فهذا هو الأمر الحكيم الوحيد الذي يتعيّن عليّ القيام به.

وكنت حكيماً نوعاً ما، أليس كذلك؟

لم أكن طائشاً أو غبياً، فأنا أقوم عادة بما يُطلب مني القيام به.

لم أكن من ذلك النوع من الفتيان الذين ينسلّون إلى خارج غرفة النوم عند الساعة السادسة صباحاً، ويتسللون على فسحة الدرَج بجواربهم، وينزلون الدرج على أطراف أصابعهم، ثم ينتعلون أحذيتهم الرياضية، ويلتقطون المفتاح عن الرف في المطبخ، ومن ثم يفتحون الباب الخلفي بهدوء، ويخرجون إلى نور الصباح، ويُسرعون إلى مستودع التخزين لإحضار الدراجة.

لم أكن كذلك قط.

إذاً، لماذا قمت بالأمر؟

لأن اليوم هو الثالث من آب/ أغسطس؛ إنه اليوم السابق لليوم الأخير. وبالرغم من عدم معرفتي بعد لمعنى اليوم الأخير في الرابع من الشهر، إلاّ أنني كنت أعرف أنه يعني أمراً ما. ولو لم يكن هذا الأمر هامّاً لما دوّنه أبي. إذاً، إذا أردت الذهاب للعثور على بشير والحصول على كل الإجابات التي أحتاج إليها، فلا بد لي من القيام بذلك اليوم، ولا وقت لديّ لانتظار جدّي وشرح كل شيء له. علاوة على ذلك، إذا تركت كل شيء له- كما وعدتُ- فقد يستغرق الأمر وقتاً طويلاً لاتخاذه قراراً في ما يتعيّن عليه القيام به. حتى إنه قد يقرّر عدم القيام بأي شيء على الإطلاق. إذ سبق له أن قال لي: لا أعرف ما إذا كان أحدنا في خطر

في الوقت الحاضر، وإلى أن أعرف كل ما يجري، لن أجازف أبداً.

ووفقاً لطريقة رؤيتي للأمور، لم أجد خياراً آخر.

كان يتوجّب عليّ القيام بما أقوم به.

لقد توجّب عليّ ذلك فحسب.

علاوةً على ذلك، إذا تم كل شيء كما هو مخطَّط له- ولا سبب للإخفاق- فسأغادر لمدة ساعة واحدة فقط أو ساعتَين. ويُفترض بي العودة عند السابعة والنصف، أو الثامنة على الأكثر. ومع القليل من الحظ، سيكون جدّي وجدتي لا يزالان في السرير، ولن تسمعني والدة جدّي نورا وأنا أدخل؛ حتى إن كانت مستيقظة. لذلك، آمل أن يكون بإمكاني العودة إلى غرفتي من دون أن يعرف أحد مكان وجودي.

ولكن، ماذا لو تأخرتَ أكثر من ساعتَين؟ قال الصوت في رأسي. ماذا لو حدث ما أعاقك أو ما شابه؟ أو ماذا لو نهض جدّك أو جدّتك بالفعل قبل أن تعود؟ لن يعرفا مكان وجودك، أليس كذلك؟ وسيقلقان حقاً...

«حسناً، حسناً». تمتمتُ وأنا أدفع دراجتي خارج الكوخ.

امتلاك المرء ضميراً يمكن أن يكون مزعجاً حقاً في بعض الأحيان.

أسندتُ دراجتي إلى جدار الكوخ وعدت إلى المطبخ. توقفتُ للحظات مُصغياً السمع، ولكنني لم أسمع أي شيء. فالجميع لا يزالون نائمين. توجّهتُ على أطراف أصابعي نحو لوحة تدوين الرسائل المعلقة على الجدار، ومسحتُ الرسائل القديمة- أحضر معكرونة! اتصل بجون. طبيب الأسنان، الأربعاء عند الساعة الثانية من بعد الظهر- وكتبت بسرعة رسالة جديدة. **جدّتي، جدّي**، خربشتُ بأحرف كبيرة سوداء. **اضطُررتُ للخروج إلى مكان ما. آسف، أعرف أنه كان يُفترض بي الانتظار، ولكن الأمر هام جداً جداً. سأشرح كل شيء عندما أعود. مع حبي، ترافيس**.

«هل أنت راضٍ الآن؟». سألت ضميري.

ليس حقاً. ولكنني أفترض أن هذا أفضل من لا شيء.

كان فريق المراقبة التابع لسي آي أيه سيراني لو سلكتُ الطريق الأمامي، لذلك دفعتُ دراجتي على درب الحديقة، وغادرتُ عبر البوّابة الخلفية التي تؤدّي إلى ممر للمشاة مباشَرةً. وإذا انعطف المرء يساراً على امتداد الدرب وواصل السير نحو خمسين متراً، فسيصل إلى درب صغير آخر يعيده إلى لونغ بارتون روود.

لم يكن هناك أحد في الأنحاء أثناء سلوكي الدرب على درّاجتي، وعندما خرجتُ إلى لونغ بارتون روود، لم تكن هناك أية حركة مرور البتة.

ألقيت نظرة سريعة على ساعتي.

كانت لا تزال السادسة وعشرين دقيقة فقط.

نظرتُ إلى يساري، محدّقاً إلى الوراء على امتداد الطريق في اتجاه المنزل، ومحاولاً رؤية عربة النقل البيضاء. لقد بتُّ على مَبعدة منها، ولم أستطع رؤيتها

بين كل السيارات وعربات النقل الأخرى المركونة على الطريق. يعني ذلك أن لا أحد في عربة النقل يمكنه رؤيتي أيضاً.

قضيتُ بعض الوقت جالساً هناك على دراجتي، ومتحققاً مما إذا كان هناك أشخاص آخرون يراقبونني أيضاً. لقد علّمني أبي وأمي ما يجدر بي البحث عنه؛ كل من يبدو في غير مكانه، وكل من يبذل قُصارى جهده ليبدو غير مُبالٍ، وكل من يتعمّد عدم النظر إليك.

لم أرَ أحداً يثير القلق. في الواقع، عدا القليل من المستيقظين باكراً والمارّين أمامي بسياراتهم، لم أرَ أحداً البتة.

ونظرتُ إلى ساعتي.

إنها السادسة وأربع وعشرون دقيقة.

حان وقت الذهاب.

قال ضميري: لم يَفُتِ الأوان بعد على تبديلك رأيك، إذا استدرتَ في الحال، استدرْ فحسب وعُد إلى المنزل، ولن يعرف أحد أبداً.

عبرتُ الطريق، وانعطفتُ يميناً، وتوجّهت نحو كِل كروس.

بالرغم من مواصلة بعض السكان المُسنّين في كِل كروس دعوة المنطقة بالقرية، فهي لم تَعُد قرية في الواقع. لا يزال هناك عدد قليل من المتاجر القروية قديمة الطراز، ورُقعة أعشاب قرب موقف الحافلات تُعرَف رسمياً بساحة القرية الخضراء، ولكن الغالبية العُظمى من كِل كروس تشغلها حديقة عامة ضخمة، ومنطقة سكنية ممتدّة تصل إلى طريق بارتون الفرعية. وبعض السكان فقط يحبون الحديقة العامة والمنطقة السكنية، وهناك على الدوام من يشكو من أمر ما. لم تَعُد القرية كما كانت. إذ تَحطّ المنطقة السكنية من قيمة الحيّ، وهناك حركة مرور كثيفة في البلدة في هذه الأيام، ولا يمكن للمتاجر المحلية منافسة المتاجر الضخمة. ولكن كِل كروس بالنسبة إليّ هي المكان حيث عشتُ على الدوام. فقد وُلدت هناك، ونشأت هناك، وأعرف كل بوصة منها؛ كل شارع، وكل زُقاق، وكل حقل، وكل متجر.

هناك عشتُ.

بكل بساطة.

غير أنني لم أَعُد أُقيم هناك.

أثناء قيادتي دراجتي إلى داخل كِل كروس في ذلك الصباح، سالكاً الطريق المألوفة والمؤدية إلى منزلي- انعطافة إلى اليسار من لونغ بارتون روود، وانعطافة أخرى إلى اليسار إلى داخل برود أفونيو، ومن ثم إلى اليمين إلى داخل دين ستريت- أدركتُ أن الأمور لم تَعُد بتلك البساطة. وأفترض أنني سلّمت بأن كل شيء لم يتغيّر. فقد كنت عائداً إلى منزلي، راكباً دراجتي، وسالكاً شارعي... إذاً، لماذا لا يُفترض بقاء كل شيء على حاله؟ ولكنه بقي على حاله من بعض النواحي. فالحُفَر في الشارع لم تتغيّر، ولا تزال أغطية المصارف الصحيّة في المكان نفسه، وحافة الرصيف المحطّمة حيث صعدتُ بدراجتي لا تزال هناك. وأثناء توقّفي إلى جانب الطريق عند بوّابة منزلنا الأمامية، بدا المنزل بالتحديد كما كان على الدوام: فالجدران بيضاء، والسقف مكسوّ بقرميد رمادي، وشجرة الكرز في الحديقة الأمامية...

لم يتغيّر أي شيء.

لا، بل لم يَعُد أي شيء كما كان. الشارع الذي سلكتُه آلاف المرات، والمنزل الذي عشتُ فيه طوال حياتي...

لقد تغيّرا.

كل ما تبقى هو صور طِبق الأصل لا حياة فيها.

إنه شعور غريب جداً لم أفهمه في الواقع. ولكن، أثناء فتحي البوّابة ودفعي دراجتي على الطريق المؤدّي إلى المنزل، كان شعوري بأنني لم أَعُد أنتمي إلى هذا المكان يزداد قوة مع كل خطوة أخطوها. فالأمر أشبه بالتواجد في كَوْنٍ موازٍ من نوع ما، في عالم كل شيء فيه مألوف وغير مألوف في آن واحد. صوت

الحصى تحت قدمَيَّ، والخُدوش على الجدار حيث كنت أسنِد دراجتي، وآثار الفرشاة على طلاء الباب الأمامي. كنت أعرف كل ذلك، ولكنها بدت غريبة عني.

عندما فتحت الباب الأمامي- بالمفتاح الذي أخذتُه من منزل جدتي وجدّي- ودخلتُ المنزل، كانت حدّة ذلك الشعور المألوف وغير المألوف في آن واحد مُربِكة جداً؛ لدرجة أنني كدت أستدير وأغادر. وكل ما تمكنتُ من القيام به هو إغلاق الباب والبقاء حيث أنا. لقد وقفتُ هناك في المدخل لمدة دقيقة واحدة أو دقيقتَين، محدّقاً إلى الأرض، ومُصغياً إلى سكون المنزل المُطبَق.

فالمكان هادئ تماماً.

إنه فارغ تماماً، وساكن تماماً...

من دون حياة تماماً.

لدرجة بُدُوّه كمنزل لم يُسكَن منذ أعوام.

لم أحبّه.

وكرهتُ عدم محبّتي له. إذ لم يكن الأمر صائباً، لم يكن الأمر مُنصفاً للمنزل. أعني أنه غير مسؤول عن ظهوره على هذا النحو. فهذا...

هذا ما كان عليه فحسب.

لكنني لم أتمكن من السماح له بالتأثير فيّ.

فهناك أمور ينبغي لي القيام بها.

أغمضتُ عينَيّ للحظات، وأخذت بضعة أنفاس عميقة، ومن ثم ابتعدت عن المدخل.

لم تكن هناك دلالات واضحة على أن المنزل قد تعرض للتفتيش، وكان سيبدو عادياً تماماً لِعَينٍ غير عارفة، ولكنني حالما دخلت غرفة الجلوس عرفتُ أن شخصاً ما كان هناك. كان ذلك مجرد شعور في بادئ الأمر؛ شعورٍ فطريّ بوجود خَطْب ما، ولم تتأكد مشاعري إلا عندما شرعتُ بالنظر إلى أرجاء المكان وتفحّص الأمور عن قُرب. إنها مجرد أمور صغيرة في الغالب؛ كزِينة في غير مكانها إلى حد ما، وأسطوانات «الدي في دي» الخاصة بأبي المصفوفة بالترتيب الخاطئ، والستائر المربوطة بشكل خاطئ، ومسند أريكة موضوع بشكل عمودي. كنت أدرك تماماً أن هذه الأشياء لا تُثبت أي شيء بمفردها، وخطر ببالي أن يكون جدّي قد بدّل أماكنها ربما عندما جاء إلى هنا لجمع حاجياتي. ولكنني كلما نظرتُ وأمعنت التدقيق أكثر وجدت الأشياء في غير أماكنها أكثر فأكثر. وعندما أنهيت تجوالي على كل الغرف، في الطابق العُلوي والسُّفلي، ازداد يقيني بتعرّض المنزل للتفتيش.

حاولت التعاطي مع الأمر بعقلانية، فدخلت غرفة نومي، وجلست إلى طاولتي، وبذلت قُصارى جهدي للمحافظة على هدوئي والتفكير بشكل منطقي. من الذي يقف وراء ذلك؟ سي آي أيه، أم آي 5، أم أوميغا؟ ولماذا؟ عمَّ كانوا يبحثون؟ وهل عثروا على ما كانوا يبحثون عنه؟ ألقيت نظرة محدّقة على أرجاء الغرفة، محاولاً البقاء في حالة من التركيز، ومحاولاً التحكم بعواطفي، وإقناع

نفسي بأن الأشخاص الذين كانوا هنا- أيّاً كان أولئك الأشخاص- وبحثوا بين حاجياتي يقومون بعملهم فحسب. ليس الأمر شخصياً، وما حدث غير جدير بالغضب، أي دخول أشخاص إلى هنا وفتحهم الصندوق الخشبي الصغير حيث أحتفظ بكل أغراضي المميَّزة؛ كمدوَّنات أمي الصغيرة المُضحكة، وصورة أبي في سنّ الطفولة، والضفدع النحاسي الصغير ذي العينَين المصنوعتَين من الحِليّ والذي أوصت لي به والدة جدّي.

لقد فتحوه... لقد فتحوا صندوقي.

أنا واثق من ذلك.

فهو لم يكن مُغلَقاً تماماً، والغطاء عالق، وتعيّن عليّ الضغط على جوانب الصندوق في المكان الصحيح لإغلاقه. وأنا أُغلقه دائماً بالشكل الصحيح.

على الدوام.

حدّقتُ إلى الصندوق بقلب نابض، وقبضتَين مكوَّرَتَين، وأنا أستشيط غضباً وكرهاً.

ليس الأمر شخصياً؟

هُراء.

تطلّب الأمر بعض الوقت لزوال أسوأ ما في الغضب مني. وبالرغم من أنني كنت أشتعل غضباً عندما غادرت غرفة نومي ونزلت إلى الطابق السُّفلي، إلاّ أنني كنت متماسكاً بما يكفي لأتذكر سبب قدومي إلى هنا في المقام الأول. فأنا لم آتِ إلى هنا بدافع الفُضول أو مشاعر الحنين، بل لسبب ما. فقد جئت إلى هنا للحصول على شيء ما.

الإجابة عن كل شيء.

لم يكن هناك باب على الدوام بين مدخل منزلنا والمرأب. ولكن منذ سنوات قليلة، كنت أشاهد مع أبي آل سيمبسونز على التفاز، وفي ختام مشهد الافتتاح- عندما كانت سيارة مارج تطارد هومر عبر المرأب إلى داخل غرفة الجلوس- أشار أبي إلى التلفاز فجأةً وقال: «يُفترض بنا الحصول على أحد تلك الأشياء».

فسألته:»أحد ماذا؟».

«باب مرأب يؤدي إلى داخل المنزل». وأطلق لي ابتسامة عريضة ثم تابع: «ما رأيك يا تراف؟ سيكون الأمر مميزاً جداً، أليس كذلك؟».

فرمقتُه بنظرة تساؤل وقلت له مستغرباً: «سيكون مميزاً جداً؟».

فقال: «ماذا؟ ما الخَطْب في ذلك؟».

فأجبته وأنا أهز رأسي: «إنه مجرد باب يا أبي، ولا شيء مميز في ما يتعلق بباب».

لم أحب الاعتراف بالأمر في ذلك الوقت، ولكن عندما تمكن أبي أخيراً من إضافة باب، بدا الأمر مميزاً جداً في الواقع؛ ليس لأنني أدخل المرأب كثيراً، بل لأنه من الجيد نوعاً ما أن يكون هناك باب في آخر المدخل يؤدي إلى المرأب.

وأثناء فتحي قفل الباب في ذلك الصباح، ومن ثم تحديقي إلى الظُّلمة الخالية من أي نوافذ، عادت إليّ ذكرياتي عن أبي بوَفرة، فمنحتُ نفسي لحظة واحدة أو لحظتَين، متنشقاً روائح المرأب المألوفة، ومسترسلاً في استعراض الذِّكريات، ومن ثم قمت بما كنت أعرف أن أبي يريد مني القيام به؛ شرعتُ بإتمام المهمة.

عندما أضأتُ نور المرأب، بدا كل شيء كما أذكره. فسيارة أبي لا تزال هناك- سيارة صعب 900 التي يحبها- ولا تزال مُحاطة بالأغراض التي تتكوّم دائماً في المرائب. فالرفوف كُدِّست عليها الأدوات، والصناديق الكرتونية مليئة بأغراض وحده الله يعرف ماهيّتها، وهناك بقايا دراجتي القديمة، وآلة تمارين رياضية لم تُستخدم قط، وكُتُب غير مرغوب فيها، ولفائف ورق جدران، وصفائح طلاء...

وهناك فسحة تكفي فحسب للسيارة وسط كل الأشياء المبعثَرة. لقد حرص أبي دائماً على إبقاء فسحة فارغة في الجانب الأيمن كي يتمكن من فتح باب السيارة والخروج بها بصعوبة، محرِّكاً إيّاها تدريجياً وبشكل جانبيّ وظهره إلى الجدار. كنت بنصف حجم أبي ربما، لذلك لم يكن الأمر مُربِكاً بالنسبة إليّ بقَدْر شعوره بالارتباك. ولكن الأمر تطلّب مني بعض الوقت لجرجرة خُطاي على امتداد الجدار وللوصول إلى مقدّمة المرأب. وواصلت النظر حَولي، متحققاً من وجود أي دلائل تشير إلى إخضاع المرأب للتفتيش. لم أكن قد قصدت المكان منذ مدة طويلة، ولكنه كان في حالة من الفوضى لدرجة أنه صَعُب عليّ التحقق مما إذا كانت قد تمّت إزاحة أي شيء من مكانه أم لا. ولكن، إذا كان الأشخاص الذين فتّشوا المنزل محترفين- وكنت على ثقة تامة بأنهم كذلك- فلن يمتنعوا عن

تفتيش المرأب وسيارة أبي على الأقل. وأمِلتُ ألا يكونوا قد فتشوا كل ما هو مكدَّس هناك بسبب ضيق الوقت، أو لأنهم لم يرغبوا في القيام بذلك.

وبلغتُ مقدّمة المرأب.

أغمضتُ عينَيّ لثانية من الزمن، وعدت بالذاكرة إلى يوم حادثة تحطُّم السيارة. لقد تخيّلتُ مسرح الحدث وأنا أقف خارج المنزل مجدداً، مسرح الحدث كما حلمتُ به في الليلة السابقة؛ أمي وأبي يتجادلان حول جهاز الملاحة عبر الأقمار الاصطناعية، وأبي يتنهّد مستديراً، ثم يعيد جهاز الملاحة إلى المرأب. ثم، بدلاً من شقه طريقه بصعوبة إلى داخل السيارة لوضع الجهاز، ألقاه فحسب داخل الصندوق الكرتوني المليء بأشياء صغيرة والموضوع على الرف قرب الباب.

فتحتُ عينَيّ ونظرت إلى الرف.

كان الصندوق الكرتوني لا يزال هناك، فانحنيت وألقيت نظرة إلى داخل الصندوق.

وكان جهاز الملاحة عبر الأقمار الاصطناعية لا يزال هناك.

لا يملك أبي حسَّ الاتجاه البتة.

وهو على الدوام يستخدم جهاز ملاحة أثناء القيادة.

حتى إن قام برحلات محلية.

ومددتُ يدي إلى داخل الصندوق، وأخرجتُ جهاز الملاحة، وشغّلتُه. وأثناء مراقبتي الشاشة، تساءلت عن مقدار الطاقة المتبقية في البطارية؛ إذ كان جهاز الملاحة موضوعاً في الصندوق منذ ثلاثة أسابيع...

غير أن الجهاز طنّ بهدوء- بينغ-بونغ- وأضيئت الشاشة.

لقد أظهرت أيقونة البطارية خطَّين عموديَّين؛ مما يعني أنه لا يزال هناك مقدار كبير من الطاقة.

ضغطتُ على أيقونة ملاحة، ومن ثم على أيقونة قائمة، وبعد ذلك على اذهب إلى.

وكففتُ عن العمل للحظات، متمنياً أن يكون الحظ حليفي، واخترت بعد ذلك وُجهات حديثة العهد وحبست أنفاسي. وبعد ثانية، ظهرت قائمة على الشاشة. وأثناء قراءتي الوجهة في أعلى القائمة، تذكرتُ مجدداً أمي وأبي وهما يتجادلان حول جهاز الملاحة.

لن أضع ذلك الشيء في سيارتي.

سنقود إلى وسط لندن، وأنت تعرفين كيف تكون الطرقات.

لا أبالي. أفضّل أن أضيع على استخدام أحد تلك الأجهزة.

ولكن، سبق لي أن أدخلت العنوان. وكل ما علينا القيام به عندما نصل إلى لندن هو تشغيله...

سبق له أن أدخل العنوان؛ ممّا يعني أن العناوين التي أرادا أن يقصداها في لندن سبق له أن أدخلها إلى جهاز الملاحة.

وها هي أمامي أنظر إليها.

تيمس هاوس، 11 ميلبِنك، لندن أس دبليو 1

لقد تطلّب مني الأمر لحظات قليلة لأعرف سبب بُدُوّ العنوان مألوفاً لي إلى حد كبير، حتى إنني لم أكن واثقاً آنذاك ممّا إذا كان يعني أي شيء أم لا. وأدركتُ بعد قليل أن رؤيتي للعنوان على التلفاز هي التي جعلتني أعرفه. إذ كان يعرض باستمرار في مسلسل عملاء سرّيّون على التفزيون البريطاني بي بي سي، والذي يتناول عملاء أم آي 5. ففي البرنامج التلفزيوني، عندما يكون الجواسيس في مقرّ قيادتهم في لندن، يظهر الموقع على الشاشة لإطلاع المشاهدين على مكان وجودهم: تيمس هاوس، لندن أم آي 5، مقرّ القيادة المركزي. لا يعني ذلك بالضرورة أن مقرّ أم آي 5 الحقيقي موجود في تيمس هاوس، ولكن الأمر لم يتطلّب مني وقتاً طويلاً لاكتشاف مكانه. فقد أخرجتُ هاتفي المحمول، وفتحتُ غوغل، وأدخلتُ عبارة مقرّ القيادة المركزي لـ أم آي 5.

وظهر في أعلى القائمة مَدخل من ويكيبيديا جاء فيه:

تيمس هاوس مكتب للتطوير في ميلبِنك، لندن، على الضفة الشمالية لنهر التيمس بجوار جسر لامبث، أُعِدّ في الأساس ليكون مقرّ مكاتب تجارية. ومنذ كانون الأول/ ديسمبر 1994، تحوّل إلى مقرّ قيادة الأجهزة الأمنية في المملكة المتحدة (يُعرف عموماً بـ أم آي 5).

وهكذا، عرفت أن أمي وأبي كانا متجهَين إلى لندن يوم وفاتهما، للقاء شخص ما في أم آي 5. ولكن، ما الذي يعنيه ذلك؟ هل علم أبي وأمي بأمر عمل بشير السرّي؟ وهل اكتشفا مكان وجوده؟ هل أرادا لقاء عملاء أم آي 5 لإبلاغهم بأنهما عثرا عليه؟ أم أنهما ربما لم يكونا يعرفان أي شيء عن صِلات أم آي 5 ببشير. ربما طلب شخص ما في أم آي 5 إجراء لقاء معهما لتحذيرهما، فوافق أبي وأمي على الذهاب من دون أن يملكا أية فكرة عن مضمون الاجتماع.

لقد بدا الأمر كما لو أنني أجبت عن سؤال واحد- ما سبب ذهاب أبي وأمي إلى لندن؟- ولكنني سأكشف النقاب عن عشرات الأسئلة الأخرى بهذه الطريقة، من دون أن أكون قادراً على الإجابة عنها.

«عظيم». تمتمتُ لنفسي وأنا ألتفت إلى جهاز الملاحة. «المزيد من الأسئلة التي لا إجابات لها... هذا ما أنا بحاجة إليه تماماً».

لكنني لم أكن يائساً جداً لأنني سأعثر- كما آمل- على إجابات عن كل أسئلتي في أحد العناوين الأخرى في قائمة وُجهات حديثة العهد. لم أكن أعرف بعد العنوان المحدَّد- لقد افترضتُ أنه العنوان الثاني أو الثالث- ولن أعرفه في الواقع إلا بعد التدقيق في بعض الأمور. ولكن، في الوقت الحالي، أردت التأكد من وجود العناوين هناك، وأردت معرفة مكان وجود أبي قبل يوم وفاته.

وتمعّنت في القائمة.

كانت جميعها عناوين محلية نوعاً ما، ومعظمها موجود في بارتون أو حولها. ألقيت نظرة على المداخل الأكثر حداثة، وكان العنوان الثاني على القائمة:

سوتون لين، بارتون بي أر 10 6 جي جي

لم يوح لي هذا العنوان بأي شيء. فبقدر ما أعرف، لم يسبق لي أن سمعت

بـسوتون لين.

ولكنني عرفت المدخل التالي.

42 رومان وِي، بيكون فيلدس، بارتون بي أر 11 8 تي دبليو

فعائلة كمال تُقيم في 42 رومان وِي.

كنت أعرف أن أبي قد زار منزلَ عائلة كمال. ولكن، هل زاره أكثر من مرة واحدة؟

وشرعتُ بتصفّح قائمة جهاز الملاحة، باحثاً عن أي شيء يفيدني في ما يتعلق بوقت الوُجهات وتاريخها. فإذا اكتشفتُ بالتحديد تاريخ إدخال أبي العناوين إلى جهاز الملاحة، فسأعرف العنوان الذي يتعيّن عليّ التركيز عليه.

فاخترت عنوان سوتون لين، وأملتُ في ظهور قائمة من نوع ما، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث. أمعنت النظر إلى الشاشة مجدداً، باحثاً عن خيارات أخرى، ولكنني لم أجد أي شيء مفيد.

في تلك المرحلة، وعندما كنت على وشك العودة إلى قائمة البحث الرئيسة، سمعتُ الباب الأمامي يُفتح.

في اللحظات القليلة الفاصلة بين صوت فتح الباب الأمامي وصوت إغلاقه، إجتاح إعصارٌ من الأفكار رأسي. من يمكن أن يكون القادم؟ أهو جدّي؟ أو كورتني؟ أو الشرطة؟ أو أحد الجيران؟ أيّاً يكن، لقد فتح الباب باستعمال المفتاح. ولكن، سبق لي أن أخذت مفتاح الباب من منزل جدتي وجدّي. هل يملكان مفتاحاً آخر؟ لماذا سيأتي جدّي إلى هنا؟ هل تملك كورتني مفتاحاً؟ ماذا عن الجيران؟ هل تملك الشرطة مفتاحاً؟

بعد ذلك سمعت أصواتاً، أصواتاً مُهَمهِمة في المدخل.

فتسمّرت في مكاني، وأنا بالكاد أتنفّس، وأصغيت بتركيز.

كانت الأصوات منخفضة وشبه مكتومة، ولم أتمكن من فهم ما يُقال، ولكنني كنت واثقاً إلى حد ما في أنهما شخصان. واستناداً إلى اللكنة، كلاهما أميركيان.

أميركيان؟! فكرت في سري.

السي آي أيه!؟

فريق المراقبة من عربة النقل البيضاء!؟

وتحرّك وقع الخُطى على امتداد المدخل.

تساءلتُ: هل يعرفان أنني في المرأب؟ هل يعرفان أنني في المنزل؟ هل تبعاني من منزل جدتي وجدّي؟ وحتى لو فعلا، لا بد أن يكونا قد رأيا دراجتي في الخارج. لا بد أن يكونا قد علِما بأنني هنا في مكان ما. ونظرتُ إلى الباب للتحقق مما إذا كنت قد أغلقته أم لا. إنه مُغلَق. ولكن نور المرأب مُضاء، وأعرف أن النور لا يُرى من الجانب الآخر للباب، ولكن يمكن رؤيته مُشِعّاً عبر الفجوة في الأسفل. إذاً، حتى لو لم يكونا يعرفان أنني هنا، فسيرتابان بوجود شخص ما عندما يريان النور.

هل يُفترض بي إطفاؤه؟

فمددتُ يدي في اتجاه المفتاح الكهربائي... ولكنني توقفتُ في اللحظة الأخيرة.

فقد سمعتهما وهما يدنوان من الباب. ربما رأيا النور؛ مما يعني أنهما سيريانه عندما يُطفأ. إذاً، هما يعرفان بلا ريب أن في المنزل شخصاً ما.

ماذا يُفترض بي أن أفعل؟

فكّر!

هل أُطفئ النور أم أدَعُه مُضاءً وآمل في ألا يرياه؟

كنت لا أزال أحاول اتخاذ قرار، وإصبعي موضوعة على المفتاح الكهربائي عندما بدأ الباب يُفتح. فنقرتُ المفتاح من دون تفكير، ووضعتُ جهاز الملاحة في جَيبي بسرعة، وشرعتُ بالتحرك تدريجياً حول مقدّمة السيارة. بعد إطفائي النور وغرق المرأب في الظلام فُتح الباب، فرأيت الخيال الظِلّي لشكلَين بشريَّين عند مدخل الباب. مدّ الشخص الواقف إلى اليسار يده على الفور في اتجاه المفتاح

الكهربائي قرب الباب، وعندما عاد النور رأيتهما بوضوح. إن ذاك الذي أضاء النور رجلٌ قويّ البنية، في أواسط العقد الثالث من العمر، ويرتدي بذلة رمادية داكنة. والآخر امرأة سوداء البشرة وقصيرة الشعر، ترتدي سترة جِلدية وجينزاً.

كانت المرأة تصوّب سلاحاً نحوي.

إنه مسدس أوتوماتيكي أسود اللون.

لم أتمكن من رفع ناظرَيّ عنه.

وقفتِ المرأة من دون حراك والمسدس بيدها اليمنى، ساندةً معصمها بيدها الأخرى، ومِرفقاها ملاصقان لجسدها.

لقد صُعقتُ إلى حد كبير، ولم أتمكن من القيام بأي شيء. لم أتمكن من الحراك أو التكلم أو التفكير. حتى إنني لم أشعر بالخوف، بل كنت خَدِراً حتى العَظم. وكل ما تمكنت من القيام به هو الوقوف هناك كزومبي، محدِّقاً إلى ماسورة المسدس، وأنا معقود اللسان.

لم تُنزل المرأة المسدس إلى الأسفل وتدسّه في قِرابٍ تضعه على حِزامها إلا بعد مرور ثانية أو ثانيتَين. وقد بدت هذه اللحظات أزلية.

ثم قالت رافعةً يدَيها لتُريني أنهما فارغتان: «لا بأس يا ترافيس». وابتسمتْ محاولةً طمأنتي، ثم تابعت: «أردنا التحدث إليك ليس إلا، اتفقنا؟».

كنت لا أزال غير قادر على الكلام، محدِّقاً إليها فحسب.

فابتسمتْ مجدداً محاولةً إبداء بعض الودّ، ولكن البسمة لم تؤثّر في عينَيها؛ فعيناها باردتان وحذرتان.

«هِيه، ما بالك يا ترافيس». قالت بمرَح وبلكنة أميركية لطيفة وغير مهدِّدة. «لماذا لا...»

«من أنتما؟». قلت متفاجئاً من الثبات في صوتي. «وماذا تفعلان في منزلي؟».

فترددت المرأة للحظات، ثم مدّت يدها إلى داخل جَيب سترتها، وقالت وهي تخرج منه محفظة: «نحن من السي آي أيه يا ترافيس. أنا العميلة الخاصة زانِتي، وهذا...» وأشارت إلى زميلها ثم تابعت: «العميل الخاص غوو».

أخرج غوو محفظة من جَيبه، وفتح كل منهما محفظته وأرياني إيّاهما، مُظهرَين بطاقتَي التعريف الخاصتين بالسي آي أيه، ولكن من دون جدوى؛ لأنني حتى لو تمكنتُ من رؤيتهما من حيث أقف- لكنني لم أتمكن من رؤيتهما- إلا أنني لا أزال لا أملك أية فكرة عن شكل بطاقة التعريف الأصلية الخاصة بالسي آي أيه.

«إذاً، هل يمكننا التحدث الآن؟». قالت العميلة الخاصة زانِتي، مُعيدةً محفظتها إلى جَيبها. «كل ما نريده...»

«كيف دخلتما إلى هنا؟».

فتنهّدتْ ثم قالت: «اسمع، يا ترافيس...»

«لا يمكنكما اقتحام منزلي وتصويب مسدس نحوي ببساطة». قلت مُخرجاً

هاتفي المحمول، وتابعت: «لا أبالي بمن تكونان، سأتصل بالشرطة».

ألقت زانِتي نظرة سريعة على غوو، ورأيته يومئ برأسه ويضع يده في جَيبه. ظننتُ أنه يمدّ يده لاستلال مسدس، ولكنه لم يُخرج شيئاً. رفعتُ هاتفي المحمول، واضعاً إصبعي فوق الشاشة، مُعلِماً إيّاهما أنني أعني ما أقوله. فنظرت إليّ زانِتي وهزّت كتفَيها كما لو أنها تقول: إذاً، تابع واتصل بالشرطة، وتحقق ممّا إذا كنت أبالي. فتساءلتُ إن كانت تتحداني لتنفيذ تهديدي، متظاهرةً فحسب بأنها لا تُبالي، ولكن غوو أخرج شيئاً ما من جَيبه حينذاك ورفعه كي أراه. إنه جهاز صغير محمول مزوَّد بثلاثة هوائيات صغيرة قصيرة وسميكة ناتئة من الأعلى. كنت على ثقة تامة من أنني أعرف ماهيّته- فقد سبق لوالدي أن أراني شيئاً مماثلاً ذات مرة- وعندما ألقيت نظرة سريعة على جهازي المحمول ورأيت أن لا إرسال لديّ، عرفتُ أنني مُحِق.

«إنه جهاز تشويش على الهواتف المحمولة، أليس كذلك؟». وجّهت سؤالي إلى غوو.

فأومأ برأسه شاعراً بالسأم، ثم أعاد الجهاز إلى جَيبه.

بعد ذلك، شرع الاثنان بالتقدم نحوي؛ تحركت زانِتي تدريجياً على امتداد الجانب الأيمن للسيارة، فيما شقّ غوو طريقه بصعوبة عبر الأغراض المبعثرة إلى اليسار. بدأتُ بالتراجع بشكل فطري نحو فسحة صغيرة جداً بين غطاء محرك سيارة أبي وباب المرأب؛ فببساطة لم يكن بإمكاني الذهاب إلى أي مكان.

«لا حاجة إلى ذلك يا ترافيس». قالت زانِتي مندفعةً بجانب كومة صناديق، ثم تابعت: «نحاول مساعدتك ليس إلا».

متجاهلاً إيّاها، استدرت نحو باب المرأب وحاولتُ فتحه بواسطة المِقبض. لا أذكر قيام أبي بإقفال الباب بعد وضعه جهاز الملاحة هناك. ولكن، سواء أسأتُ التذكر أم أن شخصاً آخر قد أقفله مذاك الحين، كان الباب مُقفَلاً. جذبتُ المِقبض إلى الأسفل مرتَين للتأكد فحسب، ولكنني كنت أعرف أنني أضيّع وقتي.

التفتُّ إلى الوراء ونظرت إلى زانِتي وغوو. كانا يقتربان متخطّيَين أبواب السيارة ومتّجهَين نحو الإطارَين الأماميين. لم تكن هناك إمكانية البتة لتخطّيهما، ولم أتمكن من الفرار منهما...

لا مفرّ.

لقد وقعتُ في الفخ.

بلغا الإطارَين الأماميين للسيارة. بضع خطوات إضافية وسيصلان إليّ.

ورأيت زانِتي تُلقي نظرة سريعة في اتجاه غوو، كما لو أنها تسأله: هل أنت مستعدّ؟

فأومأ غوو برأسه: أنا مستعدّ.

التفتا إليّ، ونظرا إليّ، وشرعا بالتقدّم نحوي مجدداً؛ في اتجاه مقدّمة السيارة، وحول غطاء محرّك السيارة...

فانتظرتُ وصولهما إليّ تقريباً، ومن ثم قمت بخطوتي.

مستخدماً المِصدّ الأمامي كدرَجة، قفزتُ على غطاء محرك السيارة، ومن ثم تسلّقتُ زجاج السيارة الأمامي، مُباعِداً بين ساقَيّ، وتدحرجتُ على السقف، وشرعتُ بالتحرك بسلاسة في اتجاه مؤخّر السيارة. اندفع غوو في اتجاهي مادّاً يدَه للإمساك بقدمي، ولكنني كنت سريعاً جداً فأخفقتْ محاولته. وسمعتُ زانِتي تُصدر الأوامر صائحةً، أثناء شقها طريق العودة على امتداد جدار المرأب، ومن ثم شعرتُ بالسيارة تتحرك تحتي، وأدركتُ أن غوو قد تسلّق غطاء المحرك وتبعني. ولكنني عرفت أنه لن يمسك بي. لقد أخذتُهما على حين غَرّة، وتقدّمتُ عليهما. وكل ما يتعيّن عليّ القيام به هو مواصلة التقدّم والتحرك بسلاسة- في اتجاه زجاج السيارة الخلفي ووصولاً إلى صندوق السيارة- وسيستحيل عليهما منعي من بلوغ الباب.

حتى إنهما لم يقتربا مني.

أثناء انزلاقي عن صندوق السيارة وركضي بأقصى سرعة في اتجاه الباب، ألقيتُ نظرة سريعة من فوق كتفي ووجدت زانِتي عالقةً في منتصف المسافة على امتداد جدار المرأب. لقد وقعتْ في شركِ كرسيّ نقّال انزلق عن الجدار أمامها. في تلك الأثناء، كان غوو يزحف بصعوبة على سقف السيارة. وعندما رآني أنظر إلى الوراء في اتجاهه، وأدرك مدى دُنُوّي من الفرار، رفع نفسه على يدَيه ورُكبتَيه- في محاولة منه ليتحرك بشكل أسرع، كما أفترض- فصدم رأسه بدِعامة معدنية موجودة في سقف المرأب. وأثناء إطلاقه الشتائم بصوت مرتفع، ممسكاً رأسه بإحكام، ابتسمتُ له بسرعة، ومن ثم عبرتُ باب المرأب إلى المدخل، وأغلقتُ الباب ورائي، وثبّتُّ المزلاجَين العُلوي والسُّفلي، ومن ثم أقفلتُ الباب وأزلتُ المفتاح.

بعد ذلك، شرعتُ بالركض بطريقة فطرية، عابراً المدخل في اتجاه الباب الأمامي، ولكنني توقفت بعد لحظات قليلة، وفكرتُ قليلاً، ومن ثم استدرتُ، وعدتُ إلى باب المرأب، ووقفتُ هناك فحسب، مُصغياً ومفكراً، وآخذاً وقتي...

لقد أدركتُ أنه لا حاجة إلى الاستعجال. فزانِتي وغوو تم الإقفال عليهما وحبسهما في المرأب بشكل آمن. الباب المُقفَل لن يصمد إلى الأبد أمام محاولات فتحه بالطبع، ولكنهما لن يخرجا بسرعة. لذا، كنت أملك الوقت الكافي لتقليب الأمور في رأسي.

وضعتُ أُذُني على الباب وأصغيت السمع، فسمعتُ زانِتي تتكلم بصوت هادئ ومسيطَر عليه، ولكنني لم أتمكن من فهم ما تقوله. ولكن، أيّاً يكن ما تقوله، لم يكن غوو يجيبها بأي شيء. وكل ما سمعتُه هو صوت دونغ يَليه صوت مكتوم خافت- فأدركتُ أن الصوت ناجم عن قفز غوو أو انزلاقه عن صندوق السيارة- ومن ثم سمعت لعنة تفوّه بها بسبب شعوره بالألم.

سمعتُ زانِتي تقول له: «افتح الباب».

لم يُجِب غوو، ولكن مِقبض الباب تحرّك بعد لحظات قليلة، وجلجل الباب في إطاره. فتخيّلتُ غوو في الجانب الآخر وهو يجذب المِقبض بقوة، مختبراً الباب، ومقيّماً قوّته. وعلمتُ أنه لن يمرّ وقت طويل قبل أن يشرع بمحاولة تحطيمه.

كانت كل خليّة في جسمي تطلب مني الركض، والاستدارة في الحال، والخروج من هنا بأسرع وقت ممكن، ولكنني أرغمت نفسي على مقاومة رغبتي الشديدة. وقلت لنفسي: فكّر فحسب في الأمور للحظة واحدة، فكّر في ما تفعله. هل أنت بحاجة حقاً إلى الفرار؟ ماذا سيحصل إذا لم تهرب؟ هل سيُلحق زانِتي وغوو بك الأذى؟

وارتطم شيء ثقيل بالباب، فرأيت الباب يندفع إلى الخارج، باذلاً جهداً كبيراً للتخلص من قبضة الإطار. من الواضح أن غوو قد عثر على شيء ما ليستخدمه كمِدَكّ.

كان الوقت ينفد.

ربما لا يُفترض بك الركض؟ قلت لنفسي. ربما يُفترض بك البقاء هنا والتحدث إليهما بالرغم من كل شيء؟ لن تعرف أبداً، فربما ستحصل على بعض الإجابات...

ووجّه غوو ضربة قوية ثانيةً للباب، فاندفع هذه المرة إلى الخارج أكثر فأكثر.

هل يمكنك الوثوق بهما؟ سألت نفسي.

وتذكرت ما قاله لي جدّي: لا تثق أبداً بأي عميل سرّي يا تراف.

وبعد تعرّض الباب لضربة قوية أخرى، وسماعي صوت تحطّم الخشب، استدرتُ وركضت نحو الباب الأمامي.

كان يُفترض بي أن أدرك أن لدى زانِتي وغوو خطة طوارئ، وربما كان يُفترض بي أن أعي ما كانت زانِتي تفعله عندما سمعتُها تتحدث في المرأب بصوت هادئ ومسيطَر عليه. كان يُفترض بي أن أعرف أنها لم تكن تكلّم غوو، وأن آخذ بعين الاعتبار على الأقل طلبها منه إطفاء جهاز التشويش، ومن ثم استخدامها هاتفها المحمول لطلب الدَّعم.

لو فكرتُ في ذلك، لَما تفاجأتُ تماماً عندما فتحتُ الباب الأمامي ووجدت نفسي في مواجهة رجل عملاق يرتدي بذلة سوداء ويضع نظارة ملتفّة.

أحد الأمور الأولى التي علّمني إيّاها أبي عن الملاكمة هو أن السرعة أكثر أهمية من الحجم. وقد قال لي: «لا تهمّ مدى ضخامة بنية خصمك، فإذا كنتَ سريعاً بما يكفي لضربه من دون أن تتعرض للضرب، فستتمكن من هزمه في كل مرة». وكان مُصيباً؛ فهكذا تغلّبتُ على إيفي جونسون وعدد لا يُحصى ولا يُعَدّ من الشباب الآخرين صغار السنّ على مَرّ السنين. ولكنّ أيّاً من أولئك الشباب الصغار في السنّ ليس بحجم عميل السي آي أيه الواقف أمامي. أعني أنه ضخم للغاية؛ إذ يبلغ طول قامته حوالي ست أقدام ونصف على الأقل، وكتفاه ضخمتان، وصدره صلب، وذراعان سمينتان بحجم خصره تقريباً، ويداه بحجم الرَّفش. إنه ضخم جداً؛ لدرجة ملئه الباب كلّيّاً. ولحظة رؤيتي له، عرفت على الفور أنه لا يمكن للمرء التغاضي عن ضخامته. بالإمكان لكمه بسهولة، ولكنني أشك في تمكّني من الوصول إلى رأسه؛ لأن قبضتَيَّ الصغيرتَين لن تُحدثا أي تأثير في جمجمته العملاقة. وستكون لكمة على بطنه فعالة بقدْر فعالية لكم حوت.

في الواقع، لم أفكّر في توجيه أيٍّ من هذه اللكمات.

لقد فتحتُ الباب فحسب، ورأيت هذا الجبل على صورة رجل يقف أمامي. وفي جزء من الثانية، أنبأتني فطرتي بما يتعيّن عليّ القيام به. افعل ما كان جدّك سيفعله لو كان مكانك. قاتل بقسوة. ربما يكون ضخمَ البنية، ولكنه لا يزال إنساناً، ولكل إنسان نقطة ضعف.

فتراجعتُ وحرصتُ على أن أبدو خائفاً منه تماماً- ولم يكن الأمر صعباً- ومن ثم استدرتُ وشرعتُ بالركض في المدخل. وحالما سمعتُه يتبعني متعثّراً، غيّرتُ وُجهتي بسرعة، متوقفاً في الحال، ودائراً على مِروَدي، وراكضاً مباشرة في اتجاهه. كانت نظارته مزوَّدة بعدستين عاكستين، ولذلك لم أرَ في الواقع نظرة الدهشة في عينَيه، ولكنني كنت على ثقة تامة بأنه لم يتوقّع ارتدادي عليه. لذلك، تردد للحظات.

وكل ما كنت بحاجة إليه لحظة واحدة لا غير.

وأثناء توقّفه ووقوفه هناك محدِّقاً إليّ، غير واثق تماماً مما سأفعله، ركضتُ في اتجاهه مباشرةً، شانّاً هجوماً خادعاً في اتجاه الأعلى، ولكنني أنزلتُ كتفي بعد ذلك وركلتُه بأكبر قوة ممكنة بين ساقَيه. لقد سخّرتُ كل وزني وزَخْمي للقيام بهذه الخطوة، متخيّلاً نفسي وأنا أركل كرة قدم في الزاوية العليا للشبكة. واعتماداً على الصوت الذي أصدره الرجل الضخم عندما انحنى وسقط على رُكبتَيه- تأوُّه ألم شديد وعميق ومقطوع النفَس، كان بحالة يُرثى لها- علمتُ أنني أخرجتُه من المعادَلة.

لم يَقُم بأي شيء لإيقافي عندما مررتُ بجانبه بصعوبة وركضتُ نحو الباب. فقد كان شديد الانشغال بمحاولة التنفس.

كانت دراجتي الهوائية حيث تركتُها، مُسنَدةً إلى الجدار. وأثناء اندفاعي في اتجاهها، شعرتُ بمزيج مجنون من الارتياح، وعدم التصديق، والابتهاج البَحت. لم أصدّق قيامي بذلك، ولكنني قمتُ به في الواقع. لقد تفوّقتُ في المناورة على زانِتي وغوو، وحيّدتُ دعمَهما العملاق...

لقد تغلّبتُ على السي آي أيه!

أعني، كم الأمر جنونيّ؟

لقد تغلّبتُ على السي آي أيه!

كل ما يتعيّن عليّ القيام به الآن هو ركوب دراجتي والانطلاق.

ولكنها آخر فكرة إيجابية تبادرت إلى ذِهني.

لأنني عندما وصلتُ إلى دراجتي وأمسكت بالمِقبضَين، وجدتُ العجلتين ممزَّقَتين، فعدتُ فجأةً إلى العالم الحقيقي مجدداً. لم أتغلّب على السي آي أيه بالطبع. من أظنّ نفسي؟! إنهم السي آي أيه، وأنا مجرّد شابّ صغير في السنّ. وهم يعرفون كل الخدع، في حين أنني أقوم بالارتجال طوال الوقت. لم تكن لديهم خطط طوارئ فقط، بل خطط طوارئ لخطط طوارئهم...

قلت لنفسي: تماسكْ. إذاً، لقد مزّقوا عجلتيك. ماذا في ذلك؟ لا يزال بإمكانك الركض، أليس كذلك؟ لا يزال بإمكانك التغلّب عليهم.

وشرعتُ بالركض.

عندما انطلقتُ، سمعتُ صوت تحطّم خشب يصدر من داخل المنزل، واعتبرتُ أن غوو قد نجح في تحطيم باب المرأب، فركضتُ بسرعة أكبر على امتداد الطريق الخاص بالمنزل في اتجاه البوّابة، آملاً في الابتعاد عن مدى البصر قبل خروج زانِتي وغوو من المنزل. فإذا لم يعرفا أي طريق سلكت، ربما ستتبقى لدي فرصة للفرار. كنت أعرف الشوارع في المحيط كقفا يدي، وأعرف كل الدروب الصغيرة والأزقة، والطرق المختصَرة، والأماكن التي لا تستطيع السيارات المرور فيها. لقد تصوّرتُها في ذِهني عندما بلغتُ البوّابة، مخطِّطاً لطريق فراري؛ سأنعطف يميناً عند البوّابة، وسأسلك دين ستريت، ثم سأنعطف يساراً في نهاية الشارع، وأعبر الطريق، وأسلك درب الدراجات وصولاً إلى ملعب الصغار...

رأيت رجلَين يخرجان من سيارة رِنج روفر أثناء انعطافي يميناً خارج البوّابة. هناك رجلان إضافيان يرتديان بذلتَين سوداوَين؛ لا شك في أنهما عميلا سي آي أيه أيضاً. كانت عيونهما مثبَّتة عليّ عندما خرجا من سيارتهما وشرعا بالسير في الشارع متوجّهَين نحوي. فاستدرتُ وبدأت بالركض في الاتجاه المعاكس... ومن ثم توقفتُ مجدداً، فهناك عميلا سي آي أيه آخران يقطعان الرصيف أمامي على بُعد نحو عشرين متراً. وأثناء وقوفي هناك محدّقاً إليهما، شرعا بالسير أيضاً في اتجاهي.

ألقيت نظرة سريعة إلى الوراء في اتجاه الرجلَين الآخرَين؛ فلاحظت أنهما كانا على بُعد خمسة عشر متراً.

فجأة سمعتُ صراخاً، وحين نظرت من فوق كتفي رأيت زانِتي وغوو يخرجان

من المنزل.
لقد وقعتُ في الفخ مجدداً.
كان هناك رجلان إلى يساري، ورجلان إلى يميني، وزانِتي وغوو ورائي.
كل الطرقات مقطوعة، وكلهم يقتربون مني بسرعة.
لقد باتوا على بُعد خمسة عشر متراً... اثنَي عشر متراً...
ووجدتُ نفسي أمام خياري الوحيد. يميناً أو يساراً، لا أهمية لذلك؛ إذ يجب أن أركض في اتجاههما فحسب، وأمرّ بجانبهما، وأواصل الركض.
عشرة أمتار...
هل باستطاعتي المرور بجانبهما؟
تسعة أمتار...
ربما لا. بالتأكيد لا.
ثمانية...
وحتى ولو فعلتُ...
سبعة...
لا تفكر، قُم بذلك فحسب.
فأخذتُ نفَساً عميقاً، واستعددتُ للركض... ومن ثم توقفت لدى سماعي هدير محرك سيارة مسرعة. فنظرتُ في اتجاه الطريق إلى يميني ورأيت سيارة بي أم دبليو سوداء، مزوَّدة بنوافذ تحمل مسحة لون، تتجه نحوي بسرعة قصوى. لم تُبطئ من سرعتها أثناء دُنُوّها من عميلَي السي آ ي أيه، ولو لم يخرجا عن الطريق في اللحظة الأخيرة، راميَين نفسيهما جانباً لصدَمتْهما.
راقبتُ سيارة البي أم دبليو محتاراً أثناء توقّفها أمامي مباشَرةً، وإحداث إطاراتها صوتاً حادّاً. وكان الباب الخلفي يُفتح أثناء توقف السيارة. وعندما توقفتْ- تواصلت سرعةُ دوران المحرك بالازدياد- فُتح الباب على اتساعه. وفيما كنت واقفاً هناك مسمَّراً في مكاني، ناداني صوت هادئ من مؤخّر السيارة قائلاً لي:
«هل يمكنني أن أعرض عليك أن أُقلّك يا ترافيس؟».
لم يسبق لي أن سمعت الصوت، ولكنني كنت واثقاً إلى حد ما من هوية صاحبه. فأثناء انحنائي وإلقائي نظرة إلى الداخل، تأكدت شكوكي. للرجل في مؤخّر السيارة شعر رمادي وعينان رماديّتان فولاذيّتا اللون، ويرتدي البذلة الداكنة نفسها التي كان يرتديها في الجنازة.
كان هناك رجلان آخران في السيارة. لم أعرف ذاك الجالس على مقعد الركّاب، ولكن السائق هو الرجل الأصلع الذي دعا نفسه أوِين سميث، وسبق له أن جاء إلى المكتب وقال لكورتني إنه يعمل في شركة تأمين.
عندئذٍ، سمعت أصواتاً تتعالى، وأشخاصاً يصيحون، وآخرون يركضون... إنهم عملاء السي آي أيه.
ابتسم لي الرجل الجالس في السيارة وقال: «أودّ القول إن لديك نحو أربع ثوانٍ لتتخذ قرارك يا ترافيس. ادخل السيارة واحصل على بعض الإجابات، أو ابقَ

هنا وجازف مع السي آي أيه. الأمر متوقف عليك». وألقى نظرة من فوق كتفيّ. «ثانيتان...»

فحدّقتُ إليه والأفكار تتسارع في رأسي.

يستحيل دخولي السيارة، فأنا لست بهذا الغباء. فآخر ما سأقوم به يوماً هو دخول سيارة مليئة بعملاء أمنيين مارقين، سبق لأحدهم أن انتهك حرمة جنازة والدَيّ، في حين أن الآخر كذب عليّ في شأن هويته وما يفعله. أعني، كم سأكون غبيّاً إذا فكرتُ في دخول سيارة تحتوي على أشخاص مماثلين؟

لقد شعرتُ بالحركة ورائي أكثر مما سمعتُها، وأثناء محاولة غوو الإمساك بي، لافّاً ذراعه حول عُنُقي، أفلتُّ منه ومن قبضته المُحكَمة. وقبل أن أعي ما أقوم به، ألقيتُ نفسي في مؤخّر السيارة، فانطلقتْ كالصاروخ، دافعةً إيّاي بقوة إلى ظهر المقعد، وأصبح كل شيء جنونياً في الثواني الثلاثين التالية.

فقد زادت البي أم دبليو سرعتها إلى أقصى حدّ، وراح محركها القويّ يزعق. وبعد ذلك توقّفت السيارة مجدداً، وأصدرت إطاراتها صوتاً حادّاً ما إن ضغط السائق على المكابح. لقد دفعت بي الفرملة الفجائية إلى الأمام، وأثناء تدحرجي وانزلاقي جزئياً على مقعد الركّاب الخَلفي، سمعتُ دويَّين مكتومَين تتاليا بسرعة، ويشبهان الفرقعة المتفجرة التي تصدر عن الألعاب نارية. بدا الصوت صادراً من مقعد الركّاب. ولكنْ أثناء محاولتي الجلوس بشكل مستقيم لرؤية ما حدث، وضع الأصلع جهازَ نقلِ حركة البي أم دبليو بصيغة التحرك في الاتجاه المعاكس، ونظر من فوق كتفه، وشرع بتحريك السيارة بسرعة قُصوى. لقد أفقدتني الحركة الفجائية توازني مجدداً، فوقعتُ أرضاً. ومع استمرار السيارة بالانطلاق في الاتجاه المعاكس، استدرت وأمسكتُ بمِسند الذراع، وسحبت نفسي وجلست على المقعد الخلفي. هذه المرة، عندما ضغط الأصلع على المكابح، تمكنت من المحافظة على وضعية جلوسي بشكل مستقيم.

وهذه المرة، تمكنتُ من رؤية ما يجري.

كنا قد توقفنا بجانب سيارة الرِنج روفر تماماً، والرجل الجالس على مقعد الركّاب في البي أم دبليو منحنٍ إلى خارج النافذة وفي يده مسدس. صوّب سلاحه نحو الرِنج روفر وأطلق النارَ على إطارَيها المرئيَّين.

قال الرجل المسلح وهو ينحني إلى الوراء رافعاً زجاج النافذة: «حسناً، لِنذهبْ».

فاستدار الأصلع بالبي أم دبليو صاعداً على الرصيف وصادماً وعاء قُمامة، ثم ضغط بقدمه على دواسة الوقود فانطلقت السيارة على امتداد الشارع بأقصى سرعة.

«هل أنت بخير؟». سألني الرجل رماديّ العينَين.

عن قُرب، وجدتُ أنه أكبر سنّاً مما ظننتُ في بادئ الأمر. فوجهه الخالي من أية تعابير مخطَّط بالتجاعيد، وشعره الرمادي مرقَّط بلون أبيض. وبالرغم من بُدُوّه مُنهَكاً للوهلة الأولى، كان هناك أمر ما في شأنه لا يمكن تحديده ينضح قوةً وثقة بالنفس. إنه من نوع الرجال الذين يُمسكون بزمام الأمور على الدوام- كما أعتقد- ولا يحتاج أبداً إلى رفع صوته كي يُتِمّ أمراً ما.

قال بهدوء: «ترافيس، هل أنت بخير؟».

فأومأتُ برأسي، مُلقياً نظرة سريعة إلى خارج نافذة السيارة على الحقول والوشائع التي نمر بجانبها. كنا متجهين إلى خارج كِل كروس؛ إلى داخل الريف المجاور.

فسألت: «إلى أين نحن ذاهبون؟».

فأجاب الرجل رماديّ العينَين: «الأمر متوقف عليك. كل ما يتعيّن عليك القيام به هو التفوّه بكلمة فنُنزلك حيثما تشاء». وابتسم. «ضمن المعقول بالطبع. أعني، إذا طلبتَ العودة إلى المنزل في كِل كروس، فسأجد نفسي ربما أقول لك لا. ولكن يمكننا إقلالك إلى أي مكان آخر؛ إلى منزل جدَّيك، أو المكتب في نورث واك... كما قلتُ، الأمر متوقف عليك كلّياً».

«وماذا لو لم أشأ الذهاب إلى أي مكان؟».

فهز كتفَيه مجيباً: «إذاً، يمكننا التجوّل بالسيارة لبعض الوقت، والاستمتاع بالمنظر الطبيعي، وتبادل أطراف الحديث قليلاً حول بعض الأمور».

«أي أمور؟».

«أعتقد أنك تعرف الإجابة عن هذا السؤال؟».

ألقيت نظرة سريعة على ساعتي. إنها السابعة وخمس وخمسون دقيقة صباحاً. وجدتي وجدّي ينهضان قرابة الساعة الثامنة أو الثامنة والنصف في العادة. لذلك، إذا قصدتُ المنزل في الحال، فقد أدخل من دون أن يعرفا أنني كنت في الخارج. ونظرت حَولي إلى الرجال الثلاثة في السيارة: الأصلع، والمسلَّح، ورماديّ العينَين. هل أنا في مأمن معهم؟ لو كان هناك الأصلع والمسلَّح فقط لَقلتُ لا؛ فأنا لم أثق بذَينك الاثنَين إطلاقاً. ولكن، بالنسبة إلى الرجل رماديّ العينَين فالأمر مختلف. أنا على ثقة تامة بأنه فظّ وخطير بقَدْر الآخرَين؛ هذا إذا لم يكن أكثر فظاظة وخطورة منهما، ولكن فطرتي أنبأتني بأنه تحت كل ذلك يوجد رجل صالح ولطيف في الأساس.

والسؤال هو: هل يمكنني الوثوق بفطرتي؟

هل يُفترض بي المجازفة أملاً في الحصول على بعض الإجابات؟

أم يُفترض بي الذهاب إلى المنزل فحسب؟

بالطبع، هناك إمكانية أن يكون رماديّ العينَين كاذباً ولا يعتزم أبداً اصطحابي

إلى حيث أشاء. ونظرتُ إليه، متذكراً نُصح أمي لي بعدم الحكم على الأشخاص استناداً إلى مظهرهم. هل أسيء الحكم عليه؟ هل اللطف الذي أعتقد أنني أراه فيه مجردُ تمويه مُعَدّ بعناية.

فقلت له: «سأتحدث إليك بشرط واحد».

«وما هو؟».

«أن تُخبرني بما كنتَ تفعله في جنازة والدَيّ. هل أنت موافق؟».

فأومأ برأسه قائلاً: «تماماً».

قال لي إن اسمه ونستون- لم أصدّق ذلك للحظة واحدة- وسبب وجوده في الجنازة -كما ذكر- أمر كنت أتوقّعه.

«كنا على عِلم بالتحقيق الذي يُجريه والداك حول بشير كمال، وأردنا معرفة ما إذا كان أي شخص آخر على عِلم بذلك. ففي تلك الحال، كانت هناك فرصة بإمكانية ظهوره أثناء الجنازة».

«إذاً، لقد حضرتَ مع كاميرا مخبَّأة وصوّرتَ كل شيء».

فنظر إليّ مستغرباً وقال: «أرأيتَ الكاميرا!؟».

فقلت ببرودة: «أجل، رأيتُ الكاميرا».

عندها، تنهّد ونستون وتابع كلامه: «لا بد أن تكون قد ظننتَ أنني قاسي القلب».

فقلت عاجزاً عن إخفاء المرارة في صوتي: «أحاول عدم التفكير فيك البتة. هل رأيتَ أي شخص مثير للاهتمام في الجنازة؟».

فهزّ رأسه مجيباً: «بقدْر ما نعرف، لم يكن هناك مَن لم يكن يُفترض به التواجد في الجنازة».

«باستثنائك».

لم يُجب.

قلت: «مَن هو الشخص الذي اعتقدتَ أنه قد يحضر؟».

«هذا سؤال جيد».

«هل ستُجيب عنه؟».

«هل تريد مني أن أُجيب؟».

لم أقل أي شيء، بل نظرت إليه فحسب، منتظراً إيّاه ليتابع كلامه.

بعد لحظات قليلة، أومأ برأسه ببطء وقال: «هناك، كما تعرف، عدد من المنظمات التي تهتم بمكان وجود السيد كمال». وكفّ عن الكلام قليلاً، محدّقاً إلى خارج النافذة، ومن ثم تابع: «نحن نعرف معظم هذه المنظمات، كما أننا متأكدون من سبب بحثهم عن بشير، وما يخططون للقيام به عندما يعثرون عليه. ولكن، من الممكن تماماً أن يكون هناك فُرقاء آخرون مهتمّون به ولا نعرف أي شيء عنهم، وقد يشكلون أيضاً خطراً أكبر على السيد كمال».

فسألتُه: «من أنتم الذين لا تعرفون؟».

«عفواً؟!». قال متظاهراً بالارتباك.

«أنت تواصل الحديث بصيغة المتكلّم الجمع كما لو أنك تمثّل سلطة رسمية من نوع ما، ولكنك لم تُرِني أية بطاقة تعريف أو أوراق ثبوتية أو أي شيء».

فنظر ونستون إليّ مفكراً بعمق. لم أتوقع منه قط أن يخبرني بأي شيء عن أوميغا، ولكن لو لم أسأله لاعتبر على الأرجح أنني لم أسأله لأنني أعرف عن أوميغا مُسبَقاً، ولم أشأ أن يعرف ذلك. لم أكن واثقاً من سبب عدم رغبتي في أن يعرف ذلك، ولكن كما قال لي أبي ذات مرة: لا تُظهِر كل أوراقك ما لم تكن مضطراً إلى ذلك. من الجيد على الدوام إبقاء الخصم في حالة من الجهل.

قال ونستون: «دَعني أسألك عن أمر ما. إن أَرَيتُكَ بطاقة تعريفي، فهل سيجعلك ذلك تشعر أنك بالأمان؟».

فهززت كتفَيّ مجيباً: «ليس بالضرورة».

«هل أراكأرا الأشخاص الذين كانوا في منزلك منذ قليل أوراقهم الثبوتية؟».

«حسناً، أجل... قالوا لي إنهم عملاء سي آي أيه، وأروني بطاقات تعريفهم».

«هل جعلك ذلك تعتقد أن باستطاعتك الثقة بهم؟».

«لا».

«إذاً، بالرغم من رؤيتك بطاقات تعريفهم، فأنت لا تزال تهرب منهم».

«بالطبع سأهرب منهم. فقد اقتحموا منزلي، وصوّبوا مسدساً نحوي. ماذا كان يُفترض بي أن أفعل؟ أن أقدّم لهم كوباً من الشاي؟».

فابتسم ونستون وسألني: «هل كنتَ ستهرب منهم لو لم يصوّبوا مسدساً نحوك؟».

«إلامَ ترمي؟».

«من يعمل المرء لصالحهم لا يُحدث أي فارق؛ سواء أكانوا أم آي 5، أو أم آي 6، أو سي آي أيه، أو أف بي آي... فكلهم متماثلون في الجوهر. إنهم يَقلقون على أنفسهم لا غير. وإذا أراك أحدهم شارة أو بطاقة تعريف حكومية، فذلك لا يمنحك أية ضمانة. إنها ليست ضمانةَ ثقة، أليس كذلك؟».

«إذا شئتَ».

«أنت هنا، أليس كذلك؟ لستُ تابعاً لأم آي 5 أو أم آي 6 أو سي آي أيه... ولا أوراق ثبوتية لديّ. ولكنك تجلس هنا وتتحدث إليّ، أليس كذلك؟».

«لا يعني ذلك أنني أثق فيك».

فضحك بهدوء وقال: «بالطبع. ولكنك لا تثق في سي آي أيه أيضاً، أليس كذلك؟».

«لا علاقة لهذا الأمر بالثقة. فأنا لا أحب الأشخاص الذين يقتحمون منزلي ويبحثون بين أغراضي». ونظرتُ إليه متفرّساً في وجهه بعناية لتخمين رد فعلهم تابعت: «ولا أحب الأشخاص الذين يفتشون مكتب والدَيّ أيضاً».

حدّق إليّ ونستون فحسب من دون أن يُفشي وجهه بأي سرّ.

فقلتُ: «إذاً، لن تخبرني عمّن تعمل لصالحه، أليس كذلك؟».

فأجاب ببساطة: «لا أهمية لذلك. كل ما تحتاج إلى معرفته هو أن قلقنا

الوحيد- الأمر الوحيد الذي نأبه له- هو على سلامة ورفاهية هذا البلد وشعبه». وانحنى نحوي، ناظراً إلى عينَيّ مباشَرةً وتابع: «لا يمكنني إثبات ذلك لك، ولا يمكنني حملك على تصديقي. سيكون عليك أن تصدّقني فقط». وكفّ عن الكلام، ناظراً إلى عينَيَّ بتركيز أكثر، وتابع: «نحن الأشخاص الصالحون يا ترافيس. ونحن نقوم بالأمور الصائبة».

فقلت بهدوء، محدِّقاً إليه بالمِثل: «مهما كلّف الأمر؟».

لم يُجبني، بل واصل النظر إلى عينيّ بوجه خالٍ من أي تعبير؛ كما لو أن كلماتي لم تعنِ له أي شيء. ولكنني واثق تماماً من رؤيتي حاجبه الأيسر يتحرك. فواصلتُ التحديق إليه للحظات إضافية قليلة، ومن ثم أشحت بنظري ونظرت خارج النافذة.

كنا لا نزال في الريف، ولكننا لم نَعُد متوجّهين بعيداً عن كِل كروس، بل استدرنا وتوجّهنا إلى بارتون عبر قرى صغيرة وطرقات متعرّجة على الجانب الشمالي للبلدة.

قلت ملتفتاً إلى ونستون: «ما سبب اهتمامك ببشير؟».

فابتسم لي مجدداً وقال: «ما سبب اهتمامك أنت؟».

«سألتُك أولاً».

«إنه أمر مُنصف». قال، ثم أومأ برأسه ببطء كما لو أنه يفكر في شيء ما، وبعد ذلك تابع: «بالرغم من أنه سبق لي أن أجبت عن سؤالك بطريقة ما، سأعود وأكرر: السيد كمال مواطن بريطاني، ويتمثل اهتمامنا الوحيد بالدفاع عن المواطنين البريطانيين وحمايتهم». وهزّ ونستون كتفَيه. «ما الذي يمكنني أن أقوله لك سوى ذلك؟».

«هل تعرف أين هو؟».

«هل تعرف أنت؟».

عندئذٍ تبادلنا النظرات بصمت، وتساءل كل منا عما يعرفه الآخر. فلكلانا أسرارنا، وكلانا نعرف ذلك.

ثم قال ونستون بهدوء: «إذاً، هل ستُخبرني عن سبب بحثك عن السيد كمال؟».

«تم استخدام أبي وأمي للعثور عليه. وقد تُوفّيا أثناء عملهما على القضية». وكففتُ عن الكلام، آخذاً نفَساً عميقاً للمحافظة على رباطة جأشي، ثم تنحنحتُ وتابعتُ الكلام. «أنا أحاول فحسب إنهاء ما لم يتمكنا من إتمامه، هذا كل شيء».

«لن يكون هناك أي شيء ذا معنى يستطيع المرء قوله عن الموت المفاجئ لشخص يحبّه». قال ونستون وفي عينَيه نظرة تعاطف صادقة. «هذا ما اختبرتُه بأية حال. إذ لا تكون الكلمات كافية أبداً، ولا سيما كلمات شخص غريب. ولكنني أعرف حقاً ما يشعر به المرء يا ترافيس. صدّقني، أعرف ما تمرّ به». وكفّ عن الكلام، محدّقاً إلى البعيد، ثم تابع: «فقدتُ والدَيّ في سنّ مبكّرة. كنت في

العاشرة من العمر عندما ماتا، كنت أصغر سنّاً منك بقليل، ولكن الظروف لم تكن مختلفة جداً. كانا يقودان أثناء الليل، وخرجت سيارتهما عن الطريق...»

«هل تُوُفّي والداك بحادث تحطّم سيارة؟!».

فأومأ برأسه. «كان حادثاً قابلاً للفهم أكثر من حادث والدَيك بقليل... إذا كانت عبارة قابلاً للفهم هي العبارة المناسبة. لم يخرجا عن الطريق فحسب ويصطدما بشجرة لسبب غير واضح، بل لأن والدي كان ثملاً. كان ذلك خطأه من دون شك». ونظر ونستون إليّ، وتابع: «ولكن إلقاء الملامة على شخص ما لا يُحدث أي فَرق. إنه لا يبدّل أي شيء، ولا يحملك بالتأكيد على الشعور بأنك أفضل حالاً».

لم تكن هناك أية إلماعةٍ تشير إلى التظاهر أثناء إخباره إياي بكل ذلك، ولم يكن هناك ما يوحي بأنه يختلق أموراً. ولكنْ في حين كنت على ثقة تامة بأنه لا يكذب عليّ في الواقع، إلا أنني لم أتمالك نفسي من الشعور بوجود خَطْب ما. إنه نوع الشعور الذي لا يكنّ ولا يستكين في مؤخّر دماغك، قائلاً للمرء إنه أغفل شيئاً ما؛ شيئاً ما هامّاً حقاً، ولكن من دون أن يتمكن من معرفة ماهيّته مهما بذل من جهد للتركيز.

وشرعتُ بتذكّر ما قاله لي، مستعيداً كلماته في ذِهني- كان حادثاً قابلاً للفهم أكثر من حادث والدَيك بقليل... إذا كانت عبارة قابلاً للفهم هي العبارة المناسبة- ولكن هذا التصريح هو أكثر ما حصلتُ عليه قبل بدء ونستون بالكلام مجدداً، وأُرغمتُ على إعادة تركيز انتباهي على ما يقول.

قال بجدّيّة: «اسمع يا ترافيس، أنا مُعجَب بما تقوم به. أنا حقاً كذلك. وأفهم تماماً سبب قيامك بالأمر. فأنت تريد إتمام العمل الذي شرع به والداك. وهذا أمر جدير بالمدح».

فقلت بتهكّم: «يُسعدني كثيراً أن يكون هذا رأيكَ بي. أعني أن استحسانك هذا يعني لي الكثير حقاً».

«حسناً»، قال، رافعاً يدَيه. «ربما أستحق ذلك».

«والآن، ستطلب مني الكفّ عن البحث عن بشير، كما أفترض».

«ليس بالتحديد، لا».

«ماذا يُفترض بذلك أن يعني؟ إما ستطلب مني ذلك أم لا. لا فَرْق لديّ بأية حال سواء أطلبتَ مني ذلك أم لا، لأنه يستحيل عليّ الكفّ...»

«أربع وعشرون ساعة».

«ماذا؟!».

«كل ما أطلبه منك هو تعليق تحقيقك في الساعات الأربع والعشرين التالية. بعد ذلك، يمكنك مواصلة التحقق من الأمور كيفما شئت، وأعدك بأنك لن ترانا أو تسمع بنا ثانيةً».

إن كل ما تمكنتُ من القيام به أثناء إخباره إياي بهذا الأمر هو الجلوس هناك محدِّقاً إليه، ومتظاهراً بالإصغاء إلى ما يقوله، ولكنني في الحقيقة بالكاد سمعتُ

أي شيء، بسبب الصياح والهتاف المدوّيين في رأسي؛ أربع وعشرون ساعة! **أربع وعشرون ساعة**! كنت أعرف ذلك! **كنت أعرف ذلك**! غداً **هو** اليوم الأخير!

مُرغماً نفسي على التزام الهدوء، سألت ونستون: «ما الهامّ في الساعات الأربع والعشرين التالية؟».

«أخشى ألا أكون قادراً على الخَوض في المزيد من التفاصيل. ولكنّ كل ما يمكنني قوله لك هو أنك إذا لم تُذعن لطلبنا، فلن تعرّض السيد كمال للخطر فحسب، بل قد تعرّض نفسك للخطر أيضاً».

«هل هذا تهديد؟».

فتنهّد وقال: «أعرف أنك لا تثق بي كثيراً، ولكن يمكنني التأكيد لك أنني لن أُنزل من مستواي كثيراً لدرجة قيامي بتهديدك. كل ما أحاول القيام به هو...»

عندئذٍ، رنّ هاتفي المحمول.

أخرجتُه من جَيبي، وتحققت من هوية المتصل. إنه جدّي. لقد أغفل قلبي خفقتَين.

فقال ونستون: «من الأفضل أن تجيب، سيَقلق إذا لم تفعل».

نظرت إليه، متسائلاً عن كيفية تمكنه من معرفة...

غير أنه قال لي وهو يومئ برأسه في اتجاه الهاتف الذي يواصل الرنين في يدي: «هيا، من غير المُنصف إبقاؤه منتظراً».

لم أشأ أن أجيب، ولكنني عرفت أن ونستون مُحِق.

فشدّدتُ عزيمتي، ومن ثم ضغطت على زر الإجابة، ووضعت الهاتف على أُذُني.

قلت عبر الهاتف: «هِيه يا جدّي، اسمع، أنا آسف حقاً...»

غير أنه قاطعني بسرعة: «هل أنت بخير؟».

«أجل، أنا بخير».

وسمعتُه يُطلق تنهيدة ارتياح. وبعد ذلك، ثارت ثائرته على الفور. «أين أنت بحق الله يا ترافيس؟ لقد أعيانا قلقنا عليك».

«آسف...»

«أين أنت؟».

«سأشرح لك كل شيء عندما أعود».

«ستعود بالتأكيد. وعندما تنتهي، سأشرح لك القليل من الأمور». وتنهّد بعمق مجدداً، ثم تابع: «لقد وثقتُ فيك يا ترافيس. إنه خطئي، كما أفترض. كان يُفترض بي أن أعرف...»

فقلت بغضب: «لستُ صغيراً يا جدّي».

عندها، سألني بحدّة: «إذاً، لماذا تتصرف كما لو أنك صغير؟».

«من غير المُنصف...»

«هل من المُنصف باعتقادك أن تَعدني ببقائك في المنزل ومن ثم تتسلّل إلى الخارج من دون ترك شرح وافٍ؟».

«حسناً، لا...»

«هل من المُنصف باعتقادك أن تجعلني وجدتك نعيش في نار الخوف مرة ثانية؟».

نزلت كلماته في قلبي كقطعة جليدية، وصُعقتُ جداً للحظات؛ لدرجة عدم تمكّني من الكلام. فأنزلتُ الهاتف إلى حضني وحدّقتُ إلى الفراغ، فاقداً الحسّ تماماً. لقد جُرحت مشاعري كثيراً، ولم أتمكن من الكلام. لم أعرف السبب. هل هو مُحِق؟ هل أنا غير مُبالٍ إلى هذا الحد؟ ولماذا أنا غاضب جداً؟ هل أنا غاضب من نفسي بسبب معاملتي جدتي وجدّي بهذا القَدْر من عدم الاهتمام؟ أم أنني غاضب من جدّي لأنه جعلني أدرك مدى عدم مبالاتي؟ أم أنني غاضب منه بسبب تذكيره لي بالفترة العصيبة التي مررتُ بها؟

لقد تخطت كل هذه الأسئلة قدرتي على التفكير.

أسئلة عديدة تتخطى قدرتي على التفكير.

سمعت جدّي يقول: «ترافيس، هل ما زلتَ على الخط؟ ترافيس؟».

فرفعتُ الهاتف إلى أُذُني.

قال جدّي: «هل تسمعني يا ترافيس؟ هل تسمعني؟».

فتمتمتُ: «أجل يا جدّي. أنا أسمعك».

«اسمع يا ترافيس، أنا آسف، اتفقنا؟ ما كان يُفترض بي قول ذلك. لم أعنِ ما قلتُه. إن الأمر فحسب... حسناً، في الواقع...»

فقلت من دون تفكير: «عليّ إنهاء المكالمة الآن يا جدّي. سأعود إلى المنزل بعد قليل. أراك لاحقاً، اتفقنا؟».

فقال بسرعة: «تمهّل يا ترافيس، لا تنهِ المكالمة...»

غير أنني ضغطتُ على زر إنهاء المكالمة وأقفلتُ الهاتف.

أثناء وضعي هاتفي المحمول جانباً وتحديقي إلى خارج النافذة، وجدتُ أننا ندنو من مستديرة نورث روود. شعرت بأن رأسي فارغ، وأنني مستنزف القوى. وكل ما تمكنت من القيام به للحظات هو مشاهدة حركة المرور عند المستديرة... سيارات وعربات نقل مُقفَلة، شاحنات وحافلات، كُتَل كبيرة من المعدن الملوَّن تتلألأ في شمس الصباح...

بعد قليل، سمعتُ ونستون يقول: «ليس الأمر سهلاً، أليس كذلك؟».

فقلت بشرود ذِهن: «همممم».

«أن تكون صغيراً ليس أمراً سهلاً».

فنظرت إليه؛ إلى الرجل رماديّ العينَين، ورماديّ الشعر... الرجل الرمادي. ووجدتُني أتساءل في سري: من أنت؟ أعني، حقاً... من أنت؟

سألني: «هل أنت بخير؟».

فأجبته: «هل يمكنني الذهاب الآن؟». بدا صوتي بعيداً بشكل غريب، كما لو أنه ليس لي تقريباً.

فسألني ونستون: «إلى أين تريد الذهاب؟».

فهززتُ كتفَيّ وأجبت: «إلى أي مكان. لم أعُد أريد البقاء في هذه السيارة فحسب».

«هل تريد منا أن نُقلّك إلى منزل جدتك وجدّك؟».

«لا».

«هل تريد دراجتك؟».

فقلت له: «مزّقت السي آي أيه عجلتَيّ».

فالتفتَ إلى الرجل الأصلع وقال له: «أوقف السيارة. توقّف هناك».

نفّذ الرجل الأصلع ما طُلب منه، وأبطأ وناور بسيارة البي أم دبليو لدخول موقف حافلات. وأثناء توقفنا، رأيت ونستون يُلقي نظرة سريعة عبر الزجاج الخَلفي. تبعتُ اتجاه نظرته، فرأيت عربة نقل مُقفَلة سوداء من طراز مرسيدس تتوقف وراءنا. لم يكن هناك مجال للشك في أنها العربة المُقفَلة نفسها التي سبق لي أن رأيتها في خلفيّة صورة المستودع، وكنت مستعداً للمراهنة على ذلك. كان هناك رجلان في عربة النقل، وخرج منها السائق الذي يضع نظارة من دون إطار، ووجهه هزيل. لم يسبق لي أن رأيته من قَبل، وكان الرجل الجالس على مقعد الركّاب هو رجل اللحية العُثنون.

قلت لونستون: «ماذا يجري؟».

فابتسم لي مجيباً: «نحن نفتخر بخدمة زبوننا».

«ماذا؟!». قلتُ عابساً في وجهه.

فأومأ برأسه، مشيراً إلى أنه يُفترض بي النظر إلى الخارج عبر الزجاج الخَلفي مجدداً. وعندما فعلتُ ذلك، أدركت ما كان يعنيه. فقد فتح السائق الباب الجانبي لعربة النقل وأخرج دراجة. إنها تشبه دراجتي كثيراً. وعندما شرع بدفعها على الرصيف نحو البي أم دبليو وتمكنتُ من رؤيتها بشكل أوضح، أدركت أنها دراجتي حقاً. لقد زُوّدت بعجلتين جديدتين؛ حتى إنها بدت نظيفة.

سألني ونستون: «هل تُعجبك؟».

فتمتمتُ: «أجل... أجل، شكراً... ولكن كيف...»

فأجاب ونستون: «نحن واسعو الحيلة جداً».

كان رجل اللحية العُثنون قد وصل إلى البي أم دبليو ووقف هناك على الرصيف مع دراجتي، منتظراً بصبر.

فقال ونستون: «إذاً، انطلق».

فنظرت إليه.

وابتسم قائلاً: «أسعدني كثيراً التحدث إليك يا ترافيس».

فتحت باب السيارة، وشرعت بالخروج.

فسمعت ونستون يقول: «لا تنسَ ما قلتُه لك».

توقفتُ مُلقياً نظرة سريعة إلى الوراء في اتجاهه.

فقال ناظراً إلى عينَيّ: «أربع وعشرون ساعة، اتفقنا؟».

واصلتُ التحديق إليه للحظات قليلة، ومن ثم أنزلت نظري وأومأتُ برأسي في اتجاه معصمه الأيسر، وقلت له: «عليك شدّ حِزام ساعتك؛ إذ يبدو لي رَخواً قليلاً».

راقبتُه وهو ينظر إلى معصمه، ورأيت نظرة دهشة تبدو في عينَيه عندما لاحظ ظهور وشم أوميغا. ولكن، أثناء استدارته في اتجاهي وعلى وجهه نظرة تساؤل، خرجت من السيارة وأغلقت الباب.

لم أكن واثقاً تماماً من المكان الذي سأذهب إليه عندما ركبت دراجتي وانطلقتُ على الرصيف. وكل ما أعرفه بالتأكيد هو رغبتي في أن أكون في مكان ما حيث لا يستطيع رجال أوميغا رؤية ما أفعله. لذلك، بدلاً من مواصلة السير في الاتجاه الذي كنا نسلكه فيكون من السهل عليهم تتبّع أثري، سلكتُ الاتجاه المعاكس على الطريق التي قدِمنا منها.

لهذا السبب، مررتُ بجانب عربة النقل المُقفَلة السوداء من طراز مرسيدس.

وعندئذٍ لاحظتُ الانبعاج في هيكلها.

لم أكن أعي ملاحظتي له في بادئ الأمر؛ إذ كنت أركز على المكان المحيط بي، ممعناً النظر إلى تصميم الطرقات والمستديرة أمامي، وباحثاً عن أي طريق ضيّق جداً لا تستطيع السيارات وعربات النقل المُقفَلة سلوكه. وعندما مررتُ بجانب عربة النقل، ورأيت ممراً ضيّقاً يؤدي إلى نفق للمشاة، أدركت فجأةً ما رأيته.

انبعاج في هيكل العربة فوق الإطار الأمامي الأيسر للمرسيدس.

ليس انبعاجاً كبيراً، ولا شيء غير عادي في شأنه. للحظات قليلة، لم أكن أملك أية فكرة عن سبب تفكيري فيه. فهو نوع من الضرر الذي تتسبب به حادثة اصطدام طفيفة، ويراه المرء على السيارات وعربات النقل المُقفَلة كل يوم. انبعاج في الهيكل، ومعدن متغضّن، وطلاء مخدوش...

بعد ذلك، اتّضح لي الأمر فجأةً.

الضررُ ناجم عن حادثةِ اصطدام...

طلاء مخدوش...

ضغطتُ فجأة على المكابح وتوقفتُ، ونظرتُ إلى الوراء في اتجاه موقف الحافلات. لم تَعُد عربة النقل موجودة ولا البي أم دبليو، وموقف الحافلات فارغ. نظرت على امتداد الطريق، وظننتُ أنني لمحت عربة النقل السوداء بعيداً، ولكنها كانت بعيدة جداً لدرجة عدم مُبالاتي بما إذا كنت قد رأيتها أم لا.

آملاً في بقاء صورة ما رأيته ماثلة في ذِهني، أغمضتُ عينَيّ بسرعة، وحاولتُ تخيُّل لحظة مروري بجانب المرسيدس ورؤيتي الانبعاج فوق الإطار. لقد وجدتُ صعوبة حقيقية في التركيز وسط ضجيج حركة المرور التي تملأ المكان حَولي، ولكنني بذلت قُصارى جهدي لمنع الضجيج من التأثير في تركيزي على ما هو موجود داخل رأسي. أخيراً، عادت الصورة التي أبحث عنها. فالانبعاج المثلَّم في المعدن الأسود البرّاق هو بحجم وعمق وعاء فاكهة مقلوب رأساً على عَقِب... كَشط على الهيكل، فيه شيء من اللون الفضّي... وهناك على المعدن المخدوش بخشونة...

هل أتخيّل ذلك؟

فحبستُ أنفاسي، وكبّرتُ في ذِهني صورة ما اعتقدتُ أنني رأيته.

لم يكن هناك الكثير منه، ويصعب التحقق منه بوضوح.
ولكنني لم أكن أتخيّل.
هناك بلا ريب بُقَع صغيرة صفراء على المعدن المخدوش.
أصفر...
لون سيارة أمي.

بعد خمسين ياردة، انعطف يميناً...

شعرت بالغرابة نوعاً ما أثناء استماعي إلى جهاز الملاحة الخاص بأبي بينما كنت أقود دراجتي. لم أتمكن من رؤية الجهاز في الواقع، فقد وضعتُه في جَيب القميص العُلوي، ولذلك لم أكن أملك خارطة توجّهني، بل صوت امرأة فحسب غريباً إلى حد ما (إذ كانت تلفظ لسبب ما كلمة مستديرة على الشكل التالي مستيرة).

بعد مئة ياردة، ادخل المستيرة من ثم اسلك المَخرج الثاني...

بدا الأمر غريباً أيضاً لأنني واصلت التفكير في فكرة غبية ظلت تلاحقني، وهي أنه عندما تدرك الأقمار الاصطناعية للملاحة التي يستخدمها جهاز الملاحة أنني أقود دراجة ولا أقود سيارة، فسيُطلَب من سيدة جهاز الملاحة إبلاغي بإطفاء الجهاز بسبب إساءة استعمال هذه الخدمة؛ عند المسرب الاحتياطي التالي، انزل عن دراجتك وأطفئ جهاز الملاحة عبر الأقمار الاصطناعية، **ولا تستعمله** مجدداً ما لم تكن تقود سيارة.

لقد عرفتُ أنها فكرة غبية، لا بل إنها أكثر من ذلك.

ولكنني لم أتمكن من إخراج الفكرة من رأسي.

انعطف إذا أمكن...

وتساءلتُ عما إذا كان عقلي يجعلني أفكر في أمور غبية بهدف تشتيت انتباهي عن الأمور التي لا أرغب في التفكير فيها؛ أي الأمور المعقدة، والأمور المؤلمة، والأمور التي يصعب جداً التفكير فيها...

كسيارة أمي.

والطلاء الأصفر على عربة النقل المُقفَلة من طراز مرسيدس.

واحتمال وجود صِلة بين الأمرين ربما، فقط ربما.

كنت أعرف أن الأمر بعيد الاحتمال إلى حد كبير. ربما يكون لون سيارة الفولفو الخاصة بأمي مميزاً، ولكن ذلك لا يعني أنها الشخص الوحيد في الريف، لا بل في البلد أيضاً، الذي يملك سيارة صفراء. فربما كانت هناك آلاف السيارات الصفراء الزاهية التي تُقاد في الأنحاء، وربما تكون أيٌّ منها متورطة في اصطدام طفيف مع المرسيدس السوداء. وربما يكون الاصطدام قد حدث منذ أشهر. وربما لا تكون المرسيدس قد اصطدمت بسيارة أخرى، وقد يكون الانبعاج ناجماً عن أي شيء؛ عن الاصطدام بجدار، أو عمود، أو سياج...

أعد النظر في الأمر...

في الحقيقة، لا شيء البتة يوحي بوجود علاقة للمرسيدس السوداء بحادث تحطم السيارة الذي قتل فيه أبي وأمي.

مجرّد بُقَع قليلة وصغيرة من الطلاء الأصفر الزاهي...

بالإضافة إلى شعور لا مفرّ منه، شعور بأنني أغفلت أمراً ما قاله ونستون، أمراً

هاماً في الواقع...

وُجهتك قريبة...

وكففتُ عن الدَّوس، وتوقفتُ إلى جانب الطريق، وألقيتُ نظرة سريعة على اللافتة في الجهة المقابلة للشارع عند الزاوية والتي تحمل عبارة **سوتون لين**. لقد قام جهاز الملاحة بعمله، فأخرجتُه من جَيبي وأعدتُ التحقق من العنوان.

سوتون لين، بارتون بي أر 10 6 جي جي

إنه العنوان الثاني والأخير الذي أدخله أبي إلى جهاز الملاحة. حدّقتُ إلى الشاشة للحظات، متخيّلاً أبي وهو يُدخل الأعداد والحروف... ومن ثم أطفأت الجهاز، وأعدته إلى جَيبي، وألقيت نظرة سريعة حَولي. كنت واثقاً من أن أحد العناوين المحفوظة في جهاز الملاحة سيقوم بإرشادي إلى المستودع الذي التقط له أبي صورة فوتوغرافية، ولكن لم يكن هناك سبيل لمعرفة العنوان. والسبب الوحيد لاختياري سوتون لين أولاً هو أنه العنوان التالي على القائمة بعد عنوان بشير. ولكن، أثناء نظري إلى أرجاء، إلى المنظر الطبيعي الصناعي الموحش، شعرت بأنني على ثقة نوعاً ما بأنني في المكان الصحيح. فالطريق تقع في ضواحي منطقة صناعية ناشطة على بُعد نحو ثلاثة كيلومترات شمال البلدة. لم تكن مُقفِرة تماماً- إذ كان باستطاعتي رؤية مبانٍ قليلة مع سيارات وعربات نقل مُقفَلة في الخارج- ولكن معظم المستودعات والمصانع الصغيرة في الشارع لم تَعُد مستخدَمة كما يبدو. كان هناك شعور بعدم الاستعمال والفراغ مسيطرٌ على الجّو، وكانت القُمامة في الشارع تُحدث صوت حفيف هادئاً فيما الهواء يحركها، والعشب الضارّ يسيطر على الرصيف، والأعشاب البرّيّة تنمو في امتدادت الأرض المقفرة.

إنه المكان المثالي لإخفاء شخص ما.

أو للإقفال عليه.

وأثناء مواصلتي النظر إلى الأرجاء، رأيت مُلصَقاً إعلانياً مثبَّتاً على الدرابزين إلى جانب الطريق، فتوجّهتُ إليه لإلقاء نظرة عن كَثب. وكان عبارة عن رسالة مطبوعة على ورقة بقياس أيه 4 وموضوعة داخل ملف بلاستيكي شفاف. وقد جاء فيها:

إعلان أخير عن اعتزامِ هدم في ما يلي الإعلان

يعتزم مجلس بارتون بورو هدم الممتلكات المُدرجة في الجدول أدناه (الممتلكات). تتمثل أسباب الهدم المُعتزَم القيام به بأن الممتلكات واقعة ضمن مخطط التطوير المقترَح لأجل تجديد منطقة سوتون الصناعية. تاريخ الهدم المُقترَح 5 آب/ أغسطس 2013.

الجدول

1 سوتون لين، 1 أيه سوتون لين، 2 سوتون لين،

3 سوتون لين، 4 سوتون لين...

وتتواصل القائمة وصولاً إلى 38 سوتون لين، واعتبرتُ أن القائمة تغطي كل المباني في الشارع. نظرتُ إلى التاريخ مجدداً- 5 آب/ أغسطس- وعلمتُ أنني في المكان الصحيح. فالمستودع موجود هنا، وسيتم هدمه بالإضافة إلى كل

الممتلكات الأخرى في الشارع بتاريخ 5 آب/ أغسطس. هذا ما تشير إليه المدوَّنة على ظهر صورة المراقبة الخاصة بأبي.

5/8 | Dem

أعمال هدم، 5 آب/ أغسطس.

وأخيراً، عرفتُ أيضاً ما يعنيه الجزء الآخر من مدوَّنة أبي.

اليوم الأخير، الرابع؟

إذا هُدم المستودع بتاريخ 5 آب/ أغسطس، فسيكون الرابع من آب هو اليوم الأخير الذي قد يشهد حدوث أي أمر.

من الجيد الحصول أخيراً على إجابة محدَّدة عن تساؤل ما؛ لدرجة أنني نسيت كل شيء آخر لثوانٍ قليلة. لم تتطلّب مني استعادة حسّي بالواقع وقتاً طويلاً، وسرعان ما أدركتُ أن حل لغز مدوَّنة أبي لم يساعدني كثيراً. إذ كنت لا أزال لا أعرف شيئاً في الواقع.

فأنا لا أعرف إذا كانت أوميغا تحتفظ ببشير. وإذا كان الأمر كذلك، فأنا لا أعرف السبب. ربما أطلعني ونستون على الحقيقة؛ إذ ربما تقوم أوميغا بحمايته فحسب، وبالمحافظة على سلامته. ولكنّ هناك احتمالاً أيضاً بأنها لا تقوم بذلك. ربما كان ونستون كاذباً. وإذا كان يكذب في شأن بشير، فهو ربما يكذب في شأن أي أمر آخر أيضاً.

هذا الاحتمال ربما، وربما ذاك...

جرفتني تساؤلاتي بعيداً؛ حتى إنني لم أحدد مكان المستودع بعد.

لا جدوى من التفكير في أي أمر آخر إلى أن أقوم بذلك وأعرف إن كان بشير موجوداً هناك حقاً أم لا.

حاجباً عينَيّ من أشعة الشمس، شرعتُ بتفحّص الطريق أمامي، ممعناً النظر إلى التصميم، ومحاولاً معرفة الموقع المحتمَل للمستودع، والطريقة الفُضلى للدُنُوّ منه من دون أن أُرى.

سبق لي أن نظرت إلى صورة المراقبة الخاصة بأبي عدة مرات؛ لدرجة أنني حفظتُها عملياً عن ظَهر قَلب. لذلك، لم يكن من الصعب جداً بالنسبة إلي الوثوق بوجود المخزن في الجانب الأيمن من الشارع. لا بد للمداخن الطويلة التي تمكنتُ من رؤيتها بعيداً، من فوق كتفي اليسرى، من أن تكون مرئيّة في الصورة إذا كان المخزن في الجانب الأيسر للشارع، ولكنها لم تكن مرئية.

إذاً، لا بد أن يكون المخزن إلى اليمين.

مما يعني أن أبي التقط الصورة بالتأكيد من مكان ما في الجانب الأيسر للشارع. فكرت في ذلك لبعض الوقت، متسائلاً عما إذا كان قد ركن سيارته في المستودع المقابل والتقط الصورة من سيارته، ولكنّ هذا الاحتمال بدا لي بعيداً. فالشارع مُقفِر جداً، ولم يكن مضطراً إلى القيام بذلك. ومن شأن سيارة مركونة في مثل هذا المكان أن تبدو كإبهام مؤلِمة. لذلك، لا بد من أن يكون قد ترك سيارته في مكان آخر، في الجوار، ومن ثم...

ثم ماذا؟ سألت نفسي.

كيف اقترب من المستودع بما يكفي لالتقاط صورة فوتوغرافية من دون أن يُرى؟ ومن أي مكان التقطها؟ وحدّقت مجدداً إلى المباني في الجانب الأيسر للشارع، متسائلاً عما إذا كان قد استخدمها كغطاء له... وعندئذٍ رأيت الدرب. إنه درب ترابيّ ضيّق، على جانبَيه سياج أسلاك شبكية متغضّنة، يقوم على امتداد مؤخّر المباني. وانطلاقاً مما رأيته، إنه يوفّر رؤية جيدة نوعاً ما للمباني في الجانب المقابل للشارع.

لم يكن من الصعب العثور على مدخل الدرب. وما إن شرعتُ بسلوكه على دراجتي حتى بتُّ واثقاً من أنه الطريق الذي سلكه أبي. فبالرغم من حَجب المباني القائمة إلى يميني رؤيةَ الجانب المقابل للشارع جزئياً، إلا أنه كان هناك العديد من الثغرات التي يمكن الرؤية عبرها، لذلك تيقّنتُ من أنني سأتمكن من رؤية المستودع عندما أصل إليه. وفي الوقت نفسه، كنت واثقاً إلى حد ما من وجود غطاء كافٍ كي أرى الجانب المقابل للشارع من دون أن أُرى.

سرتُ ببطء، ملتفتاً إلى اليمين، وعيناي مثبّتتان على المباني في الجانب المقابل للطريق.

لقد انتابني شعور غريب؛ بسبب إدراكي أنني أتبع خُطى أبي تماماً. كانت قدماي تطآن الطريق نفسه الذي وطئته قدماه؛ أي التربة المتراصة نفسها، والعشب المعرَّض لحرارة الشمس نفسه، والغبار نفسه الأشبه بالمسحوق. كما أنني أرى الأشياء نفسها التي سبق له أن رآها، وأشم الروائح نفسها، وأشغل الحيّز نفسه. إنه شعور جيد، بطريقة ما. لقد جعلني ذلك أشعر بأنني قريب جداً من أبي، ولكنه جعلني أيضاً أشعر بالفراغ الذي خلّفه وراءه...

هو وأمي...

فراغ كبير.
يا إلهي، كم الأمر مؤلم.
بعد ذلك، كففتُ عن السير. توقفتُ، وطرفتُ عينَيّ، وتراجعتُ ببطء. هناك شيء ما. على الأقل، رأت عيناي شيئاً ما، وانتقل عقلي إلى مكان آخر لبعض الوقت، ولكنه عاد، وعرفتُ ما أبحث عنه. فأمامي مباشَرةً، وإلى يمين الدرب تماماً، هناك مكان مهجور لتصليح السيارات يحتوي في كل مكان على أكداس من الإطارات، وورشتَي عمل متداعيتَين، وهيكل سيارة قديمة وصدئة. مبنيا ورشتَي العمل متجاوران، ويمتد بينهما ممر ضيّق يحتوي على قُمامة مبعثَرة. وهناك أيضاً سياج خشبيّ منخفض في الطرف الأقصى يُمكِّن المرء من رؤية الجانب المقابل للشارع عبر فجوة أشبه بنفق. وعبر هذا النفق رأيت جداراً من الآجرّ الرمادي، وأسلاكاً شبكية.
وأثناء تحديقي عبر النفق، لم يعد لدي أي ارتياب في أنني أنظر إلى المستودع الذي بدا في الصورة الفوتوغرافية. لقد رأيت فقط قطعة مستطيلة وضيّقة منه، ولكن ذلك أكثر من كافٍ. لذا، أغمضتُ عينَيّ للحظات قليلة، متخيّلاً الصورة الفوتوغرافية مرة أخرى، بهدف التأكد ليس إلا. وعندما فتحت عينَيّ مجدداً ونظرت إلى مكان تصليح السيارات، لم أُدرك فقط أنني في المكان الصحيح، بل عرفتُ بالتحديد المكان الذي التقط منه أبي الصورة الفوتوغرافية.
أسندتُ دراجتي إلى السياج، ومررتُ بصعوبة عبر فجوة في سياج الأسلاك الشبكية المتغضّنة، وتوجهتُ نحو مبنَيَي ورشات العمل. كانت الشمس الحارقة مرتفعة في كَبِد السماء، والهواء الساخن مُثقَل برائحة النفط والكاز. وأثناء اقترابي من الممر الضيّق، بدأت روائح أخرى تنجرف إليّ مع الهواء- رائحة قُمامة نتِنة قديمة العهد، وطعام متعفّن- وسمعتُ صوت ذباب يئزّ حول وعاء قُمامة مُدَولَب طافح بمحتوياته.
تابعتُ سيري في اتجاه السياج الخشبي في آخر الممر. إنه سياج قديم متصدّع، بعضُ ألواحه رَخوة، ولم أجد نفسي مضطراً إلى الانحناء كي أبقى بعيداً عن الأنظار لأنه بارتفاعي تقريباً. ولكن، لا بد أن يكون والدي قد اضطرّ إلى الانحناء. باستطاعتي رؤيته بوضوح في مخيّلتي... وهو ينحني، ويبقي رأسه منخفضاً أثناء دُنُوّه من السياج، والكاميرا بين يدَيه. لقد تمكنتُ من الشعور بأنني معه. أنا موجود حيث كان، وأُمسك باللوح الخشبي الرَّخو نفسه الذي أمسك به... لقد سحبنا اللوح الخشبي معاً، دافعَين إيّاه إلى جانب واحد، وناظرَين عبر الفجوة؛ إلى المستودع في الجانب المقابل للشارع...
بدا المستودع كما ظهر في الصورة الفوتوغرافية تماماً؛ جدران من الآجرّ الرمادي، وستائر على النوافذ، وأبواب صلبة المظهر، وموقف سيارة صغير مُحاط بسياجٍ من الأسلاك الشبكية، وهناك سيارة بي أم دبليو وعربة نقل من طراز مرسيدس مركونتان أمام المستودع. وكان رجالُ أوميغا الثلاثة هم الغائبين فقط عن المشهد الذي بدا في الصورة، بالإضافة إلى الوقت والتاريخ المطبوعين في

الزاوية اليمنى السُّفلية.

15/07/13 ،16:08

الرابعة وثماني دقائق، 15 تموز/ يوليو.

اليوم السابق لوفاة أبي وأمي.

ونظرتُ إلى ساعتي. إنها التاسعة وست دقائق.

الثالث من آب/ أغسطس.

اليوم، الآن بالذات.

اليوم السابق لليوم الأخير.

جلستُ على الأرض قُبالة الفجوة في السياج، وعدّلتُ وضعيّتي حتى بتُّ راضياً عن حصولي على أفضل رؤية ممكنة للمستودع. وبعد ذلك، راقبتُ وانتظرتُ فحسب.

بعد ساعة ونصف الساعة، أي عند الساعة العاشرة وأربعين دقيقة، مددتُ عُنُقي، ثم وقفتُ ونفضتُ الغبار عني. لم أرَ أي شيء مما أردتُ رؤيته، ولم يكن بإمكاني الجلوس هنا طوال اليوم من دون رؤية أي شيء.

لم يكن بإمكاني قضاء اليوم كله منتظراً.

ألقيت نظرة سريعة أخيرة وعدت إلى ممر المشاة.

كنت قد التقطت صوراً قليلة للمستودع بواسطة هاتفي المحمول، ولكن الكاميرا في هاتفي ليست ذات جودة عالية. وبالرغم من أن الصور المباشَرة التي التقطتُها ليست سيّئة جداً، إلا أن تلك التي التقطتُها بعد تكبير المشهد كانت مشوَّشة ولا تُظهر التفاصيل. لذلك، عدت إلى منزل جدتي وجدّي راكباً الدراجة، وواصلتُ تقليب كل شيء في رأسي، متخيّلاً ما رأيتُه مراراً وتكراراً، ومتأكداً من استقرار كل تفصيل صغير في ذاكرتي بأمان.

ولتسهيل عملية التذكر، قسّمت المعلومات إلى فئات منفصلة، ووضعتُ رقماً في عقلي لكل فئة مختلفة.

1- المستودع: مبنى من طابق واحد، سطحه مستوٍ، مزوَّد بباب أماميّ وبآخر خلفي. في الواقع، لم أرَ الباب الخلفي، ولكنني رأيت الرجل ذا اللحية العُثنون يقوم بجولة تفقّدية في الباحة القائمة في مؤخّر المستودع، وهو لم يخرج بالتأكيد من الباب الأمامي. وكل النوافذ مزوَّدة بستائر، وكل الستائر مُسدَلَة.

2- المحيط: هناك رُقَع من الأرضِ البور عند جانبَي المستودع، والباحة في مؤخّره تحاذي حقولاً رثّة الهيئة ممتدة إلى البعيد. والحقول محاطة بوشائع. وموقف السيارات في مقدّمة المبنى، والباحة في مؤخّره موجودان ضمن سياجٍ من الأسلاك الشبكية يرتفع نحو ثلاثة أمتار. والبوّابتان المُقفلتان المؤديتان إلى داخل موقف السيارات بارتفاع ثلاثة أمتار أيضاً.

3- سوتون لين: الشارع نفسه يكاد يكون غير مستخدم. فطوال مدة وجودي هناك، لم ألحظ مرور أكثر من عشر عربات، ولم أرَ مشاةً البتة.

4- الشاغلون: هناك سبعة رجال على الأقل في المستودع. ونستون (رماديّ العينَين)، والأصلع (ذاك الذي دعا نفسه أُوين سميث)، وذو اللحية العُثنون، والرجل المسلَّح (ذاك الذي أطلق النار على إطارات سيارات السي آي أيه)، والرجل نحيل الوجه، ورجلان لم أرَهما من قَبل؛ رجل شاحب البشرة ذو شعر مائل إلى الحُمرة، ورجل ضخم مفتول العضلات ذو عينَين بغيضتَي المظهر. لقد خرج ثلاثة منهم من المستودع بينما كنت لا أزال هناك. وقضى ذو اللحية العُثنون خمس دقائق وهو يجوب في أنحاء الباحة الخلفية، كما خرج الرجل ضخم البنية وأحضر شيئاً ما من الناحية

الخلفية لعربة النقل المُقفَلة. وفي مناسبتَين، جال الرجل نحيلُ الوجه في الخارج، ومشى الهُوَينا في موقف السيارات مدخِّناً سيجارة. لقد بقي الأربعة الآخرون في الداخل، ولكن وجوههم ظهرت عند النوافذ مرة واحدة على الأقل، مُسترِقين النظر إلى الخارج من بين الستائر، أو فاتحين الستائر جزئياً إلى الأعلى لإلقاء نظرة شاملة على الأرجاء.

5- الاستنتاج: لا دليل حقيقي على وجود بشير في المستودع. لم أرَه. وفي الواقع، لم أرَ أي شيء يُثبت وجوده هناك. ولكنني واثق بنسبة 99 في المئة في أنه موجود هناك. فكل شيء يشير إلى ذلك؛ صورة المراقبة التي التقطها أبي، واهتمام أوميغا ببشير، وسلوك الرجال السبعة في المستودع؛ إذ كانوا يقومون بجولات تفقّدية حول المبنى وهم متيقّظون باستمرار، كما أبقوا الستائر مُغلَقة طوال الوقت. كل شيء يشير بشكل منطقي إلى وجود بشير في المستودع.

ولكنّ هناك الكثير من الأمور غير المنطقية. ما الذي يفعله هناك؟ ولماذا تحتفظ به أوميغا؟ هل كان الرجال يحمونه أم أنه سجينهم؟ وكم مضى على وجوده في المستودع؟ هل كان هناك عندما التقط أبي الصورة؟ في هذه الحالة، لماذا لا يزال هناك؟ لماذا لا يزال هناك طوال ثلاثة أسابيع تقريباً، وربما أكثر؟

لم أكن أملك أي إجابات.

ولكن الأمر غير هام الآن.

فكل ما يهمّني الآن أثناء عودتي إلى منزل جدتي وجدي على متن الدراجة هو التأكد من استظهاري كل شيء. وبإمكاني التفكير في معنى كل ذلك في وقت لاحق. فالوقائع هي كل ما يهمّ الآن.

الوقائع.

التفاصيل.

وضغطتُ على زر لف الشريط إلى البداية في رأسي، وشرعتُ بمراجعة كل شيء مرة أخرى. 1- المستودع: مبنى من طابق واحد، سطحه مستوٍ، مزوَّد بباب أماميّ وبآخر خلفي...

أُدرك الآن أن رغبتي في عدم التفكير في كل ما سيجري عندما أصل إلى منزل جدتي وجدّي جزء من سبب اعتزامي حفظ كل ما رأيته في المستودع. فأنا في الواقع لم أشأ التفكير في ذلك. فمن السيّئ بما يكفي أنهما سيستاءان مني، والأسوأ أنني لم أكن أعرف معنى ذلك. فلو كنت عائداً إلى المنزل لرؤية أبي وأمي لَكان الأمر مختلفاً؛ لأنني كنت سأعرف أنهما سيستاءان مني. وكنت سأشعر بالقلق أيضاً بالطبع، ولكنني سأعرف ما يجدر بي توقعه على الأقل؛ الألم في عينَي أمي، والحزم الهادئ في صوت أبي، وتخييبي الواضح لآمالهما... كنت سأعرف ما يجدر بي توقعه، وسأعرف مدى سوء شعوري.

ولكنني لم أكن عائداً إلى المنزل لمواجهة أم وأب مستاءَين، بل جدة وجدّ مستاءَين، ولم أكن أعرف حقاً ما سيحدث؛ وهذا أمر مخيف إلى حدٍّ ما. لذلك، أفترض أنني بدلاً من التفكير في هذا الأمر، ركّزت بدلاً منه على حفظ كل الأمور المتعلقة بالمستودع ومحيطه في ذهني، وامتنعت كلياً عن التفكير في ما سأواجهه حين أصل إلى البيت.

لا أعتقد أنني كنت أعي ما أفعله.

في الواقع، أعرف ذلك.

لأنني لا أذكر حقاً عودتي من المستودع البتة. فالأمر أشبه بوجودي في حالة من الذُّهول. لا أذكر جيداً وصولي إلى منزل جدتي وجدّي... ونزولي عن الدراجة... ووضعي إياها جانباً في مستودع التخزين... ولكنني لا أذكر أيضاً إن كنت قد دخلتُ مروراً على الطريق الأمامي أم عبر البوّابة الخلفية. كنت في حالة من التركيز الشديد على ما رأيته في المستودع، لدرجة أنني واصلت التمتمة فيما كنت عائداً من المستودع إلى الباب الخلفي. كم عدد الرجال الذين رأيتهم؟ سبعة. من كانوا؟ الأصلع، ونستون، ذو اللحية العُثنون، الرجل المسلَّح، ذو الوجه النحيل...

بعد ذلك، فُتح الباب الخلفي فجأة. وحين رفعتُ نظري، رأيت جدتي واقفة هناك وعيناها مُغرَورقتَان بالدموع. وفجأةً، أصبح كل شيء حقيقياً.

«أوه، ترافيس!». بكتْ مُلقيةً ذراعَيها حولي. «الحمد لله على عودتك. كنا شديدَي القلق. أين كنت؟».

حضنتني بقوة؛ لدرجة أنني بالكاد تمكّنت من التنفس، ناهيك عن عدم قول أي شيء.

«لا بأس». قالت باكيةً، ومواصلة معانقتي بقوة لدرجة جعلتني أشعر بأنني أكاد أختنق. «كل شيء بخير... أنت بخير الآن...» وأفلتتني فجأةً، ووضعت يدَيها على كتفَيّ، مادّةً ذراعَيها. «أنت بخير، أليس كذلك يا ترافيس؟». سألتْني محدّقةً إلى عينَيّ بانفعال كبير. «رجاءً، قُل لي إنك بخير... هذا كل ما أحتاج إلى معرفته...»

فقلت لها: «أنا بخير يا جدتي. صِدقاً، أنا بخير!». ومسحتُ دمعة عن عيني. «أنا آسف حقاً يا جدتي. ما كان يُفترض بي...»

وأمسكت بي مجدداً، جاذبةً رأسي إلى كتفها، وضامّةً إيّاي بإحكام لدرجة عدم تمكّني من التنفس حقاً هذه المرة. ولكنني لم أمانع؛ فبوجود وجهي مضغوطاً على بشرتها المغطاة بالدموع، وإحكامِ يدِها قوية القبضة على مؤخّر رأسي، شعرتُ بأنني عدت إلى نفْسي مجدداً- إلى ذاتي الحقيقية- ولم أجد نفسي للحظة من الزمن مضطراً إلى التفكير في أي شيء، أو محاولة فهم أي شيء. حتى إنني لم أجد نفسي مضطراً إلى تحديد ما أشعر به. فكل ما تعيّن عليّ القيام به هو الشعور ليس إلا.

أيّاً يكن هذا الشعور.

لكنني لم أتمكن من حبس أنفاسي إلى الأبد، وتعيّن عليّ رفع رأسي أخيراً عن كتف جدتي، وتنشق بعض الهواء. وعندئذٍ، رأيت جدّي. كان واقفاً في مدخل المطبخ وراء جدتي، محدِّقاً بهدوء إلى عينَيّ. لقد بدا مُتعَباً، وعلى وجهه أمارات القلق والإجهاد. ولكنّ ما صدمني أكثر من أي أمر آخر هو طريقته في النظر إليّ. فأنا أعرف هذه النظرة جيداً، وسبق لي أن رأيتها في عينَي أبي عندما كان يستاء مني؛ ذلك المزيج الغريب من خيبة الألم والارتياح، والألم والقلق، واليأس والتفهّم...

أعرفها جيداً.

وبالرغم من عدم جعلي الأمور أكثر سهولة، بدت الأجواء جيدة.

«آسف يا جدّي». قلت وأنا أبتعد عن عِناق جدتي بلطف.

فأومأ برأسه وقال: «وأنا آسف أيضاً».

فقلت وأنا أهز رأسي: «لا أعرف بماذا كنت أفكر. حسناً، لا، بل كنت أعرف... ولكنني... لا أعرف... كان الأمر...» وأطلقتُ تنهيدة، غير عالِم حقاً بما أحاول قوله.

فجأة، سألني جدّي: «هل أنت جائع؟».

فنظرتُ إليه متفاجئاً قليلاً من السؤال، ثم أجبت بتردد: «حسناً، أجل. ولكنني بحاجة حقاً إلى التحدث إليك عن...»

غير أنه قاطعني بطريقة تُنذر بالسوء وقال: «أوه، سنتحدث لاحقاً عن بعض الأمور. لا تقلق في شأن ذلك. علينا أن نتكلم كثيراً. ولكن، قبل أن نبدأ، أنت بحاجة إلى تناول بعض الطعام».

أردتُ أن أُخبره بأن لا وقت لدي لتناول الطعام، وأن عليّ التحدث إليه في الحال وقبل فوات الأوان. ولكن، عندما فتحت فمي لأتكلم، أمال رأسه ورمقني بنظرة لا- تجرؤ- على- قول- أي- شيء، فعرفتُ أن الشروع بمناقشته الآن ليس فكرة جيدة.

علاوةً على ذلك، كنت جائعاً جداً.

في الواقع، كنت أتضوّر جوعاً.

بعد أن أعدّت لي جدتي بعض اللحم المقدَّد والبَيض مع طبق كبير من شرائح الخبز المحمَّص، وبعد تناولي الطعام بشراهة وبأكبر سرعة ممكنة، دخلتُ غرفة الجلوس ووجدت جدّي بانتظاري جالساًعلى كرسيّه. أومأ لي بالجلوس، فجلستُ على الأريكة. لقد تخيّلتُ نوعاً ما أنه يريد مكالمتي بشأن ما فعلته، ولذلك تفاجأتُ قليلاً عندما دخلت جدتي وجلست إلى جانبي، ولكنني كنت سعيداً جداً بحضورها.

وحين نظرتُ إليها، ابتسمت لي، ومن ثم التفتت إلى جدّي.

فقال لي: «تعرف الجدة ما يحدث. فقد شرحت لها كل شيء هذا الصباح».

«حسناً».

فتابع: «لذلك، منذ الآن فصاعداً، كلنا في هذا الأمر معاً، اتفقنا؟».

فأومأت برأسي.

ألقى نظرة سريعة على جدتي، ومن ثم نظر إليّ مجدداً وقال: «اسمع يا ترافيس... بشأن ما قلتُه عبر الهاتف...»

«لا أهمية للأمر...»

«بلى، للأمر أهمية. فما قلتُه غير مبرَّر، وأنانيّ تماماً، وغير مُراعٍ للمشاعر. أنا آسف حقاً لأنني جرحت مشاعرك».

فقلت: «كنت أستحقّ ذلك؛ فقد جعلتكما حقاً تعيشان ذلك الشعور السيئ مجدداً. وإذا كان هناك من هو أنانيّ وغير مُراعٍ لمشاعر الآخرين، فهذا الشخص هو أنا». وتنقّلت نظراتي بين جدّي وجدتي، ومن ثم نظرتُ إلى جدّي مجدداً وتابعت: «أعرف أنه لم يكن يُفترض بي التسلل إلى الخارج من دون قول أي شيء. أعني، أعرف أنني مُخطئ، وأعرف أنه من الغباء حقاً...»

«يمكنك قول ذلك مجدداً». تمتم جدّي.

«حسناً». قالت جدتي بهدوء، مُلقيةً نظرة سريعة على جدّي ثم تابعت: «فَلْندَع الاتهامات المتبادَلة جانباً في الوقت الحاضر، هلاّ فعلنا». ثم نظرت إليّ قائلة: «عليك أن تخبرنا أين كنت يا تراف؟ انسَ أمر ما هو صواب وما هو خطأ، وأخبرنا أين كنت فحسب، وماذا كنت تفعل».

كان لديّ الكثير لأرويه، ولكن حالما أنهيتُ سردي للوقائع، كنت على ثقة تامة بأنني أطلعتهما على كل شيء. والأمر الوحيد الذي لم أذكره هو أمر ارتيابي بالطلاء الأصفر على عربة النقل المُقفَلة من طراز مرسيدس. فقد احتفظتُ بهذا الأمر لنفسي لأنه مجرد شبهة مُبهَمة، وكنت أعرف ما سيقوله جدي بأية حال، وتذكرتُه يقول لي: رأيت تقرير الشرطة الرسمي، وتحدّثتُ إلى المحققين في الحادث. لا دليل البتة يوحي بتورّط أي شخص آخر في حادث تحطم السيارة.

وعندما عدتُ بالذاكرة إلى كل التفاصيل التي حفظتها عن المستودع، لم أستطع السيطرة على شعوري بالسرور. فقد قمت بعمل جيد، وكنت دقيقاً

وعازماً وصبوراً. لقد تصرفتُ كمحقق خاص محترف. وكان أبي وأمي سيفتخران بي بالتأكيد لو كانا لا يزالان على قيد الحياة.

ولكن الارتياح الذي شعرت به لم يَدُم طويلاً.

كنت قد بدأت بالتحدث عن شاغلي المستودع عندما أعادني جدي إلى أرض الواقع، فسقطتُ مُحدثاً صوتاً مكتوماً.

كنت أقول: «رأيت سبعة منهم هناك بلا ريب. ولكن، ربما كان هناك المزيد. فالسبعة الذين رأيتهم كانوا...» وشرعتُ بعدّهم على أصابعي. «ذاك الذي يدعو نفسه ونستون، وذاك الذي لديه لحية عُثنون، والأصلع...»

عندها، قال جدّي: «حسناً، يا ترافيس، هذا يكفي».

فقلت متابعاً كلامي: «لم أنتهِ بعد. كان الرجل المسلّح هناك، ذاك الذي أطلق النار على الإطارات، وكذلك الرجل نحيل الوجه الذي يقود عربة النقل المُقفَلة...»

«انظر إليّ يا ترافيس». قال جدّي بحزم.

فحملقتُ به وقلت: «أحاول إخبارك...»

غير أنه قاطعني بهدوء: «أعرف ما تحاول فعله. ولكن، عليك إيقاف ذلك في الحال».

«إيقافه؟».

فأومأ برأسه وتابع: «كفى، اتفقنا؟ لقد ذهبتَ بعيداً في تحقيقك».

«ما الذي تعنيه؟!». قلت عابساً وغير مصدِّق. «نعرف أين يوجد بشير الآن. ونعرف أن أوميغا تحتفظ به. وكل ما علينا القيام به الآن هو...»

«ليس علينا القيام بأي شيء يا ترافيس. لن نقوم بأي شيء».

«ولكن، إذا لم...»

«كفى!».

لم يسبق لجدي أن رفع صوته في وجهي، وقد صعقتني الصدمة بسبب ذلك وألزمتني الصمت. فحدّقتُ إليه، وملأتني حدّة نظراته رَهبة.

قال صارفاً أسنانه: «الآن، أصغِ إليّ. أصغِ إليّ فحسب، اتفقنا؟». وكفّ عن الكلام للحظات قليلة كي يتماسك، ثم تابع: «ليست لعبة يا ترافيس، وعليك فهم ذلك. إنه العالم الحقيقي. ويمكن أن يكون العالم الحقيقي مكاناً قاسياً وخطراً. ربما كنت تعتقد أن باستطاعتك التعامل معه، ولكنني أؤكد لك أنك لا تستطيع ذلك. كنتَ محظوظاً اليوم؛ محظوظاً جداً. فقد صُوِّب مسدس نحوك، وتغلّبتَ على رجل بضعف حجمك، ودخلتَ سيارة مع ثلاثة قَتَلة مدرَّبين، وسمحوا لك بالخروج عندما طلبتَ منهم ذلك». ونظر جدّي إلى عينَيّ وتابع: «هل تُدرك ما كان من الممكن أن يحدث؟ ما كان لِيحدث على الأرجح؟ أعني، فكّر في الأمر فحسب يا ترافيس. فكّر في ما كان من الممكن أن يحدث لك اليوم. هل تفهم ما أقوله؟».

فأومأت برأسي.

«الحياة قاسية بما يكفي كما هي الآن من دون القيام بمجازفات غير

ضرورية». وتابع مُسنِداً ظهره إلى الكرسي: «والأغبياء أو المتوهّمون هم وحدهم الذين يبحثون عن الخطر».

«ماذا عنك؟». سألته بهدوء.

«أنا؟!».

«كنتَ في الجيش. إنه أمر خطر، أليس كذلك؟».

«الأمر مختلف».

«لماذا؟».

«كان ذلك عملي. كنت مدرَّباً على وجه الخصوص، وأعرف ما أفعله».

«ومن ثم أصبحتَ محققاً خاصاً».

«صحيح».

«وهذا عمل خطر آخر تقوم به».

نظر إليّ فحسب.

فتابعت: «لم يُرغمك أحد على أن تكون جندياً، أليس كذلك؟ أعني، اخترتَ بنفسك مهنة تعرف أنها ستكون خطرة...»

فكرر بهدوء: «كان ذلك عكملي، كما كان عمل أمك وأبيك العثور على بشير كمال. ولكنه ليس عملك. هذا كل ما أحاول قوله يا تراف. أيّاً يكن ما يحصل مع بشير، وأيّاً يكن ما يحدث أو لا يحدث له... فلا علاقة لك به. وحتى إن اعتقدتَ أنه على علاقة بك، فلن أسمح لك بالمجازفة بحياتك- أو بحياة أي شخص آخر- بسبب أمر لا شأن لنا به».

«ولكننا لا نستطيع ترك بشير في المستودع».

«لِمَ لا؟».

لم أتمكن من التفكير في إجابة مناسبة، لذلك عبستُ وأنا أنظر إليه فحسب.

فقال: «آسف يا ترافيس، ولكنّ ما أُبالي به هو الاهتمام بك وبجدّتك وبوالدتي ورا. وفي الوقت الحاضر، كل ما يمكنني القيام به هو إبقاء السي آي أيه وأم آي 5 خارج حياتنا. وإذا كان ذلك يعني ترك بشير في المستودع... حسناً إذاً، أنا آسف، ولكن هكذا يجب أن تسير الأمور». وانحنى إلى الأمام على كرسيّه وتابع: «انظر، حتى لو كان في المستودع- ومن الممكن أيضاً ألا يكون هناك- فلا شيء يمكننا القيام به من أجله على أية حال. وقد قلتَ بنفسك إن هناك سبعة رجال من أوميغا على الأقل...» وهز كتفَيه. «ما هي فرصتنا ضد سبعة رجال مدرَّبين؟ علاوةً على ذلك، إذا كانوا يحمونه من السي آيه أيه فحسب... حسناً، مَرحى بهم».

«أجل. ولكن، ماذا لو لم يكونوا يسهرون على حمايته؟ ماذا لو كانوا يعملون لصالح مجموعة إرهابية؟ أعني، إذا ادّعت أوميغا أنها تعمل لصالح البلد، فهذا لا يعني أنها كذلك، صحيح؟ قلتَ بنفسك إن لا أحد يعرف أي شيء عنها. ربما كانوا مجموعة من المُرتزَقة الذين يعملون لصالح كل من يدفع لهم. ماذا لو عرف لإرهابيون أن «بشير» كان مُخبِراً لـ أم آي 5 واستأجروا أوميغا لاختطافه؟ ربما هم يحتجزون «بشير» في المستودع حتى يسلّموه». ونظرتُ إلى جدّي. «وعليهم

تسليمه الليلة أو غداً صباحاً لأن المستودع سيُهدم يوم الاثنَين. ولهذا السبب ربما، طلب مني ونستون عدم القيام بأي شيء لمدة أربع وعشرين ساعة».

«ليس بالضرورة». قال جدّي من دون أن يكون مقتنعاً كثيراً وتابع: «ربما سينقلونه إلى مكان آخر؛ إلى مكان أكثر أمناً. وبأية حال...»

عندها، قلت له: «لماذا لا نتصل بالشرطة؟ إذا كنا لن نقوم بأي شيء لمساعدة بشير، فعلى الأقل يُفترض بنا إبلاغ الشرطة بما يجري».

فتنهّد جدي مجدداً وقال: «أنت حتى الآن لم تفهم الأمر، أليس كذلك؟».

«أفهم ماذا؟».

«إن الخطوة الأكثر أمناً التي يتعيّن علينا القيام بها هي عدم القيام بأي شيء. إذا ذهبنا إلى أي مكان، أو تحدّثنا إلى أحدهم، أو أجرينا اتصالات هاتفية... إذا قمنا بأي شيء يربطنا بهذه القضية، فسيزحف عدد كبير من الأشخاص إلينا؛ سي آي أيه، أم آي 5، وحدات مكافحة الإرهاب، شرطة العمليات الخاصة، أوميغا. وإذا كانت أوميغا تعمل لصالح مجموعة إرهابية، وشرعنا بحشر أنوفنا في عملهم...» ونظر جدّي إليّ وتابع: «هل تريد حقاً المجازفة؟».

فهززت رأسي بتردد. لم أحب الإقرار بأنه مُحِق، ولكن لا مفرّ من الأمر. إنه مُحِق؛ فكل ما يقوله منطقيّ تماماً، وعرفتُ أنه عليّ تقبُّل الأمر. وأثناء تحديقي إلى الأرض، مُثبَطاً نوعاً ما، شعرتُ بيد جدتي على رُكبتي.

وقالت لي بحنان: «أعرف أن الأمر مؤلم يا حُبّي. ولكن، لا يمكننا اتّباع ما تمليه علينا قلوبنا على الدوام؛ مهما كانت نوايانا حسنة. فأحياناً، سواء أحببنا ذلك أم لا، علينا القيام بما هو ضروري لاستمرارنا».

لم أكن واثقاً بالتحديد مما كانت جدتي تعنيه، ولكن أثناء صعودي الدرج إلى غرفتي شاعراً بإرهاق جسديّ ومعنويّ، كانت رغبتي الوحيدة هي الاستلقاء على سريري وإغماض عينَيّ، وإفراغ رأسي من كل شيء.

لقد أعياني التفكير.

واكتفيتُ منه.

وأردت النوم فحسب.

وبعد نحو عشر دقائق من قيامي بما ظننتُ أنني أريد القيام به- وأنا مستلقٍ على السرير مُغمَض العينَين، ومحاولاً عدم التفكير في أي شيء- استسلمتُ واعترفتُ لنفسي بأنه ليس ما أريد القيام به فعلاً. وحتى إن كان ذلك مُرادي، فهو لن يحدث.

لا يستطيع المرء منع نفسه من التفكير في أمر يعني له كل شيء، أليس كذلك؟ وإذا لم يكن بإمكانه التوقف عن التفكير فيه، فلا يمكنه إغماض عينَيه فحسب والاستسلام للنوم مهما كان مُتعَباً، بل عليه مواصلة التفكير سواء أحب ذلك أم لا؛ عليه القيام بما هو ضروري...

هل هذا ما قصدتْه جدّتي؟

ربما لا.

صِدقاً، لم أعُد واثقاً مما يعنيه أي شيء.

إنها الساعة الثانية من بعد الظهر، وكنت قد حصلتُ على ساعة نوم واحدة في الليلة السابقة، وتنقلتُ في الكثير من الأماكن، وقمت بكل أنواع الأمور الجنونية منذ الساعة السادسة صباحاً. وكانت ساقاي مُنهكتين، وذراعاي لفحتهما الشمس، ورأسي يضج بالأفكار كما لو أنه حفّارة.

كيف يُفترض بي أن أعرف ما يجدر بي فعله بشأن أي أمر؟

كيف يُفترض بي أن أعرف؟

لماذا لا أتقبّل فحسب أن جدّي مُحِق؟ لماذا لا أستطيع نسيان أمر بشير كمال؟ أنا أرغب في مساعدته بالطبع، ولكن إذا كانت مساعدته تعني تعريض جدتي وجدّي لخطر جِدّي، فهل يُفترض بي القيام بأية مجازفة؟ لم أكن أعرف «بشير»، أليس كذلك؟ ولم يسبق لي أن التقيتُه يوماً. إذاً، لماذا أهتمّ كثيراً بما حدث له؟ لماذا يبدو الأمر كما لو أن اختفاءه يعني كل شيء لي؟

لم تتّضح لي الحقيقة المُطلَقة أخيراً إلا بعد تفكيري في ذلك لبعض الوقت: لا يعني لي بشير كمال كل شيء. هو لا يعني لي كل شيء بالطبع. يبدو الأمر فحسب أنه يعني لي كل شيء. ولكن جدتي وجدّي هما اللذان يعنيان لي كل شيء. إنهما كل شيء في حياتي الآن. وكل ما قمتُ به، وكل ما حاولتُ القيام به فعلته لأجلهما، لأجل حياتهما ولأجل مماتهما. هذا هو واقع الحال.

لا شيء آخر.

كان أبي وأمي كل شيء.

جلستُ على السرير بشكل منتصب، وفركتُ قفا رأسي، وبحثتُ حولي عن جهاز الكمبيوتر الحضني. كان على الطاولة قرب السرير، فمددتُ يدي والتقطتُه، وشغّلتُه، وولجتُ الإنترنت. لقد عرفتُ ما الذي أغفلتُه. أدركت ما يعنيه ذلك الشعور المتواصل بإغفالي أمراً ما سبق أن قاله ونستون لي؛ أمراً هاماً حقاً...

وعرفتُ ما هو.

على الأقل، ظننتُ أنني عرفتُه.
إنه أمر لم يكن هناك.
وفتحتُ محرك البحث غوغل، وشرعتُ بالبحث عنه.

تتمثل مشكلة البحث عن شيء ما غير موجود بمعرفة كيفية التحقق من عثور المرء عليه أم لا. إذ يمكن مواصلة البحث عنه في أماكن مختلفة، ومواصلة عدم إيجاده. ولكن، كيف يعلم المرء أنه في مكان آخر؟ وكم مكاناً مختلفاً يتعيّن عليكم البحث فيه قبل أن تتحققوا 100 في المئة من عدم وجوده في أي مكان؟

الجواب- كما أفترض- هو أن المرء لا يستطيع أبداً أن يكون متأكداً 100 في المئة.

إذ لا يمكن مواصلة البحث إلى الأبد.

ولكن يستطيع المرء مواصلة البحث حتى يصبح متأكداً بنسبة 99 في المئة.

وقد تطلّب مني ذلك أكثر من ساعة.

ثم في نهاية المطاف، عرفتُ ما يجب عليّ القيام به. إذ يتوجب عليّ العودة إلى المستودع. كنت آمل أن أجد طريقة أخرى، ولكن لا طريقة أخرى. يتوجب عليّ العودة إلى المستودع، ويجب القيام بذلك الليلة.

قضيتُ بقيّة فترة بعد الظهر في وضع خطة عمل. إذ يتعيّن التفكير في الكثير من الأمور والقيام بالكثير منها، ولا وقت كافياً لديّ. إنها الثالثة والنصف تقريباً، وستبدأ الشمس بالمغيب بعد نحو أربع ساعات، وسيحلّ الظلام عند التاسعة والنصف. لديّ ست ساعات للإعداد لكل شيء.

بادئ ذي بدء، تحققتُ من أمر المستودع مرة أخرى باستعمال جهاز الكمبيوتر الحضني. فباستخدام غوغل إيرث وستريت فيو، درستُ كل المنطقة بأكبر دقة ممكنة: الحقول المحيطة، والدروب، وموقف السيارات، وجغرافيا الشوارع حول سوتون لين. لم تكن المشاهد حديثة العهد تماماً بالطبع، ولكنها ساعدتني على معرفة ما أنا بحاجة إليه.

تمثّل الأمر التالي بمعرفة كيفية الاتصال بمايسون يوسف من دون أن يكتشف أحد الأمر. لم أكن متأكداً مما إذا كان خطنا الهاتفي الأرضي مراقَب (من قِبل السي آي أيه أو أم آي 5، و/ أو أوميغا)، ولكن جدّي حملني على الشعور بأنه ربما يكون مراقَباً. وإلاّ فلماذا استخدم الهاتف العمومي عندما اتصل بمصدر معلوماته؟ وبما أنه كان متردداً أيضاً باستخدام هاتفي المحمول، إذاً يتعيّن عليّ الافتراض بأنه ليس آمناً أيضاً، برأيه...

قصدتُ النافذة ونظرت إلى الشارع. كانت عربة النقل البيضاء لا تزال هناك في المكان نفسه. فتساءلتُ عما إذا كان عملاء السي آي أيه في داخلها هم الذين صادفتُهم في منزلي. العميلان الخاصان زانِتي وغوو، بالإضافة إلى الرجل ضخم البنية الذي ركلتُه في مكان حساس...

ربما لا، قلت لنفسي وأنا أبتعد عن النافذة وأعود إلى سريري. فأيّاً يكن الشخص الموجود داخل العربة، فهو سيراني إذا حاولتُ استخدام الهاتف

الهمومي. وربما هو يقوم بمراقبتي بأية حال.

مما يتركني أمام خيار توجيه رسالة نصّيّة أو بريد إلكتروني إلى مايسون.

أعلم أنه بالإمكان اقتفاء أثر رسائل البريد الإلكتروني والرسائل النصّية بسهولة عندما تُرسَل، ولكنني لستُ واثقاً بالدرجة عينها مما إذا كان بالإمكان مراقبتها أثناء إرسالها. ولكنني اعتبرتُ أن الأمر غير مستحيل. فهناك طرائق عدة للتسلل إلى حسابات البريد الإلكتروني والهواتف المحمولة- فيروسات، أحصنة طروادة- وأعلم أنه بإمكان السي آي أيه وأم آي 5 ولوج هاتفي. وإذا كان بإمكانهما القيام بذلك، فبإمكان أوميغا ولوج هاتفي أيضاً.

ولكن، هل أملك أي خيار آخر؟ فأنا لا أستطيع أبداً الاتصال بمايسون عبر الهاتف، ولا وقت لديّ لرؤيته. لذلك، إذا أردت الاتصال به، فسيتعيّن عليّ توجيه رسالة نصّية له أو بريد إلكتروني.

فكرت في الأمر لبعض الوقت، محاولاً تقدير الإيجابيات والسلبيات للاحتمالَين، ولكنّ هناك عدداً كبيراً من العوامل المجهولة التي يتعيّن التفكير فيها مليّاً، ويصعب حقاً اتخاذ قرار منطقي. لذلك، تبعتُ حَدْسي أخيراً.

رسالة نصّية.

أخرجتُ هاتفي، وعثرت على رقم مايسون، وشرعتُ بكتابة الرسائل وإرسالها.

كانت عملية طويلة وشاقة. بادئ ذي بدء، تعيّن عليّ شرح الوضع برمّته لمايسون، وإطلاعه على ما أخطط للقيام به، وسؤاله عما إذا كان راغباً في مساعدتي- لا مشكلة، ماذا تريدني أن أفعل؟- لقد تعيّن عليّ استخدام كلمات كاملة وغير مختزَلة لأُبلغه بما أريد منه أن فعله. بعد ذلك، انتظرتُ قيامه بإجراء بعض الاتصالات الهاتفية، ومن ثم تعيّن علينا تصوّر كيفية تنفيذ ما نخطط للقيام به...

لم يسبق لي قط أن وجّهتُ رسائل نصّية في حياتي.

وأخيراً، عند الساعة الخامسة وتسعٍ وأربعين دقيقة من بعد الظهر، وصلت رسالة مايسون الأخيرة:

يمكنني لقاؤك عند الساعة 10 أو 12، هل أنت موافق؟

فأجبتُ:

حسناً! سآتي إليك عند العاشرة.

بعد ذلك، كل ما تعيّن عليّ القيام به هو الانتظار.

لست سيّئاً بالانتظار. فقد جلستُ ذات مرة مع أبي في سيارة مركونة لمدة ثلاث ساعات، منتظرَين رجلاً (يطالب بشكل زائف بتعويض عن إصابة خطرة في ساقه) ليخرج من منزله ويمارس رياضة الهرولة. وفي مناسبة أخرى، قضيتُ نحو أربع ساعات على مقعد حديقة عامة مع أمي بانتظار التقاط صورة فوتوغرافية لحدائقيّ صُرف من الخدمة مؤخراً وكان يسرق (كما اشتبه المجلس البلدي) سمك شبّوط من بِركتهم.

لذلك، لا يمكن القول إنني لا أملك أية خبرة في مجرد الانتظار.

ولكن الأمور في تلك الليلة تخطت إلى حد كبير طاقتي على الاحتمال. فمع تحوّل المساء الباكر إلى غسق صيفيّ، وانتظار غروب الشمس، بدا لي الوقت أنه يمرّ ببطء لا يصدَّق؛ لدرجة شعوري بأن كل دقيقة تبدو كساعة. نظرت إلى ساعتي مراراً، لدرجة رسوخ الوقت المحدَّد لكل ما حدث في ذاكرتي.

الساعة السادسة واثنتان وثلاثون دقيقة. تذكرتُ فجأةً أنني على موعد للقاء كورتني في المكتب في ذلك الصباح، وأنها لن تعرف سبب عدم لقائي إياها ما لم تتصل بالمنزل وتتحدث إلى جدتي أو جدّي.

تساءلتُ عما إذا كان يُفترض بي توجيه رسالة نصّية لها والاعتذار منها والشرح لها.

بعد ذلك، شرعتُ بالتساؤل عما إذا كان يُفترض بي إطلاعها على ما أخطط للقيام به مع مايسون، لا بل أيضاً أن أطلب منها مرافقتنا. كنت على ثقة تامة بأنها تحب المشاركة- أو أن جزءاً منها على الأقل يحب ذلك- وأنها ستقدّم لنا مساعدة كبيرة. لم أكن متأكداً مما إذا كان باستطاعتي الوثوق بها أم لا. أنا لا أشك بولائها، وأعرف أنها تقوم بكل شيء تقريباً من أجلي. ولكنني أعرف أيضاً أنها تشعر بالمسؤولية حيالي. لذلك، وبالرغم من أن فكرةَ ما أنا على وشك القيام به ستروق لكورتني المجنونة والمغامِرة، إلا أن كورتني البالغة والمسؤولة ستُدرك أنه يتعيّن عليها عدم السماح لي بالقيام بذلك. وإذا أطلعتُها على ما أخطط له، فستحاول إقناعي بتبديل رأيي، ومن ثم- بعد إخفاقها- ستتصل بجدي على مضَض وتُخبره بكل شيء.

عندئذٍ، سينتهي الأمر.

لم يكن بإمكاني السماح بحدوث ذلك.

الساعة السادسة وست وخمسون دقيقة. صعدت جدتي السلّم للاطمئنان عليّ، فقلت لها إنني بخير.

سألتني: «هل تريد تناول أي شيء؟ سنتناول شطائر فحسب، ولكنني لا أمانع بأن أطهو لك شيئاً ما إذا كنت جائعاً».

فأجبتها: «أنا مُتعَب قليلاً يا جدتي، وأعتقد أنني سأنام قليلاً إذا كنت ترَين الأمر مناسباً».

«إنه مناسب بالطبع. هل ترغب في أن أعدّ لك شراب الشوكولاته؟».

«لا، شكراً».

فقالت مبتسمة: «حسناً، حسناً، سأدَعك تنام».

الساعة السابعة ودقيقتان. فتحتُ كمبيوتري الحضني واستهللتُ لعبة شطرنج.

ولكنني لم أكن منسجماً في الواقع؛ قلبياً أو عقلياً.

وبعد خمس دقائق، انتهت المباراة.

مات الملك بعد عشر نَقلات.

الساعة السابعة وأربع وأربعون دقيقة. دخلتُ الحمّام، وفتحت النافذة بأكبر قَدْر من الهدوء، وانحنيتُ إلى الخارج، وأعدت التحقق من أنبوب الصرف. هل يمكنني الوصول إليه من هنا؟ أجل. هل يصل إلى الأرض؟ أجل. هل هو ثابت بما يكفي ليحمل وزني؟ تقريباً، كما ظننتُ... عِلماً أنه لا يبدو آمناً تماماً كما اعتقدتُ.

لا يُقلقنّك الأمر ستكون بخير. قلت لنفسي وأنا أغلق النافذة.

وأطلقتُ مياه المِرحاض، وفتحتُ الصنبور لبعض الوقت، ومن ثم غادرتُ المرحاض.

أثناء مروري في الرواق، سمعتُ والدة جدّي نورا تناديني من غرفتها.

«ترافيس، هل هذا أنت؟».

للحظة من الزمن، شعرتُ برغبة شديدة في تجاهلها. تظاهرْ فحسب أنك لم تسمعها، عُد إلى غرفتك، وأغلق الباب. ولكنني علمتُ أنني لن أتصرّف على هذا النحو. لم أتمكن من القيام بذلك؛ فهي والدة جدّي، نورا... لم أستطع تجاهل والدة جدّي، نورا.

«ترافيس؟». نادت مجدداً.

فتوقفتُ للحظات، وأطلقتُ تنهيدة، ومن ثم فتحتُ بابها ودخلتُ.

عندما بدأ داء التهاب المفاصل الذي ألمّ بوالدة جدّي نورا يزداد سوءاً، أعاد جدي ترتيب المنزل كي يجعل الأمور سهلة عليها قدْر الإمكان. لقد أضاف حمّاماً إلى غرفتها كي لا تُضطر إلى عبور الرواق للوصول إلى الحمّام، مجرجِرةً خُطاها. وبالرغم من قيامه بتجهيز سلّم متحرّك لها أيضاً كي تتمكن من النزول إلى الطابق السُّفلي حتى عندما تكون آلام داء التهاب المفاصل في أوجها، أعدّ أيضاً مطبخاً صغيراً داخل غرفتها، يحتوي على فرن ميكروويف وبرّاد صغير وأغراض أخرى، كي لا تُضطر إلى النزول إلى الطابق السُّفلي وتناول طعامها في غرفة الطعام إذا لم تكن راغبة في ذلك. فغرفتها مجهَّزة كشقة قائمة بذاتها.

كانت في وضعيّتها المعتادة عندما دخلتُ غرفتها في ذلك المساء- جالسةً على كرسيّها القديم قرب النافذة- وكمبيوترها الحضني وهاتفها المحمول في متناول يدها على الطاولة بجانبها مع كومة رواياتٍ بوليسية، وعلبة بسكوت، والآي بود الخاص بها. كان هناك كتاب ورقيّ الغلاف في حضنها، ومنظارها على عتبة النافذة. تحب والدة جدّي نورا معرفة ما يجري، وعندما لا تقرأ أو تُصغي إلى الموسيقى أو تتصفّح الويب، تجد سعادتها في الجلوس قرب النافذة، مراقِبةً العالم من خلال منظارها الثنائي.

قلت متوجهاً نحوها: «هِيه، يا جدتي».

«ماذا؟». أجابت مكوّرةً يدها على شكل كأس، وواضعةً إيّاها على أُذُنها.

فقلت لها ناقراً على أُذُني: «شغّلي جهاز سَمعك».

«أوه، صحيح». قالت مُطلقةً ابتسامة عريضة أثناء ضبطها جهاز السَّمع. «يا لغبائي. لقد نسيتُ مجدداً».

«غريب كيف أنك تواصلين نسيان تشغيل جهاز سمعك، ولكنك لا تنسين أي أمر آخر؛ كما يبدو».

«ماذا؟». قالت مكوّرةً يدها على شكل كأس وواضعةً إيّاها على أُذُنها مجدداً.

«قلت إنه من الغريب...»

وأطلقت ابتسامة عريضة مرة أخرى، فأدركتُ أنها سمعتني.

«أجل، محاوَلة جيدة يا جدتي». قلت لها مبتسماً.

فقالت: «ربما أكون مُسنّة وهَرِمة، ولكنني لا أزال سريعة، ولا يمكنك اللحاق بي».

طالما أحببتُ لهجة والدة جدّي نورا. فقد وُلدتْ ونشأتْ في دابلين، وهناك شيء ما مريح في لكنتها الإيرلندية، شيء ما لا يُخفق أبداً في رفع معنوياتي؛ وحتى عندما تتذمر من أمور معيَّنة، وكثيراً ما تقوم بذلك- شاتمةً بسبب هذا الأمر حيناً، وممتعضةً من ذاك الأمر حيناً آخر، ومتأففةً بسبب داء التهاب المفاصل اللعين والغبيّ- أظلّ أحب الإصغاء إليها. وهي تعرف كلمات أكثر فظاظة من أي شخص آخر قابلتُه يوماً. وبخلاف معظم البالغين، إنها لا تكفّ عن استخدامها

عندما أكون في المنزل. وقد سبق لها أن قالت لأمي ذات مرة عندما اعترضت على ذلك: «إنها مجرد كلمات، حبّاً بالله! الفتى ليس طفلاً، أليس كذلك؟ سيسمع كلمات أسوأ بكثير في حياته. وربما سيعتاد عليها أيضاً».

ارتسمتْ بسمة على وجهي لدى تذكّري أمي وهي تحاول كَبت ضحكة بسبب ذلك. طالما كانت أمي ووالدة جدّي مقرَّبتَين حقاً. وبالرغم من كون نورا جدة أبي- وهما في الواقع لا يشبهان بعضهما بأي شيء- طالما كان هناك في والدة جدّي ما يذكّرني بأمي.

نظرتُ إلى والدة جدّي محاولاً رؤية أمي فيها، ولكنّ كل ما تمكنتُ من رؤيته هو الحالة التي لن تكون أمي عليها أبداً؛ امرأة هَرِمة. لن تكون أمي أبداً امرأة هَرِمة. لن تكون أبداً جدّة أو والدة جدّ. ستظل بالنسبة إليّ على الدوام في السابعة والثلاثين من العمر.

قالت والدة جدّي بلطف: «جلس يا ترافيس، تحدّثْ إليّ لبعض الوقت».

فترددتُ، غير واثق مما أقوله. فأنا أحب رِفقة والدة جدّي، ولكنني لم أكن أشعر حقاً بالرغبة في الكلام.

«إذاً، اجلس معي فحسب لمدة خمس دقائق». قالت كما لو أن باستطاعتها قراءة أفكاري. «لستُ مُملّة جداً، أليس كذلك؟».

«لستِ مُمِلّة على الإطلاق يا جدتي». قلت لها وأنا أجلس على كرسيّ قصب مزوَّد بوسادة في الجانب الآخر قرب النافذة، وتابعت: «يمكن أن تكوني مزعجة جداً أحياناً، ولكنك لست مُمِلّة على الإطلاق».

«حسناً، تُسعدني معرفة ذلك».

«كيف تشعرين اليوم؟».

«أنت بالتأكيد لا تريد أن تعرف كيف أشعر».

«لو لم أكن أريد أن أعرف لَما سألتُك».

«أجل، بالتأكيد. إنها بادرة مهذَّبة من قِبَلك».

فتنهّدتُ وأنا أهز رأسي وقلت: «أردتِ مني أن أتحدث إليك يا جدتي. وهذا كل ما أحاول القيام به».

فقالت بلطف: «أعرف. آسفة... لم أعنِ أي شيء». وأطلقتِ ابتسامة عريضة. «يبدو أن وضعي في هذه الأيام هو المرأة الهَرِمة سيّئة الطباع. لا أعي أنني أكون على هذه الحال في معظم الأحيان. تجاهلْني فقط عندما أكون كذلك، اتفقنا؟».

لم أقل شيئاً، بل حدّقتُ إلى خارج النافذة فحسب، متظاهراً بالتركيز على شيء ما.

«ترافيس، هل سمعتَني؟».

فقلت ملتفتاً نحوها: «آسف يا جدتي، كنت أتجاهلك. ماذا قلتِ؟».

فأومأت برأسها مبتسمة، وأشارت إليّ بإصبعها قائلة: «لقد تعادلنا كما أظن».

من الجميل تبادل الدُعابات مع والدة جدّي، وللحظة من الزمن بدا كل شيء

بخير مجدداً، ولكننا كلانا نعرف أن الأمر ليس كذلك. ومع اضمحلال اللحظة، اضمحلّت ابتساماتنا أيضاً.

فجأة، قالت والدة جدّي بهدوء، وقد بدت عيناها لطيفتَين ومهتمّتَين: «اسمع يا ترافيس، لا شيء يمكنني قوله لك للتخفيف من حدة ألمك، وأعرف أنك ربما لن تكون راغباً في التحدث عن الأمر بأية حال. ولكن، إذا أردتَ يوماً التكلم عن الأمر، أو إذا أردتَ التحدث عن أي أمر... حسناً، تعرف أنني هنا على الدوام لأجلك، أليس كذلك؟».

فأومأت برأسي.

«إذا لم تكن راغباً في الكلام، فبإمكانك على الدوام الدخول إلى هنا والجلوس معي إذا شئت. وإذا لم تكن راغباً في ذلك، وأردت أن تكون بمفردك فلا بأس في ذلك». وانحنت إلى الأمام على كرسيّها ونظرت إلى عينَيّ مباشرة وتابعت: «في مثل هذه الأوقات يا ترافيس، عليك القيام بما تشعر أنه صائب بالنسية إليك».

فنظرتُ إليها وقلت: «ولكن، ماذا لو بدا الأمر مُصيباً بالنسبة إليّ فقط؟ أعني، ماذا لو شعرتُ بأنه يتعيّن عليّ القيام بأمر ما يعتبره الآخرون خاطئاً؟».

«هل تأبه بما يعتقده الآخرون؟».

«آبه بما يعتقده جدّي وجدتي. وأنتِ أيضاً بالطبع».

فقالت وهي تومئ برأسها مفكرةً بعمق: «آه، فهمتُ. حسناً، الأمر مختلف، أليس كذلك؟ أنت في موقف معقَّد إلى حد ما...» وأسندت ظهرها إلى الكرسي، وتغضّن جبينها بسبب التفكير، فتساءلتُ عن مدى عِلمها بكل شيء. هل أطلعها جدّي جدتي على ما يجري؟ هل اكتشفت كل ذلك بنفسها؟ هل تعرف أكثر مما تُفشي؟

«لا يمكنني أن أقول لك ما الذي يجدر بك فعله يا ترافيس. أنت تَعي الأمر، أليس كذلك؟».

فأومأت برأسي.

وابتسمتْ. «أذكر قولي الشيء نفسه لجدّك عندما كان فتى». وحدّقت إلى خارج النافذة، وشردت عيناها وهي تستعيد الذِّكرى. «كان جوزف قد بلغ للتوّ السادسة عشرة من العمر عندما قال لي إنه سيغادر المنزل للانضمام إلى الجيش. كان يعرف أنني لا أريد منه القيام بذلك، وكنت أعرف أن قيامه بهذا الأمر من دون موافقتي سيسبب له الألم. ولكنه كان مقتنعاً تماماً لسبب ما- ما زلت حتى الآن لا أفهمه- بأنه يقوم بالأمر الصائب. كان عليه الانضمام إلى الجيش». وتنهّدتْ. «قال لي حينها إنه يفضّل المغادرة بعد حصوله على موافقتي، ولكنه سيقوم بذلك في النهاية سواء أعجبني الأمر أم لا».

«ماذا فعلتِ؟».

فأجابتني: «لا شيء. ماذا كان بإمكاني أن أفعل؟ لم أشأ أن أكذب عليه وأقول له إنني أمنحه موافقتي لأن الأمر لم يكن كذلك؛ فقد كنت أمقت فكرة كونه جندياً. ولكنني لم أتمكن من منعه. لم أتمكن من الإقفال عليه في المنزل، أليس

كذلك؟ كل ما أمكنني القيام به هو...» وهزّت رأسها. «لم أستطع فعل أي شيء. لقد سمحتُ له بالذهاب فحسب».

«هل لا تزالين تتمنَّين لو أنه لم ينضم إلى الجيش؟».

فنظرت إليّ للحظات قليلة، ومن ثم أجابت: «لا جدوى أبداً من تمنّي أن تكون الأمور مختلفة. فالأمور قد حصلت وانتهى الأمر. جيدة كانت أو سيّئة، صائبةً أو خاطئة. لا يمكنك تغيير الماضي يا ترافيس، بل عليك التعايش معه فحسب».

عند الساعة التاسعة وخمس عشرة دقيقة، وأثناء غَوص الشمس أخيراً في الأُفُق، عدّلتُ للمرة الأخيرة الوسادات التي وضعتُها تحت لحافي، ومن ثم توجّهت إلى باب الحمّام وأمعنت النظر بعملي اليدويّ من حيث أقف هناك. لم يسبق لي في الواقع أن رأيت نفسي نائماً على سرير، لذلك من الصعب معرفة ما إذا كانت كُتلة الشكل البشري التي أعددتُها تحت اللحاف ستخدع جدتي وجدّي أم لا. من الواضح أنها لن تصمد أمام تفحُّص عن قُرب، ولكن الخدعة قد تنطلي عليهما إذا وقفا عند مدخل الباب من دون إضاءة المصباح.

أومأت برأسي لنفسي.

يجب أن تفي هذه الخدعة بالغرض.

والتقطتُ حذائي الرياضي، وفتحت الباب، وتوقفتُ عنده مُصغياً. كان التلفاز مشغَّلاً في غرفة الجلوس، وسمعتُ الصدى المكتوم لصوت جدتي أثناء طلبها من جدّي أمراً ما... وبعد لحظات قليلة أجابها مُهمهِماً... ومن ثم لزما الهدوء.

حاملاً حذائي الرياضي، عبرتُ الرواق المؤدي إلى الحمّام. لم أحاول التزام الهدوء، بل حاولتُ السير بشكل طبيعي كما لو أن ذهابي إلى الحمّام هو كل ما أقوم به. كان القيام بذلك صعباً على نحو مفاجئ. وكلما فكرتُ في الأمر، سرتُ بشكل غير طبيعي أكثر فأكثر. أخيراً، قلِقاً من إمكانية انفجاري ضحِكاً أو تعثّري، أو الأمرَين معاً، كففتُ عن التفكير، ونجحت محاولتي كما يبدو.

داخل الحمّام، أضأتُ النور، وأقفلت الباب، وانتعلت حذائي الرياضي، ووقفت من دون حراك، وأصغيت السمع مجدداً. كل شيء بدا على حاله. فمشيتي غير الطبيعية لم تُثِر أي ارتياب كما يبدو. انتظرتُ دقيقة أخرى، ومن ثم أطلقت مياه المرحاض، وفتحتُ صنبور المياه الساخنة، ومن ثم النافذة. وبعد عشرين ثانية تقريباً، أغلقتُ الصنبور مجدداً، وأطفأت النور، وفتحت قفل الباب، ومن ثم الباب، وأغلقتُه ثانيةً بهدوء تام. لم يكن باستطاعتي القيام بأي شيء حيال عدم سماع وَقع خُطاي التي تشير إلى عودتي إلى غرفتي. وأمِلتُ في ألا يلاحظ جدّي وجدتي الأمر.

متحركاً بحذر كبير، وبأكبر قَدْر ممكن من الهدوء، وقفتُ على عتبة النافذة، ومن ثم جثمتُ وخرجتُ عبر النافذة المفتوحة. كانت الحافة الناتئة في الخارج عريضة بما يكفي للوقوف عليها. فجرجرتُ خُطاي بحذر على امتدادها، متقدِّماً ببطء في اتجاه أنبوب الصَّرف.

كان أنبوب الصَّرف أحد تلك الأنابيب المعدنية القديمة التي يمكن تسلّقها بسهولة. ولكن كلما اقتربتُ منه ازداد قلَقي من إمكانية كونه قديماً جداً، وعدم قدرته على حمل وزني. كان قد بدا لي سابقاً متيناً جداً- إذ كان مثبَّتاً إلى الجدار بدِعامات معدنية كبيرة- ولكن بعد إلقائي نظرة أكثر قرباً عليه، وجدتُ الطلاء متقشِّراً، وكشف عن رُقَع كبيرة من الصدأ تحته.

لا تفكر في ذلك؛ قلت لنفسي.
لا تفكر في أي شيء.
قُم بالأمر فحسب.

مددتُ ذراعي اليمنى وأمسكت بالأنبوب، ومن ثم مددتُ ساقي اليمنى ووضعتُ قدمي على إحدى الدّعامات. هززتُ الأنبوب بقوة مرّتَين لاختبار قوّته، وبعد أن بدا لي قوياً بما يكفي، غادرتُ الحافة الناتئة، ساحباً نفسي في اتجاه الأنبوب، وأمسكتُ به بإحكام بكلتا يدَيّ. توقّف قلبي عن الخفقان للحظات قليلة أثناء إخفاق قدمي اليسرى في الوصول إلى الدّعامة، وبدأتُ بالانزلاق، ولكنني بعد ذلك شعرتُ بالأمان نسبياً بعد تحريكي ساقي بارتباك، وعثور قدمي اليسرى على الدّعامة.

بقيتُ مدلّى على الأنبوب للحظات قليلة، منتظراً عودة قلبي إلى حالته الطبيعية، ومن ثم شرعتُ بالنزول.

كان كل شيء بخير في الأمتار القليلة الأولى. فقد ظل الأنبوب ثابتاً في مكانه، وحملتِ الدّعامات وزني، وكان من السهل التمسك بالأنبوب. في الواقع، كان الأمر شديد السهولة لدرجة شعوري بالاسترخاء قليلاً. آخذاً وقتي، تنشقت هواء الليل معتدل البرودة، وتأملت المنظر الطبيعي حَولي؛ سماء الليل، وأضواء الشارع البعيدة، والحدائق المجاورة في الأسفل...

في تلك اللحظة، أفلتت دعامة الحائط الذي كانت مثبتة إليه مُحدِثةً صوتاً واضحاً، فترنّح الأنبوب بعيداً عن الجدار. لن أنسى أبداً الذُّعر المؤقت الذي ألمّ بي أثناء شعوري بأنني أسقط إلى الوراء مواصلاً التمسك بأنبوب الصَّرف، وحين أدركت فجأةً أنه لم يَعُد موصولاً بأي شيء. لحسن الحظ، لم تنفصل الدّعامات الأخرى على الفور. وأثناء مقاومة الأنبوب وزني للحظات قليلة، تمكنتُ من النظر إلى الأسفل، ورأيت أنني على ارتفاع مترَين فقط من الأرض، فقفزتُ.

كان قراراً فطرياً اتخذتُه في جزء من الثانية فقط، ولذلك لا أعرف حقاً إذا كنت أسعى فعلاً إلى الهبوط في خميلة الخُزامى الكبيرة والقديمة في الجانب الآخر للدرب، ولكنّ هذا ما فعلتُه، وخفّفتِ الخميلة من وطأة سقوطي. لقد انحدرتُ نوعاً ما إلى الأسفل فوق الخُزامى، واستلقيتُ عليها باسترخاء، ومن ثم تدحرجتُ إلى الوراء إلى داخل مسكبة الزهور

باستثناء عدد قليل من الخدوش- وشعور مروِّع في بطني- لم أُصَب بأي أذى.

ركعتُ، ونفضتُ ملابسي، واسترقتُ النظر بحِرص من وراء الخُزامى إلى المنزل. كان الجزء المتضرر من أنبوب الصَّرف منحنياً، ومشكّلاً زاوية مع الجدار، ولكن حاله لن تسوء كما يبدو، لأنه لم يَعُد مضطراً إلى حمل وزني. داخل المنزل، كان نور المطبخ مضاءً، ولكن لا دلالة على وجود جدتي أو جدّي.

انتظرتُ دقيقة واحدة أو دقيقتَين، ومن ثم زحفتُ إلى مستودع التخزين على يدَيّ ورُكبتَيّ. ألقيتُ نظرة سريعة أخرى على المطبخ، ومن ثم وقفتُ، وفتحتُ باب المستودع، ودخلتُ لإحضار دراجتي.

وفيما كنت أدفعها إلى الخارج وأسلك درب الحديقة، تحققتُ من ساعتي مجدداً.
إنها التاسعة وست وثلاثون دقيقة.
خرجتُ من البوّابة الخلفية كما فعلتُ في ذلك الصباح.
بدا الأمر كما لو أن ألف سنة قد انقضت منذ أن حصل ذلك.

كانت الطرقات في المنطقة الصناعية مُظلمة وهادئة، وأثناء قيادتي الدراجة في سوتون واي- أي الطريق المؤدي إلى سوتون لين- لم أسمع سوى صوت عجلتَي الدراجة على الأسفلت. إنها ليلة صافية تماماً، والهواء معتدل البرودة ومنعش، والسماء وضّاءة بالنجوم. وفوق المداخن البعيدة بَدْر شاحب يغمرها بضوء رماديّ غامض ومخيف. وبدت المداخن المرتفعة داكنة وصارمة كحرّاس بلا وجوه.

عندما وصلتُ إلى سوتون لين، اجتزت مسافة ثلاثين متراً أخرى تقريباً، ومن ثم توقفتُ إلى جانب الطريق قرب بوّابة خشبية. كان مايسون هناك بانتظاري كما اتفقنا، وبيغ ليني برفقته كالعادة. وأثناء ترجّلي عن الدراجة، تفاجأتُ بوجود إيفي جونسون معهما أيضاً. كانوا جميعاً يرتدون ملابس قاتمة، ويضعون قلنسوات سوداء- وقد ارتدى ليني معطفه الأسود الطويل- وبدا الجميع مستعدين للتحرك.

«شكراً لك على قدومك». قلت لمايسون، وأومأتُ برأسي له ولليني، ثم نظرتُ إلى إيفي. كانت متكئة على البوّابة كيفما اتفق، ويداها في الجيبَين الخلفيّين لسروالها الجينز الأسود الضيّق.

«ظننتُ أننا ربما سنكون بحاجة إلى بعض المساعدة». قال مايسون مُلقياً نظرة سريعة على إيفي، ومن ثم التفت إليّ مجدداً وتابع: «أنت لا تمانع، أليس كذلك؟».

فقلت مبتسماً لإيفي: «لا، لا... لا أمانع بالطبع».

فابتسمتْ، ودفعت نفسها بعيداً عن البوّابة، وتوجهت نحوي وسألتني: «ماذا حدث لك؟». وصارت ابتسامتها عريضة أثناء إلقائها نظرة سريعة على شعري.

فقلت مادّاً يدي في اتجاه رأسي بطريقة فطرية: «ماذا؟».

«تبدو كما لو أنك جُررتَ فوق خميلة».

وأثناء تمريري أصابعي على شعري، بدأت أجزاء من خميلة الخُزامى تتساقط؛ أوراق، وبَتلات أُرجوانية اللون، وجذوع محطَّمة...

قالت إيفي: «دَعني أساعدك».

ثم دَنَتْ مني، وشرعتْ بتمرير أصابعها على شعري، ملتقطةً بعناية أجزاء صغيرة من العيدان وما شابه. لم أكن واثقاً مما أفعله، وكنت مُحرَجاً ومُرتبكاً قليلاً، ولكنني شعرت بأنني بخير إلى حد ما.

«إنها خُزامى». قلت لها بصوت أجشّ تقريباً على نحو غريب.

«حقاً؟!».

فتنحنحتُ، ثم قلت: «قفزتُ عن أنبوب الصّرف».

«تماماً...»

ونظرتُ إليها، فابتسمت لي.

وعندها، سمعتُ مايسون يقول: «من الجيد ألا تكون جايدي هنا».

ألقت إيفي نظرة سريعة عليه ثم سألت: «ومن تكون جايدي؟».

«حبيبة ترافيس». وأطلق مايسون ابتسامة عريضة، ثم تابع: «كانت ستوجّه لك صفعة إذا رأتكِ تمرّرين يدَيك على شعره».

قلت لإيفي: «جايدي ليست حبيبتي. إنها شقيقة مايسون الصغرى».

فهزت إيفي كتفَيها قائلة: «لستُ منزعجة على الإطلاق ممن تكون».

«تعتقد أنك مُضحك، أليس كذلك يا مايسون؟». قلت رامقاً إيّاه بنظرة جانبية.

«إنه مُضحك تقريباً كركلة على الرأس». تمتمت إيفي نافشةً شعري للمرة الأخيرة، ثم تراجعتْ وقيّمتْ عملها. «حسناً، يُفترض بهذا أن يفي بالغرض».

فقلت: «شكراً».

فابتسمتْ وأحَنَت رأسها قائلة: «على الرَّحب والسّعة».

أثناء توجّهنا نحو البوّابة، رأيت إيفي ترمق مايسون بنظرة قاسية، منذرةً إيّاه بضرورة مراقبة تصرّفاته. حاول تخطّي الأمر بابتسامة عريضة، ولكنه لم يبدُ واثقاً بنفسه كالعادة. وللمرة الأولى منذ تعرفي إليه رأيت افتقاراً للثقة بالنفس لدى مايسون، ووجدت نفسي أتساءل للحظات قليلة عما يعنيه ذلك...

بعد ذلك، سألتني إيفي: «هل تعتقد حقاً أن «بشير» موجود هناك؟». فأعدتُ تركيز انتباهي عليها، واتكأتُ على البوّابة بجانبها، وحدّقتُ إلى الحقول المُضاءة بنور القمر.

فالمستودع على بُعد مئات الأمتار تقريباً إلى يسارنا، ويكاد لا يُرى في الظلام. لم تكن هناك أي أضواء في مؤخّر المبنى، ولكن توهّجاً خافتاً ظهر من نافذة صغيرة في الجدار الأيسر، ورأيت شكلَي عربتَين في موقف السيارات في مقدَّمة المبنى.

فتمتمتُ: «أجل، أعتقد أنه هنا».

«ولكنك لستَ متأكداً؟».

فهززت رأسي نافياً وأجبت: «لهذا السبب أريد دخول ذلك المكان». ونظرتُ إلى مايسون الذي كان منشغلاً بالتمعّن في المنظر الطبيعي أمامنا؛ ممرِّراً نظراته على كل شيء: المستودع، والحقول، والسياج، والوشائع.

سألتُه: «هل رجالك جاهزون؟».

فأومأ برأسه مجيباً: «إنهم في مواقعهم ينتظرون إشارتي».

«كم شخصاً تمكنتَ من أن تجمع في النهاية؟».

«نحو أربعين».

«وهل يعرفون ماذا سيفعلون؟».

«أحدِثوا جَلَبة كبيرة، وارموا بعض الحجارة، ولكن ابقوا خارج السياج». ومواصلاً التمعّن بالحقل تابع: «هل أنت واثق من أنها الطريقة الوحيدة للدخول؟ أعني، إذا عبرنا الحقل إلى المستودع من هنا، فسنُرى بالتأكيد».

فقلت له: «لن نعبر الحقل، بل سنتسلق البوّابة، ومن ثم سنتبع الوشائع حول حافة الحقل». وأشرت إلى الوشيعة الموجودة إلى يسارنا على امتداد

سوتون واي وصولاً إلى زاوية سوتون لين وتابعت: «سنتبع هذه وصولاً إلى الزاوية، ومن ثم سنستدير يميناً ونتبع الأخرى وصولاً إلى السياج بجانب المستودع. يُفترَض بنا أن نكون بخير طالما أننا نبقى بمحاذاة الوشائع».

ولزم ثلاثتهم الهدوء للحظات أثناء تأمّلهم الطريق التي شرحتُ كيفية سلوكنا لها، ناظرين إلى يسارنا ومن ثم إلى اليمين. أخيراً، نظر كل منهم إلى الآخر، وأومأوا برؤوسهم، فقلت لهم:

«هل هناك أي أسئلة؟».

فأجاب مايسون: «لديّ القليل».

وأضافت إيفي: «أجل، وأنا أيضاً. في الواقع، بعد التفكير في الأمر، لديّ نحو مليون سؤال».

«ماذا عنك يا لين؟». قلت ملتفتاً إلى ليني وتابعت: «هل لديك أي أسئلة؟».

لم يَقُل أي شيء، بل نظر إليّ للحظات فحسب، وهزّ كتفَيه، ومن ثم هزّ رأسه.

فقلت وأنا أتسلق البوّابة: «حسناً إذاً، هذا ما تمّ التوافق عليه. لِنذهبْ».

كان من المستحيل معرفة ما إذا كنا مراقَبين أم لا أثناء زحفنا على امتداد الوشائع في اتجاه المستودع، ولكننا عندما وصلنا إلى السياج لم تكن هناك أي دلالات واضحة على كشف أمرنا. بالطبع، لا يعني ذلك بالضرورة أن أمرنا لم يُكشف. ولكن حتى لو رآنا رجال أوميغا وكانوا ينتظرون بهدوء خطوتنا التالية، لم تكن بيدي أي حيلة إزاء ذلك. لذا، لم أتكبد عناء التفكير في الأمر.

وجثمنا في الزاوية بين الوشيعة والسياج على مسافة لا تبعُد أكثر من خمسة عشر متراً عن المستودع وموقف السيارات أمامنا مباشَرةً، والمستودع إلى يميننا. كان هناك قادوس[2] قديم صدئ، وقطع آجرّ في زاوية موقف السيارات تحجبنا عن المستودع. وأثناء تجمّعنا وراء القادوس، أخرج مايسون أداة لقطع الأسلاك من جَيبه ومرّرها إلى ليني الذي جرجر خُطاه نحو الطرف الأقصى للقادوس، وركع، وشرع بإحداث شقّ عمودي في السياج.

فقلت بهدوء: «حسناً، أصغوا إليّ جيداً قبل أن ندخل. هناك أمران يجب أن تكونوا على عِلم بهما». ونظرت إلى إيفي، ثم تابعت: «هل أخبرك مايسون عما يجري هنا؟».

«لقد أعطاني فكرة تقريبية، أجل. أعني، أعرف أن هناك مجموعة من الأشخاص في الداخل ربما يحتفظون ببشير وربما لا. وأعرف أنهم ربما يحمونه من بعض الأشرار، ولكنهم ربما يحتجزونه رُغماً عنه. كل ما أعرفه هو أننا سنقتحم المستودع، وسنرى إذا كان بإمكاننا العثور عليه». وابتسمتْ. «هل يبدو ما قلته صحيحاً نوعاً ما؟».

«إنه قريب إلى الواقع بما يكفي».

«إذاً، ماذا عليّ أن أعرف أيضاً؟».

فقلت بحذر: «حسناً، يحمل أحد الرجال في الداخل على الأقل سلاحاً».

فقال مايسون كما لو أن الأمر غنيٌّ عن القول: «سيكونون جميعاً مزوَّدين بالأسلحة يا تراف».

«هل تعتقد ذلك؟».

«قلتَ إنهم محترفون، أليس كذلك؟».

«أجل».

فهزّ كتفَيه مؤكداً: «إذاً، سيكونون مزوَّدين بالأسلحة».

«صحيح». تمتمتُ، متسائلاً في سري عن سبب عدم تفكيري في ذلك، ثم تابعت: «حسناً، بأية حال، اعتقدتُ أنكم يجب تعرفوا ما الذي سنواجهه قبل أن ندخل... في حال أراد أحدكم تغيير رأيه أو ما شابه. أعني، لا أتوقع أنهم سيشرعون بإطلاق النار عملياً...»

فقاطعتني إيفي قائلة بواقعية: «نحن نعيش في سليد يا ترافيس، ونواجه أسلحة كل يوم. لا أهمية للأمر».

«نحن نتناول الأسلحة على الفطور». أضاف مايسون.

فنظرت إيفي إليه.

«ماذا؟!». قال مُطلقاً ابتسامة عريضة لها، وتابع: «ما خَطْبك، عليك الاعتراف بأن الأمر مُضحك تماماً».

فهزت رأسها بطريقة رافضة، ولكنني علمت أنها تحاول جاهدةً عدم الابتسام. واصل مايسون الابتسام لها للحظات قليلة، ومن ثم أشاح بنظره عنها ليراقب عمل ليني على السياج. لقد أصبح الشّق بارتفاع مترَين تقريباً؛ وهو كبير بما يكفي، حتى بالنسبة إليه، للمرور عبره.

«سيفي ذلك بالغرض يا لين». قال له مايسون. «أحسنتَ عملاً».

كفّ ليني عن القصّ، وأعاد أداة قطع الأسلاك إلى مايسون الذي دسّها في جَيبه، ومن ثم صدم قبضة يده بقبضة يد ليني، وبعد ذلك قال بمرح مستديراً نحوي وفاركاً يدَيه معاً:

«إذاً، هل سنقوم بهذا الأمر أم لا؟».

فقلت: «هناك أمر واحد إضافي فقط. فأنا في الواقع لا أعرف إذا كان بشير بحاجة إلى إنقاذ أم لا. وكما سبق لإيفي أن قالت، ربما كانوا يحتجزونه رُغماً عنه، ولكن من الممكن أيضاً أن يكون راغباً في التواجد معهم. لن نعرف الاحتمال الصحيح إلا بعد أن نعثر عليه».

فقال مايسون: «إذا عثرنا عليه».

«صحيح. ولكن، إذا عثرنا عليه وقال لنا إنه ليس سجيناً ويريد البقاء حيث هو، فمن الأهمية بمكان أن ننسى الأمر كلّيّاً، اتفقنا؟».

فسألتْني إيفي: «أتعني أن نصدّق كلامه؟».

عندها، أومأتُ برأسي وأجبت: «لن نقول أي شيء، ولن نسأله عن أي شيء، بل سنستدير فحسب وندَعَه وشأنه».

«وماذا لو كان سجيناً؟».
«سنُخرجه».
فسألني مايسون: «أبهذه البساطة؟».
«أجل».
«سنُخرجه فحسب؟».
«صحيح».
«وماذا سنفعل بعد ذلك؟».
فهززتُ كتفَيّ قائلاً: «سنفكر في أمر ما».
ضحك مايسون. «أهذا هو مخططك؟ سنفكر في أمر ما».
«ألديك فكرة أفضل؟».
فنظر إليّ للحظات قليلة، غير واثقٍ مما يقوله، ومن ثم هزّ كتفه كما لو أنه يقول: «آه، ولماذا أُبالي؟» ومدّ يده إلى جَيبه وأخرج هاتفه. «قُل لي فقط متى الموعد». قال محرّكاً إبهامه على الشاشة.
فنظرت إلى إيفي وليني وسألتهما: «هل أنتما مستعدان؟».
فأومآ برأسَيهما.
واستدرت نحو مايسون الذي كان إبهامه فوق الشاشة، وأومأت له برأسي.
فضغط على مفتاح.
وعلى الفَور، وضعت أصواتُ أربعين فتى حدّاً لسكون الليل، فقد أحدثوا أكبر قَدْر ممكن من الضجيج. كانت أصوات مرتفعة، وصيحات، ووقع خُطى ثقيلة لأقدامٍ راكضةٍ تصدر من الجانب المقابل للطريق. وأثناء انحنائي ونظري عبر فجوة في الوشيعة، رأيتهم يخرجون من مكان مهجور لتصليح السيارات حيث كانوا ينتظرون إشارة مايسون. كانوا مجموعة غوغائية من فتيان قُساة الملامح، يضع معظمهم قَلَنسوات، ويضع بعضهم لِفاعات حول وجوههم، والكل يعبرون الطريق نحو المستودع. كان الضجيج يعلو ويزداد كلما اقتربوا؛ صائحين وهاتفين وقارعين على أغطية صناديق القُمامة. ومع دُنُوّ المجموعة من البوّابة المزدوجة، شرع بعضهم بقذف أشياء؛ من حجارة، وصخور، وقطع آجرّ، وألعاب نارية. سمعتُ الصوت المكتوم للآجرّ وهو يقع على السيارات، ثم انطلقت أجهزة الإنذار بعد ذلك بصوت عالٍ، وومضت الأضواء...
«هيا بنا، لِنذهبْ!». همس مايسون وهو يمسك بذراعي.
فنظرتُ حَولي، ووجدت أن إيفي وليني قد انسلاّ عبر الفجوة في السياج، وكانا مسرعَين في اتجاه الناحية الخلفية للمستودع. تبعت مايسون عبر الفجوة، وانطلقنا وراء الآخرَين.
مع القليل من الحظ، سينجح الإلهاء الذي خططتُ له مع مايسون، وسيتركز كل الانتباه داخل المستودع على مجموعة الشباب الصغار في السنّ والغوغائيين في الناحية الأمامية. لقد أمِلنا في أن يمنحنا ذلك الفرصة التي نحتاج إليها للتسلل إلى الداخل من دون أن نُرى، وللعثور على بشير بسرعة (إذا

كان في الداخل)، ومن ثم الخروج مجدداً؛ مع بشير أو من دونه.

وماذا بعد ذلك؟

حسناً، عندما سبق لي أن قلت لمايسون إن لا خطة لديّ، لم أكن صادقاً تماماً. إذ كانت لديّ خطة، وكنت أعرف بالتحديد ما الذي سأفعله. ولكن، لا علاقة لمايسون بذلك. ولا علاقة لأحد بذلك باستثنائي ورجل العينَين الرماديّتَين فولاذيّتَي اللون.

«إنه مُقفَل». أعلنت إيفي أثناء انضمامي ومايسون إليها، وكان ليني يقف قرب الباب الخلفيّ للمستودع. «إنه مثبَّت بمِزلاج من الداخل».

«ألا يوجد ثُقب مفتاح أو أي شيء مشابه؟». سأل مايسون متفرّساً بالباب الخشبيّ الصلب.

«لا».

«ليس قفلاً كهربائياً، أليس كذلك؟». قال باحثاً حَوله عن صندوق لإدخال رمز.

فتنهّدت إيفي وهي تجيب: «قلتُ لك للتوّ يا مايس إنه مُقفَل بمِزلاج». ونظرت إليّ، ثم تابعت: «ماذا لو جرّبنا إحدى النوافذ؟».

ألقيت نظرة سريعة على الجدار الخلفيّ، متحققاً من النوافذ، ثم قلت لها وأنا أهز رأسي: «إنها صغيرة جداً. يمكننا أنا وأنت المرور بصعوبة عبر القضبان المعدنية على الأرجح، ولكن ليني ومايسون لن يتمكنا أبداً من المرور». ونظرتُ إلى الباب. «سيتعيّن علينا تحطيمه». والتفتُّ إلى ليني وسألته: «هل يمكنك توجيه ضربة قوية له من دون إحداث الكثير من الضجيج؟».

ففكر ليني في الأمر للحظات، ومن ثم نظر إلى مايسون.

فقال مايسون، مُجيباً بالنيابة عن ليني: «سيبذل قُصارى جهده».

«حسناً». وأومأتُ برأسي لكلَيهما ثم قلت: «قُم بذلك».

أثناء إفساح إيفي الطريق، وتوجُّه ليني إلى الباب بتثاقل، شبكتُ أصابعي وأملتُ في أن تُخفي الجَلَبة التي يُحدثها الشباب صوت تحطيم الباب؛ هذا إذا تمكن من تحطيمه. فكرت في سري فجأةً: ربما لن يكون مُقفَلاً من الداخل بمِزلاج واحد فقط، وربما كان مقفلاً بمزاليج صناعية متينة، أو مدعَّماً بروافد فولاذية أو ما شابه. أو ربما...

وسُمع صوت مكتوم.

وفُتح الباب.

أثناء انشغالي بالتفكير في الأمر- قلِقاً ومغتاظاً- كان ليني قد توجّه نحو الباب، ونظر إليه للحظات، ومن ثم فتحه بكتفه. لقد وجّه له ضربة قوية بما يكفي لليّ المزاليج وترْك الباب متأرجحاً على مفصَّلاته، ولم يُصدر أي ضجيج البتة.

فقال مايسون مربّتاً على ذراع ليني أثناء توجّهه نحو الباب المفتوح: «أنت صَفوة الرجال يا لين».

فأومأ ليني برأسه فحسب.

خطا مايسون عبر مدخل الباب، ثم توقف للحظات ناظراً حَوله. كان هناك ممر عريض ممتدّ أمامه، ويتوهّج ضوء باهت في الطرف الأقصى. وفي الضوء الخفيف، رأيت أرضية إسمنتية عارية، وخزائن معدنية قائمة على امتداد الجدار، وممرّاً آخر إلى يمين الباب مباشَرةً.

«هيا بنا». همس مايسون، وأومأ لنا للانضمام إليه، ثم تابع: «ماذا تنتظرون؟».

داخل المستودع جدران مشيَّدة من الحجارة، وسقف من الخشب الرقائقي، وجدران فاصلة مكوَّنة من ألواح جصّية. لقد بدا لي الأمر كما لو أن أحدهم شرع بتحويل المبنى إلى مكاتب أو مؤسسات صغيرة أو ما شابه؛ من دون إنهاء ما شرع به، أو أنه أتمّه بشكل سيّئ.

كان الممر الرئيس أمامنا يؤدّي إلى الناحية الأمامية للمبنى، في حين أن الممر القائم إلى يميننا- وهو أكثر ضِيقاً وغير مُضاء- يمتدّ بمحاذاة الجدار الخلفي بزاوية قائمة مع الممر المركزي. وهناك أبواب على امتداد الممرَّين، وكلها مُغلَقة.

«في أي اتجاه تريد الذهاب يا ترافيس؟». سألني مايسون، مُبقياً صوته منخفضاً.

فنظرتُ إلى يميني، ومن ثم إلى الأمام مباشَرةً.

عندها، اقترحت إيفي: «ربما يُفترض بنا الانفصال. اثنان منا يسلكان أحد الممرّين، والاثنان الآخران يسلكان الممر الثاني».

فهمستُ بحزم: «»لا، سنلازم بعضنا».

«ولكن، قد يكون من الأسرع...»

غير أنني قاطعتها قائلاً: «الانفصال فكرة سيّئة. أعني، إنهم يقومون بذلك على الدوام في الأفلام السينمائية المثيرة وأفلام الرُّعب، أليس كذلك؟ ولا ينجح الأمر أبداً».

«صحيح». وافقتني الرأي.

فقلت وأنا أتوجّه نحو الممر الأعرض: «حسناً، لِنبدأ بهذا الممر».

فسألتْني إيفي وهي تسير بجانبي: «لِمَ اخترت هذا الممر؟».

«لا أعرف. انتابني شعور فحسب حيال ذلك...»

بعد دقائق قليلة، عُدنا إلى حيث انطلقنا. فبعد التحقق من إحدى الغرف واكتشافنا أنها فارغة، اكتشفنا بعد ذلك أن الممر طريق مسدود. لم نُدرك الأمر من قَبل لأن المكان مُظلم جداً، ولكن الممر كان مُحكَم الإغلاق بعد عشرين متراً بواسطة جدار مشيَّد من الحجارة.

«تلك هي المشكلة عندما ينتاب المرءَ شعور حيال أمر ما». قالت لي إيفي بهدوء أثناء سلوكنا طريق العودة. «لا بأس إذا تبيّن أن الأمر صحيح، ولكن المرء يبدو غبياً نوعاً ما إذا كان الأمر غير صحيح».

فنظرتُ إليها، وكانت تُطلق ابتسامة عريضة.

عندها، قلت لها: «شكراً لك لإشارتك إلى ذلك».

«على الرَّحب والسّعة».

أثناء شروعنا بالبحث مجدداً- سالكين بحذر الممر الرئيس، ومتحققين من كل غرفة نصل إليها، ومُبقينَ أعيننا مفتوحة وآذاننا صاغية طوال الوقت- وجدتُ نفسي أتساءل عن سبب عدم مصادفتنا أيّاً من رجال أوميغا بعد. لماذا لا يحرس أحد الباب الخلفي؟ فبالرغم من كل الضجيج في الخارج- الذي بلغ مسمعيّ، وكان لا يزال صاخباً- لماذا لم يضعوا شخصاً ما عند الباب الخلفي تحسّباً؟ أعني،

إنهم محترفون؛ فهم عناصر سابقون في الجيش، أو عناصر سابقون في الأجهزة الأمنية، ومن المُفترض بهم أن يعرفوا ما يفعلونه، أليس كذلك؟ إذاً، لماذا دخلنا نحن الأربعة بهذه السهولة؟ يبدو الأمر تقريباً كما لو أن...

غير أنني قاطعت تساؤلاتي بالقول لنفسي في سري: اخرس يا ترافيس، أنت تُفرط بالتفكير في كل شيء مجدداً، وتقلق حيال هذا الأمر، وتغتاظ. لماذا لا تقتدي بليني؟

فجأة، سمعت مايسون يقول: «هِيه، يا ترافيس».

نظرتُ إليه، فوجدته قد توقف بجانب بابَين دوّارَين إلى يمين الممر، وللبابَين نوافذ بلاستيكية صغيرة، وكان مايسون يحدّق عبر إحداها ليرى ما يوجد في الجانب الآخر.

«هناك ممر آخر من هنا. هل تريد إلقاء نظرة؟».

كنا في منتصف الممر الرئيس تقريباً، وكل الغرف التي تحققنا منها حتى الآن كانت إما فارغة أو معبَّأة بالأغراض؛ لدرجة عدم التمكن من دخولها. وإحدى الغرف كانت مكدَّسة حتى السقف بأثاث مكتبيّ- بطاولات، وكراسٍ- والأخرى مكتظة بصناديق كرتونية مليئة بملفاتٍ وأوراق وقرطاسية. والغرف بحد ذاتها كانت متمَّمة بشكل سيّئ على غرار بقيّة المبنى؛ من تجهيزات ثابتة رديئة النوعية، وأرضية عارية، وجدران رفيعة من الألواح الجصّية.

لا دلالة على وجود بشير في أي مكان، ولا دليل يوحي بأنه كان هنا يوماً.

قال مايسون: «ترافيس، ماذا تريد أن تفعل؟».

نظرتُ إلى الوراء في اتجاهه، شاعراً فجأةً بإرهاق لا يصدَّق. لم أكن أعرف ما يجدر بي فعله، وفكّرت في سري: لا أعرف أي شيء. بدأت أعتقد أن هذه الفكرة برمّتها خطأ كبير.

بعد ذلك، ولزيادة الأمور سوءاً، تمسكت إيفي بقميصي وقالت: «لدينا رِفقة».

استدرتُ ونظرتُ إليها. كانت تحدّق إلى الأمام مباشَرةً بعينَين قاسيتَين وباردتَين، فتبعتُ نظرتها المحدّقة، ورأيت شكلَين بشريَّين ببذلتَين واقفَين معاً في الطرف الأقصى للممر؛ أحدهما الرجل ذو الوجه النحيل، والآخر ذو اللحية العُثنون.

لم يتحركا، بل كانا واقفَين هناك وهما يحدّقان إلينا.

فقال مايسون: «ماذا تعتقدين يا إيفي؟ هناك اثنان منهم، وأربعة منا... هل تتخيّلين فُرصَنا؟».

«إنه أمر بالغ السهولة». أجابت من دون أن ترفع نظرها عن ذي اللحية العُثنون والرجل نحيل الوجه.

بعد ذلك، مدّ ذو اللحية العثنون يده إلى داخل سترته وأخرج مسدساً، وبعد لحظات قام نحيل الوجه بالأمر عينه.

عندها، قالت إيفي بهدوء: «آه! هذا يُعادل الأمورَ قليلاً».

وشرع الرجلان بالسير في اتجاهنا، حاملين سلاحَيهما.

فقال مايسون ناظراً إلى الممر: «أوه، هناك شخص آخر قادم».

عندها، استدرتُ ورأيت الرجل مفتول العضلات يتوجّه نحونا من الاتجاه الآخر بخطى متثاقلة، وبيده سلاح أيضاً، وعيناه أكثر قسوة مما أذكر.

فتمتمتُ مستغرباً: «من أين أتى بحق الله؟».

«من يأبه؟». قال مايسون فاتحاً أحد البابَين الدوّارَين، ودخل عبره برفقة ليني، ثم قال لي ولإيفي: «هيا، بسرعة. هيا، لِنذهب!».

فتمسكت إيفي بيدي، وركضنا في اتجاه البابَين.

كان جدارا الممر في الجانب الآخر من البابَين الدوّارَين مطليّين باللون الأبيض، وأرضيته مكسوّة بحجارة بيضاء، وهناك مصابيح فلوريّة أنبوبية منتشرة فيه، وأضواؤها ترتعش. وأثناء ركضنا في الممر، كانت ظلالنا الملتوية تتحرك بشكل دائري حول أقدامنا. لقد بدأ كل شيء يبدو غير حقيقي على نحو غريب؛ كما لو أنه لا يحدث في الواقع، أو يحدث لأشخاص آخرين. وفي الوقت نفسه، أدركتُ تماماً أن ما يحدث حقيقيّ، ويحدث لي. كنت أركض، وكنت خائفاً، وباستطاعتي الشعور بقلبي ينبض بسرعة.

فجأة، سألني مايسون: «أي طريق نسلك يا ترافيس؟ أتريد مواصلة التقدم أم يُفترض بنا عبور أحد هذَين البابَين؟».

أمعنت النظر إلى الممر أمامي. كنا ندنو من بابَين- أحدهما إلى يمين الممر، والآخر إلى يساره- وكلاهما مُغلَقان. وكان الباب إلى اليمين يحمل لافتة عليها كلمة **مخازن**، وعلى الباب الآخر لافتة عليها كلمة **مكتب**. وعلى بُعد عشرين متراً بابان دوّاران آخران لا نوافذ فيهما، لذلك لم أتمكن من رؤية ما يوجد وراءهما. ولكن، إذا كان الممر ممتداً في الجانب الآخر، فربما سيقودنا إلى مَخرج آخر. هذا كل ما كنت أفكر فيه؛ أي العثور على مَخرج، وخروجنا جميعاً سالمين ومُعافين. هذا كل ما كان يشغل تفكيري.

لذا، ناديتُ: «واصلوا السير! اتجهوا نحو البابَين الدوّارَين!».

بالكاد كانت الكلمات قد خرجت من فمي عندما فُتح البابان الدوّاران وسار الرجل الأصلع نحونا بخطى واسعة، حاملاً مسدساً بيده. فجأةً، توقفنا جميعاً لدى رؤيته، ثم نظرنا حَولنا على الفَور تقريباً مع انفتاح البابَين الدوّارَين وراءنا وظهور ذي اللحية العُثنون والرجل نحيل الوجه في الطرف الآخر للممر.

فأطلق مايسون الشتائم.

عندها، قلت بسرعة وأنا أركض وأفتح الباب الذي يحمل كلمة **مخازن**: «بهذا الاتجاه!».

ثم دخلتُ وأضأت المصباح. وأثناء اندفاع الثلاثة الآخرين ورائي، تحققتُ من الغرفة بسرعة. لا نوافذ، ولا مَخارج أخرى. فهي مجرد غرفة صغيرة رثّة أخرى مليئة بأثاث مكتبي وصناديق كرتونية مطروحة جانباً.

«لا قفل هنا!». قال مايسون أثناء انغلاق الباب بقوة وراءه، ثم تابع: «علينا إقفاله بشيء ما». ونظر حَوله باحثاً في أرجاء الغرفة، ثم تابع: «ليني، أحضر تلك الخزانة. تراف، إيفي، ساعداني على جرّ طاولة المكتب هذه».

وأثناء إمساك ليني خزانة تخزين معدنية كبيرة وشرعه برفعها عبر الغرفة، حرّكنا نحن الثلاثة طاولة مكتب قديمة العهد وثقيلة بعيداً عن الجدار، ووضعناها عند الباب.

وتحرك ليني بتثاقل، حاملاً خزانة التخزين، فقال له مايسون:

«ضعها على طاولة المكتب يا لين».

ألقى ليني الخزانة على أعلى طاولة المكتب، وشرع بتحريكها لإسنادها إلى الباب.

فقال له مايسون: «دَعها يا لين، سنقوم نحن بذلك». ثم أشار إلى الناحية المقابلة في الغرفة وتابع: «اذهب وأحضر تلك الخزانة الأخرى».

أثناء سير ليني بخطوات واسعة، ساعدتُ مايسون وإيفي على دفع الخزانة وإسنادها إلى الباب. وعندما أتممنا ذلك بشكل مُحكَم، تحرك مِقبض الباب وحاول أحدهم دفعه. فُتح الباب قليلاً من الأعلى، ولكن الجزء السُّفلي لم يتحرك قط.

«انتبهوا إلى ظهوركم». قال أحدهم بصوت جَهوريّ خفيض، فاستدرتُ ورأيت ليني يرفع فوقنا خزانة التخزين الأخرى بين ذراعَيه. لقد مرّ وقت طويل على سماعي إيّاه يقول أي شيء، لدرجة أنني نسيت تقريباً أن باستطاعته الكلام. ولكن، لم يكن لديّ الوقت الكافي لأتفاجأ؛ إذ حاول أحد رجال أوميغا فتح الباب بقوة هذه المرة، وهو يدفعه بيدَيه.

«الآن، يا ليني!». صاح مايسون، ثم ابتعدنا جميعنا عن طريق ليني المترنّح إلى الأمام، وسرعان ما وضع الخزانة المعدنية فوق الأخرى.

لقد بات المتراس يغطي كل الباب، جاعلاً إيّاه أكثر صلابة. وعندما وجّه رجل أوميغا ضربة قوية أخرى إلى الباب، لم يصمد في مكانه فحسب، بل سمعنا أيضاً نخير ألم يصدر من الجانب الآخر.

فقال مايسون: «عمل جيد يا لين. يُفترض بهذا أن يُعيقهم لبعض الوقت».

فقلت: «ولكنه لن يُعيقهم إلى الأبد، أليس كذلك؟».

عندها، نظر إليّ مايسون.

في تلك اللحظة، وُجِّهت إلى الباب خبطة أخرى أكثر قوة هذه المرة.

فقلت لمايسون: «إنه الرجل مفتول العضلات على الأرجح. أنت تعرف أنهم سيدخلون في النهاية، أليس كذلك؟».

«إذاً، من الأفضل لنا الإسراع والتفكير في شيء ما، أليس كذلك؟».

فقلت متنهّداً: «لقد وقعنا في الفخ يا مايسون، ولن نجد مَخرجاً».

عندها، ابتسم مايسون وقال: «هناك مَخرج على الدوام يا تراف. عليك العثور عليه فحسب».

ومع شروع مايسون بذرع الغرفة ذهاباً وإياباً باحثاً عن أي مَخرج ممكن- مُلقياً نظرة سريعة على السقف، وضارباً الأرض بقدمه- قصدتُ إيفي وسألتها عن حالها.

فقالت وهي تنظر إلى الباب الذي كان يتلقّى ضربة أخرى قوية: «أنا بخير، شكراً».

عندها، استهللت كلامي قائلاً: «اسمعي، أنا آسف حقاً لأنني أقحمتك في كل هذا...»

«لم تُقحمني في أي شيء. فأنا أردت القدوم».

«أجل، أعرف. ولكن...»

«هِيه، أَرِح نفسك من هذا الأمر». قالت موجّهةً لي لكمة مداعبة على ذراعي، ثم تابعت: «أنا سعيدة بقدومي. لم أحظَ بهذا القَدْر من المرَح منذ مدة طويلة».

فعبستُ وسألتها مستغرباً: «هل تستمتعين بهذا الأمر!؟».

«إنه يبقى أفضل من تسكعي في المنطقة السكنية طوال الليل، وأنا أشعر بالسأم».

وُجِّهت إلى الباب ضربة أخرى مجلجِلة، وهذه المرة تحطم جزء من إطار الباب.

فقالت إيفي وهي تنظر إلى الباب مجدداً: «لن يصمد طويلاً؛ فهو رديء النوعية وهش، وهذه هي المشكلة». ثم ألقت نظرة سريعة حَولها هازةً رأسها وتابعت: «يبدو الأمر كما لو أن هذا المكان برمّته مصنوع من...»

عندئذٍ، سمعتُ نَقراً يصدر من الجانب المقابل للغرفة. وعندما استدرتُ للتحقق من الأمر، تبادرت إلى ذِهني فكرة فجائية. وحين رأيت مايسون يوجّه ضربات إلى الجدار ببراجمه، أدركتُ أن الفكرة نفسها قد خطرت بباله. فالجدار خلفي والجداران الجانبيّان مشيَّدة من الحجارة، ولكن الجدار المقابل...

قلت لمايسون: «إنه مصنوع من ألواح جصّية، أليس كذلك؟».

فنظر إليّ، وفي عينَيه بَريق إدراك، ومن ثم استدار- مُطلقاً ابتسامة عريضة لنفسه- وانهال على الجدار بقبضة يده التي اخترقت اللوح الجصّي الرقيق بسهولةِ اختراقِ لوحٍ كرتونيّ. وبعد ذلك، سحب قبضته فسقطت قِطع كبيرة من اللوح الجَصّي، وظهر في الجدار ثقب بحجم كرة قدم. استرق مايسون النظر عبر الثقب، ثم قال وهو يومئ لنا للاقتراب: «يبدو أن هناك غرفة أخرى فارغة».

في تلك الأثناء، تلقى الباب ضربة قوية أخرى، فتصدّع الإطار واقتُلعت إحدى المفصّلات.

عندها، شرع مايسون بمهاجمة الجدار موسّعاً الثقب، ومُزيلاً كُتلاً كبيرة من اللوح الجَصّي بركلاته، فركضنا نحوه وانضممنا إليه. لقد تطلّب منا إحداث فجوة كبيرة بما يكفي للمرور عبرها نحو خمس ثوانٍ. وأثناء مرورنا بصعوبة إلى الغرفة المُظلمة المجاورة، سمعتُ صوت الباب وراءنا وهو ينهار.

عندما عبرنا كلنا الفجوة بأمان، لم نضيّع أي وقت سدى. فقد مرّ عبر الفجوة نورٌ كافٍ أتاح لنا رؤية الباب في الجدار المقابل. ومع ارتفاع صوت الخشب المتحطم والمعدن المتهاوي وراءنا، ركضنا في اتجاه الباب وفتحناه.

انتقلنا لدى عبورنا الباب إلى ممر آخر، حيث المزيد من الجدران البيضاء، والمزيد من الأضواء الفلورية المرتعشة. كان الممر ينعطف إلى يسارنا، في حين يوجد جدار آخر إلى يميننا مشيَّد من الحجارة.

فانعطفنا يساراً وركضنا.

أثناء انطلاقنا بأقصى سرعة في الممر، بدأت أفكر في أننا ربما نتمكن من الفرار بالرغم من كل شيء. كان من الصعب معرفة الاتجاه الذي تؤدي إليه الطريق التي نسلكها، ولكنّ شعوراً انتابني بأننا متجهون من الممر الرئيس إلى الجانب الأقصى للمبنى. رأيتُ مفترق طرق في الأمام، وإذا كان شعوري صائباً، فسيُعيدنا الانعطاف إلى اليمين إلى مؤخّر المستودع، في حين سيحملنا الانعطاف إلى اليسار إلى المقدمة. والأهم من ذلك أن كِلا الاتجاهَين سيوصلاننا إلى باب مَخرج. وحتى لو لم نجد باباً، فسنعثر على نافذة بالتأكيد.

اقتربنا من مفترق الطرق. كانت إيفي تركض في المقدّمة وليني وراءها مباشَرةً- إنه سريع في الركض على نحو مثير للدهشة- ومايسون وأنا في النهاية.

«إلى اليمين أو اليسار يا تراف؟». سألتني إيفي.

وألقت نظرة سريعة من فوق كتفها أثناء تكلّمها، لذلك لم تكن تنظر إلى حيث تتجه، ولهذا السبب لم ترَ الرجال الثلاثة وهم يخرجون من وراء الزاوية أمامها. لقد عرفتُهم على الفَور: الرجل المسلَّح الذي كان في البي أم دبليو، والرجل شاحب البشرة وذو الشعر المائل إلى الاحمرار، وونستون ذو العينَين الرماديّتَين فولاذيّتَي اللون.

فصحتُ: «**إيفي، انتبهي!**».

ولكن بعد فوات الأوان. إذ قبل أن تتمكن من القيام بأي شيء، وجدت نفسها بين أيديهم. فقد اندفع الرجل أحمر الشعر في اتجاهها على الفَور، وبالرغم من تمكّنها من الإفلات منه إلا أنها لم تتمكن من الإفلات من الرجل المسلّح. وأثناء إمساكه بها من الوراء وتثبيته ذراعَيها إلى جانبَيها، هاجم ليني الرجل أحمَر الشعر وأوقعه أرضاً. وأثناء قيام مايسون بمهاجمة ونستون، سعيتُ وراء الرجل المسلّح.

كان قد أسند ظهره إلى الجدار، باذلاً قُصارى جهده للإمساك بإيفي التي كانت تنهال عليه ضرباً بجنون؛ ملتويةً، ودائسةً على قدمَيه، وقاذفةً رأسها إلى الوراء في اتجاه وجهه. وعندما رآني قادماً، أفلتها فجأةً ودفعها بعيداً، وشرع بمد يده إلى داخل جَيبه بحثاً عن مسدسه. ولكن، بدلاً من أن تبتعد عنه عندما دفعها جانباً، دارت إيفي بسرعة، ووجّهت له لكمة أولى إلى ذَقنه، فيما أصابت لكمتُها الخطّافية الممتازة الثانية منطقةَ الأُربيّة لديه، فحوَل عينَيه، وترنّح على جانب واحد، ومن ثم تحوّلت ساقاه إلى ما يشبه المطّاط وانهار أرضاً.

راقبتُه للحظات قليلة للتأكد من عدم نهوضه، ومن ثم نظرت إلى إيفي وسألتُها:

«هل أنت بخير؟».

فأجابت مبتسمة: «أنا بخير».

تبادلنا النظرات للحظات، ومن ثم استدرت لرؤية مسار الأمور مع مايسون وليني.

كان ليني يُنهي على الرجل أحمر الشعر، ضارباً رأسه بالجدار من دون عناء. ولكنني عندما نظرتُ إلى مايسون، وجدتُ أنه في مأزق. إذ كان لا يزال واقفاً على قدمَيه متخذاً وضعية ممارسة الملاكمة مع ونستون، ولكن من الواضح أنه تلقى بعض الضرب؛ ففمه ينزف، وكان يترنّح قليلاً وذراعه اليسرى متدلية إلى جانبه. تأرجح في اتجاه ونستون، ووجّه له لكمة خالية من أية قوة أو سرعة أغفلتْ هذا الأخير بعد تراجعه، فتعثّر مايسون وكاد يقع إلى الأمام.

كان بإمكان ونستون الإنهاء عليه، ولكنه بدا متردداً بالقيام بأي شيء. فقد وقف هناك فحسب، مراقباً بهدوء مايسون وهو يتمايل. عندئذٍ، شرعتُ بالركض نحوه. وأثناء قيام ونستون بإلقاء نظرة سريعة باتجاهي ورؤيته لي متجهاً نحوه، لم يتردد للحظة واحدة. لقد تحرك بسرعة كبيرة، لدرجة أنني لم أكن واثقاً من ضربه مايسون إلى أن رأيت هذا الأخير ينحني ويسقط على ركبتَيه، وهو متجهّم الوجه من فرط الألم، وممسكاً جانبه بإحكام. وعندما وصلتُ إلى ونستون، كان قد بدأ بالتحرك نحوي، رافعاً يدَيه كما لو أنه يحاول التوصل إلى هُدنة.

قال بسرعة: «تمهّل يا ترافيس، أصغِ إليّ فحسب...»

غير أنني اندفعتُ في اتجاهه، موجِّهاً لكمة خطّافية إلى رأسه، ولكنه رآها قادمة وأبعد قبضة يدي عن رأسه، وقال بصوت عالٍ وبحدة:

«حبّاً بالله يا ترافيس، أردت فقط أن...»

ولكنني وجّهتُ له لكمة أخرى، وأثناء قيامه بتفاديها، أنزلتُ رأسي ووجّهتُ له لكمة بيدي اليسرى على بطنه من الأسفل إلى الأعلى، فأنّ وانحنى، وعندها سدّدتُ ضربة قوية بقبضة يدي على مؤخّر رأسه، وركَلتُه برُكبتي على وجهه. إنه مزيج قاسٍ، وكان يُفترض به السقوط ولكنه لم يفعل، بل ترنّح فقط إلى الوراء خطوات قليلة، ممسكاً وجهه بيدَيه، ومن ثم قوّم وقفته، ومسح دفقاً من الدم عن أنفه، وابتسم لي. كانت شفتاه مجروحتين ومضرّجتين بالدماء.

غمغم وهو يومئ برأسه: «لا بأس بك، لا بأس بك».

ألقيت نظرة سريعة على مايسون. كان يحاول النهوض، ولكنه يشعر بألم شديد كما يبدو. ونظراً إلى طريقة انحنائه جانبياً، عرفتُ أن لديه ضلعاً واحداً مكسوراً على الأقل أو ضلعَين.

ثم نظرتُ حَولي متسائلاً عن مكان ليني وإيفي، وعندما رأيتهما واقفَين جَنباً إلى جَنب ومحدّقَين إلى الممر، أدركتُ أن ذلك لا يعني سوى أمر واحد. نظرتُ في اتجاه الممر بقلب خافق، فرأيت الرجل الأصلع، وذاك نحيلَ الوجه، والآخر مفتولَ العضلات يتوجهون نحونا بسرعة.

وأثناء وقوف ليني وإيفي هناك بانتظارهم، استدرتُ نحو ونستون.

لم أكن قد أشحتُ بنظري عنه سوى لحظات قليلة، ولكنني نسيتُ مدى سرعة تحرّكه. وعندما استدرتُ نحوه مجدداً، كان واقفاً أمامي مباشَرةً، ووجهه

المضرَّج بالدماء يحدّق إلى عينَيّ مباشرة.

لا أعرف ما الذي ضربني به. حتى إنني لم أرَه يتحرك. على الأقل، لا أذكر رؤيتي له وهو يتحرك. وكل ما أذكره هو تلقّيّ صدمة فجائية، وانفجار ضوء أسود في رأسي، ومن ثم لا شيء.

أول من رأيتُه عندما فتحتُ عينَيّ شابٌ يرتدي بذلة تمرين سوداء ويجلس على أريكة بيضاء. كان لديه وجه طويل نوعاً ما، وشعر أسود قصير، وعينان قاتمتان بطريقة تُلازم الذاكرة. كان مايسون وليني جالسَين على الأريكة معه، وونستون واقفاً جانباً. وكان مايسون والشاب يتحدثان عن أمر ما، ولكن الأريكة موجودة في الجانب الآخر للغرفة، فلم أتمكن من سماع ما كانا يقولانه.

ولم أفهم ما يجري.

لم أعرف أين أنا.

ولم أعرف سبب النَبْضِ الذي شعرت به في رأسي.

ولم أعرف سبب بُدُوّ الشاب ببذلة التمرين مألوفاً كثيراً.

أغمضتُ عينَيّ وحاولت التفكير في الأمر، ولكنني لم أتمكن من التركيز. لا شيء البتة. كان رأسي مشوَّشاً.

لم أشأ فتح عينَيَّ مجدداً.

ولم أشأ رؤية أمور لا أفهمها.

كنت مُرتبكاً جداً.

ولكنني عندئذٍ شعرت بيد على ذراعي، وهمس صوت لطيف باسمي، ففتحتُ عينَيّ ورأيت إيفي تحدّق إلى وجهي؛ فتذكرتُ كل شيء فجأةً.

إن الغرفة حيث كنا موجودين أكثر راحة بكثير من الغرف الأخرى في المبنى. ففيها أريكتان صغيرتان (إحداهما كنت أتشاطرها مع إيفي)، وكرسيّ بذراعَين، وطاولة، وتلفاز كبير الحجم. وهناك سجادة على الأرض، وخزانتان، ومطبخ صغير. لم تكن إيفي واثقة بالتحديد من مكان وجود الغرفة. فقد تمّ اصطحابها مع مايسون وليني إلى هنا تحت تهديد السلاح- كما قالت لي- ونقلني مفتولُ العضلات إلى هنا أيضاً. لذلك، كانت منشغلة البال بأمور أخرى في ذلك الوقت، ولم تولِ المكان الذي اصطُحبت إليه اهتماماً كبيراً. ولكنها اعتقدت أننا ربما نكون في مكان ما قرب مقدّمة المستودع.

قالت لي: «شرح لنا ونستون كل شيء، وأكّد لنا بشير الأمر».

فنظرتُ إلى بشير كمال في الناحية المقابلة للغرفة. كان لا يزال جالساً على الأريكة مع مايسون، ورأيت مايسون يبتسم لشيء ما قاله بشير، ثم أجاب بشير، ومثّل كيفية توجيه لكمة، فضحك بشير بهدوء.

لاحظ ونستون استيقاظي، وعندما رآني أنظر إليه، أومأ لي برأسه. لقد ذكّرني ذلك بتلك المرة التي أومأ لي فيها برأسه في موقف السيارات بعد الجنازة. وتلك الذِّكرى ربما حثّتني على إلقاء نظرة سريعة على سترة بذلته وإدراك أن الزر الأوسط يبدو مختلفاً قليلاً عن الأزرار الأخرى؛ تماماً كما كان الحال في الجنازة.

إنه يضع الكاميرا المخبَّأة.

وأثناء تفكيري في ذلك، حدّقتُ في أنحاء الغرفة. كان الرجل الأصلع متكئاً على الجدار قرب الباب، أما ذو اللحية العُثنون فكان جالساً على كرسيّ بذراعَين متربِّعاً، وهو يحدّق إلى هاتفه المحمول بتكاسل.

وكان باب الغرفة مفتوحاً.

لم أرَ أي أسلحة.

وبدا الجميع مسترخين جداً.

لم يَبدُ لي الأمر حقيقياً.

لم يكن أي شيء يبدو حقيقياً.

فسألتُ إيفي: «لماذا هذا الهدوء التام؟ ولماذا لا يُصدر الشباب الصغار في السنّ أي ضجيج في الخارج؟».

«طلب منهم مايسون المغادرة».

«لماذا؟».

فقالت برِفق: «لسنا بحاجة إليهم يا تراف. لم نكن بحاجة إليهم قط».

ثم سمعتُ ونستون يقول:»في الواقع، إنها مُحِقة».

نظرت أمامي فرأيتُه قادماً في اتجاهنا، وبشير برفقته. وعندما توقفا أمامنا، تَولَّد لديّ انطباع بأنهما مرتاحان برفقة أحدهما الآخر.

سألني ونستون: «كيف تشعر يا ترافيس؟ آسف لأنني ضربتك...» وأطلق ابتسامة عريضة مُشيراً إلى وجهه المضروب، ثم تابع: «ولكنك في الواقع لم تترك لي خياراً آخر، أليس كذلك؟». والتفت إلى بشير.

«أهذا صحيح؟». قال بشير، وأومأ لي برأسه، وألقى نظرة سريعة على إيفي.

فوقفتُ.

التفت بشير إليّ ومدّ يده قائلاً: «بلغني أنك تبحث عني».

فصافحتُه، غير واثق مما أقوله.

عندها، أطلق ابتسامة عريضة وقال: «حسناً، ها أنذا».

فقلت: «صحيح».

فتابع: «وكما ترى، لستُ موثَقاً أو مربوطاً بسلسلة إلى جهاز تدفئة أو أي شيء آخر. فالباب مفتوح، ويمكنني الخروج من هنا في الحال إذا شئتُ». وهزّ كتفَيه. «وكما قلتُ لأصدقائك، أنا لستُ سجيناً، اتفقنا؟ أعني أنني أقدّر قلقك عليّ حق قَدْره، ولكنني لست بحاجة إلى إنقاذ».

وأثناء ابتسام بشير لإيفي وجلوسه على الأريكة بجانبها، التفتُّ إلى ونستون، فشرح لي قائلاً:

«عاملتِ الأجهزة الأمنية البريطانية «بشير» كما لو أنه قذارة؛ رغم أنه جازف حياته من أجل هذا البلد. ولكن، حالما لم تَعُد أم آي 5 بحاجة إليه، رمت به خارجاً. والسبب الوحيد لرغبتها في استعادته الآن هو سعي السي آي أيه وراءه، وستفعل أم آي 5 أي شيء لمنع السي آي أيه من استجواب أحد مُخبريها سواء أكانت تقدّره عالياً أم لا». ونظر إليّ ونستون ثم تابع: «تعتقد السي آي أيه أن

«بشير» إرهابي».

«أعلم».

«وإذا أمسكت به، فنحن لا نعرف ما الذي يمكنها فعله».

فقلت: «أنا مُدرك للوضع. ما أريد معرفته هو...»

غير أنه قاطعني قائلاً بحزم: «لا يا ترافيس، أنت غير مُدرك للوضع. ولو كنتَ كذلك لَما كنتَ هنا».

«كان عليّ التأكد من أن «بشير» بأمان».

فقال ونستون متنهداً: «كان بأمان، وكنا نسيطر على الوضع. لم يكن أحد يعرف مكانه، وكانت حراسته تتمّ على مَدار الساعة، وكنا في المراحل الأخيرة لتدبّر هويّة جديدة له ومكان جديد ليعيش فيه. كنا أيضاً نجمع أدلة تُثبت من دون أي شك أن «بشير» بعيد كل البعد عن كونه إرهابياً، وأنه في الواقع كان شخصاً نافعاً لـ أم آي 5 نجح في التسلل إلى داخل خليّة إرهابية». وصمت ونستون قليلاً، ثم حدّق إليّ وتابع: «هل فهمتَ الآن؟ متى أقنعنا السي آي أيه بأن «بشير» ليس إرهابياً، لن يعود مَحَطّ اهتمام أحد. وسيصبح حرّاً في بدء حياة جديدة من دون الاضطرار إلى مواصلة النظر من فوق كتفه طوال الوقت. ولولا تدخلك يا ترافيس، لَبدأ تلك الحياة الجديدة غداً».

فقال بشير وهو يشعر بالقلق فجأةً: «ما الذي تعنيه بقولك لَبدأ؟».

فنظر إليه ونستون قائلاً: «آسف يا بشير، ولكن عمليّتنا باتت عُرضة للشُّبُهات».

«ماذا؟».

«في وقت مبكّر من الليلة، تلقت أجهزة الطوارئ اتصالاً عن اضطراب جِدّي حصل في سوتون لين. والخبر الجيد هو أن الاتصال تم اعتراضه من قِبَل أحد مصادر معلوماتنا الذي تمكن من مَحوه قبل اتخاذ أي إجراء. ولذلك، ليس علينا القلق الآن حيال حضور الشرطة».

فسأل بشير: «إذاً، ما الخبر السيّئ؟».

«لدى السي آي أيه مصادر معلومات في الشرطة أيضاً. وقد اعترضت الاتصال قبل مَحوه».

فقال بشير عابساً: «أين المشكلة؟ أعني أن السي آي أيه لا تعرف أننا هنا، أليس كذلك؟ إذاً، ما أهمية تلقّيها معلومات عن مجموعة من الفتيان الذين يلعبون في سوتون لين؟ لا سبب يدعوها لربط ذلك بنا، أليس كذلك؟».

«لدينا مصدر معلومات في السي آي أيه».

«أين المشكلة؟».

«تكمن المشكلة في أننا نعرف أنهم ليسوا أغبياء. إنهم يراقبون كل شيء، ويحلّلون كل شيء. عملاؤهم مدرَّبون على تدوين ملاحظات خاصة عن أي شيء خارج المألوف. وقيام أربعين فتى من منطقة سليد لين السكنية بمحاصرة مستودع فارغ- كما هو مُفترض- أمرٌ خارج عن المألوف تماماً». وألقى عليّ

ونستون نظرة سريعة، ومن ثم التفت إلى بشير، ثم تابع: «وفقاً لمصدر معلوماتنا، بعد دقيقتَين من تلقّي أجهزة الطوارئ الاتصالَ، أرسل عميل سي آي أيه للتحقيق في الاضطراب. لقد وصل إلى مسرح الحدث بعد عشر دقائق، وأمضى عشر دقائق إضافية مقترباً من المستودع بما يكفي لرؤية ما في داخله، ومن ثم أبلغ رؤساءه بسرعة».

قال بشير وهو يهز رأسه: «ما كان بإمكانه أن يراني».

فأجاب ونستون: «لم يرَك، ولكنه لم يكن بحاجة إلى ذلك. فقد رأى أحد رجالي، وعرفه من شجار حدث مع السي آي أيه قرب منزل ترافيس في كِل كروس هذا الصباح. آسف يا بشير، ولكن السي آي أيه صارت تعرف أنك هنا».

لم يقل بشير شيئاً، بل حدّق إلى الأرض عَمداً.

تابع ونستون كلامه بهدوء: «إنهم يحاصرون المبنى. في الخارج عشرة عملاء على الأقل، وربما أكثر».

فحدّق إليه بشير ببطء، وعلى وجهه نظرة ازدراء، ثم قال: «لقد وعدتَني بالاهتمام بي. لقد قطعتَ عليّ وعداً».

فهز ونستون كتفَيه وقال: «هذه الأمور تحدث».

فقال بشير: «إذاً، لقد انتهى كل شيء، أليس كذلك؟ هل ستستسلم من دون مقاومة؟ هل سترميني للذئاب؟!». وضحك باستهزاء. «لستَ أفضل من بقيّتهم».

فقال ونستون بصبر: «إنهم يفوقوننا عدداً إلى حد كبير، ولا فرصة لدينا البتة إذا حاولنا الخروج من هنا بالقوة. يتمثل خيارنا الوحيد بالتفاوض».

«التفاوض!». قال بشير متهكماً.

«لِمَ لا؟ أعلم أننا ما زلنا لا نملك دليلاً قاطعاً على براءتك، ولكننا نملك أدلة ظَرفية تكفي لتزويد السي آي أيه على الأقل بشيء ما للتفكير فيه. إذا أريناهم ما لدينا الآن... حسناً، من يعلم؟ قبل انتهائهم من التأكد من الدليل الذي أعطيناهم إياه وتحليله، ربما سنكون في وضع يسمح لنا بتزويدهم بالدليل الذي يحتاجون إليه».

«وماذا ستفعل بي السي آي أيه في غضون ذلك برأيك؟». سَخِر بشير. «هل سيتم وضعي في فندق من الدرجة الأولى؟».

«حسناً، إنه أحد الأمور التي لا يمكننا التفاوض حولها...»

«إنهم أميركيون!». هسهس بشير، متفوّهاً بالكلمة كما لو أن مجرد لفظها يُشعره بالغثيان. «لا تتفاوض مع أميركيين».

لقد فاجأتني ثورة غضبه. وأثناء التفاتي وإلقائي نظرة سريعة عليه، وجدتُ صعوبة في تصديق التغيّر الفجائيّ في سلوكه. فالشاب المتساهل الذي كان منذ دقائق قليلة جالساً على الأريكة قد ذهب، وحلّ مكانه متعصّب مليء بالكره، ويتملّكه حقد شديد، ووجهه مستشيط غضباً، ونظراته غير متوازنة؛ وكل عضلة في جسده متوترة.

ولاحظتْ إيفي التبدّل أيضاً، فابتعدت عنه شيئاً فشيئاً بهدوء وتكتُّم.

وفي اللحظات القليلة التالية، بدا الأمر كما لو أن كل شيء يحدث بحركة بطيئة.

رأيت ونستون يتوجه نحو بشير، وعلى وجهه نظرة مواساة. وعندما شرع بالانحناء ومدِّ يده، معتزماً- كما أفترض- التربيت على كتف بشير لطمأنته، تساءلتُ عن سبب عدم مطابقة النظرة البادية في عينَي ونستون مع التعابير البادية على وجهه. إذ كان وجهه مثالاً للتعاطف؛ فهو مواسٍ، ومهدِّئ، ومشجِّع، ولكنّ عينَيه عديمتا الشفقة وحادّتان كآلة حلاقة.

انحنى أكثر فأكثر، مادّاً يده نحو كتف بشير.

كانت سترته غير مزرَّرة، وفُتحت لدى انحنائه، كاشفةً عن مسدس آليّ في قِراب عند الكتف.

فنظرتُ إلى بشير.

كان يمد يده نحو المسدس.

فتحت فمي لقول شيء ما، ولكنّ كل ما حصل لاحقاً تم بسرعة فجائية. فقد تسللت يد بشير تحت سترة ونستون وخرجت بسرعة البَرق، وقبل أن تتسنّى لأي شخص فرصة القيام بأي شيء، وضع ذراعه حول عُنُق إيفي، وأوقفها على قدمَيها، وصوّب السلاح نحو رأسها.

فشهقت إيفي قائلة: «ماذا تفعل بحق الله...»

فهسهس بشير مقاطعاً إياها: «اخرسي!».

كنت قد قفزتُ واقفاً حالما أمسك بها، وتقدّم مايسون وليني إلى منتصف الغرفة، ولكن أحداً منا لم يستطع القيام بأي شيء. إذ كان بشير يمسك إيفي أمامه، ضاغطاً فوّهة المسدس على رأسها، وذراعه اليسرى ملتفّة بإحكام حول عُنُقها.

«تراجعا!». قال بغضب لمايسون وليني.

فلزما مكانيهما.

فقال لهما مجدداً محرّكاً رأسه إلى اليسار: «إلى هناك، إلى الجدار».

عندها، تراجعا ببطء وتوقّفا قرب الجدار.

ثم صاح في وجهي:»أنت، اجلس!».

فجلستُ ببطء.

بعد ذلك، التفت بشير إلى ونستون وقال ببساطة: «إذا تحرك أحد فسأقتلها».

لم يقل ونستون أي شيء، بل وقف هناك ناظراً إلى بشير، ومزرِّراً سترته كما لو أن لا شيء يُقلقه في العالم. ألقيتُ نظرة سريعة على الرجل الأصلع وذي اللحية العُثنون للتأكد مما يفعلانه فوجدتهما واقفَين وهما يراقبان كل خطوة يقوم بها بشير، ولكن من دون أن يفعلا أي شيء لإيقافه.

فتساءلت في سري: ما بالهما؟

ولماذا لا يفعلان أي شيء؟

وما الذي يخطط له بشير بأية حال؟

نظرتُ إلى إيفي راغباً في مساعدتها، ولكنني لم أعرف ما يجدر بي فعله. لم أفهم أي شيء فحسب.

دنا بشير من مدخل الباب، ورأيته يُلقي نظرة سريعة من فوق كتفه للتحقق من مدى قُربه من الباب. وأثناء قيامه بذلك، ظهر شكل بشريّ مألوف بعضلاته المفتولة في الممر، وخطا بهدوء إلى مدخل الباب قاطعاً الطريق عليه. حملق بشير بالرجل مفتول العضلات للحظات، ومن ثم أحكم قبضته حول عُنُق إيفي، وضغط بالمسدس على رأسها بقوة أكبر. فأجفلت إيفي، وتجهّم وجهها بسبب الألم الفجائي الذي شعرت به، ولكنها لم تصِح.

ثم التفت بشير إلى ونستون قائلاً: «اطلب من مفتول العضلات التنحّي في الحال، وإلا فسأضغط على الزِّناد، أُقسم».

«لا بأس يا إيفي». قال ونستون برِفق، ناظراً إلى عينَي إيفي ومطمئناً إياها، ثم تابع: «ستكونين بخير. أَعِدك، لن يحدث لك أي شيء».

«أتعتقد أنني أخدعك فحسب وأهددك؟». قال بشير بغضب.

غير أنّ ونستون تجاهله للحظات، مركِّزاً على إيفي، وطالباً منها بصمت أن

تثق فيه. فبادلته نظراته بهدوء، وعيناها تقولان له: تابع، قُم بما يتعيّن عليك القيام به. وعندها، حوّل ونستون انتباهه إلى بشير، وقال له: «لا، يا بشير». ثم رمقه بنظرة جافية ومحدِّقة وتابع: «لا أعتقد أنك تخدعني. في الحقيقة، أعتقد أنك قادر تماماً على إطلاق النار على فتاة بريئة في الرأس».

عندها، تردد بشير مُرتبكاً للحظات.

فتابع ونستون قائلاً له: «كما تعلم، نحن نعرفك على حقيقتك، نعرفك منذ البداية. نعرف من أنت، وما فعلته، وما الذي تخطط للقيام به». وابتسم ونستون. «هل تعتقد حقاً أننا سنسمح لشخص مثلك بالاقتراب من مسدس مذخَّر؟».

عندها، أطلق بشير ابتسامة عريضة وقال ببرودة: «محاولة جيدة. الآن، اطلب من الرجل الضخم الابتعاد عن طريقي وإلا فسأحدث ثُقباً في رأس الفتاة».

فتنهد ونستون، ونظر إلى الأرض، ومن ثم رفع نظره إليه مجدداً وشرع بالسير نحوه عَمداً.

فحذّره بشير: «أنا أَعني ما أقوله! اقترب أكثر وسأُطلق النار عليها».

غير أن ونستون تابع السير قائلاً له: «هيّا، امضِ قُدُماً، اضغط على الزِّناد».

وأثناء تحديق بشير إليه محاولاً بشكل يائس اتخاذ قرار في هذا الشأن، لم أستطع رفع نظري عن ونستون وأنا أتساءل: هل يقول الحقيقة؟ هل المسدس فارغ حقاً أم تراه يتحداه لتنفيذ تهديده؟

كان من المستحيل بالنسبة إلي معرفة الحقيقة؛ فوجه ونستون كالقناع.

كان قد أصبح على بُعد ثلاثة أمتار من بشير عندما اتخذ هذا الأخير قراره. فمن دون إطلاقه سراح إيفي، مدّ ذراعه اليمنى فجأةً، وصوّب المسدس نحو رأس ونستون، فتوقف ونستون متسمراً في مكانه من دون أن يُبعد نظراته عن عينَي بشير. توقف بشير للحظات قليلة، ومن ثم ثبّت ذراعه وضغط على الزِّناد.

سُمع صوت طقطقة الزِّناد، ولكن من دون انطلاق أي عيار ناريّ.

فتنفّستُ الصُّعَداء.

عندها، قال ونستون لبشير بهدوء: «انتهى الأمر. أَطلق سراحها».

أنزل بشير المسدس ببطء، ولكنه لم يُطلق سراح إيفي.

«أَطلق سراحها يا بشير. الآن».

ألقى بشير المسدس على الأرض، ولكنه لم يُطلق سراح إيفي.

لقد عِيل صبر ونستون، فألقى نظرة سريعة على الرجل الأصلع وذي اللحية العُثنون، وشرعا بالتحرك نحو بشير معاً.

فابتسم بشير وقال بطريقة تُنذر بالشؤم: «لم ينتهِ الأمر قط يا ونستون. ويُفترض بك- من بين كل الناس- أن تعرف ذلك». ثم أفلت عُنُق إيفي بحركة سريعة، والتقط ذراعها ولواها وراء ظهرها، وبعد ذلك مدّ يده في الوقت نفسه في اتجاه الناحية الخلفية لسرواله، وأخرج سكين مطبخ ذات نَصل قصير.

«اطلب من رَجُلَيك أن يتراجعا ويقفا عند الجدار». أمر بشير ونستون، واضعاً السكين على حَلْق إيفي.

فكبتت إيفي صرختها.

«قوما بذلك». قال ونستون لهما محدّقاً إلى بشير.

انتظر بشير تراجع الرجل الأصلع وذي اللحية العُثنون بحذر، ومن ثم التفت إلى ونستون مجدداً وقال: «والآن، اطلب من الرجل الضخم الانضمام إليهما».

فأومأ ونستون برأسه للرجل مفتول العضلات، فابتعد الرجل الضخم بتردد عن الباب، وعبر الغرفة متجهاً إلى الجدار الأقصى.

نظر بشير إلى الرجال الثلاثة وصاح بهم: «استلقوا ووجوهكم نحو الأرض، وأيديكم على رؤوسكم».

عندها، نظروا بسرعة إلى ونستون الذي أومأ لهم برأسه، فاستلقوا على الأرض. بعد ذلك، ألقى بشير نظرة سريعة على مايسون وليني اللذَين كانا قد ابتعدا عن الجدار، فرفعا أيديهما وتراجعا.

نظر بشير حَوله للتأكد من سلامته، ومن ثم شرع بالتراجع تدريجياً نحو مدخل الباب، مصطحبا إيفي معه وهو يقول: «سأخرج من هنا الآن. وإذا حاول أي شخص إيقافي، وإذا حاول أي شخص اللحاق بي، فستموت الفتاة. هل هذا مفهوم؟».

فأكد له ونستون: «لن يتبعك أحد».

«من الأفضل لكم عدم اللحاق بي».

حدّقتُ إلى إيفي بعجز، راغباً في مساعدتها، وراغباً في اللحاق ببشير، ولكنني لم أجرؤ على التحرك. فما دام يضع السكين على حَلْقها، أعرف أنه ليس باستطاعتي المجازفة. كل ما يمكنني القيام به هو الجلوس ومراقبته وهو يجرّ إيفي إلى الخارج عبر مدخل الباب...

إن الذراع التي ظهرت من مكان ما وراءه تحركت بسرعة كبيرة، لدرجة أنني لم أُدرك في بادئ الأمر ماهيّتها. فقد رأيتُ حركة مشوَّشة فحسب، وشكلاً يتسلل خارج الظلال. عندئذٍ، وبعد إبعاد يد بشير التي تحمل سكيناً عن حَلْق إيفي وجَذْبها إلى جانب واحد، رأيتُ الشكل البشري وراءه. إنه رجل، رجل مُسنّ... ذو وجه هَرِم وأشيَب وعينَين عازمتَين...

«جَدّي؟!». سمعتُ نفسي أهمس، وأنا غير مصدِّق.

كان يلوي يد بشير اليمنى، ثانياً إيّاها إلى الوراء عند المِعصم لحمله على إسقاط السكين. بدا الألم على وجه بشير، ولكنه تشبّث بالسكين بعِناد، فسحب جدّي ذراعه اليسرى، وشرع بتوجيه ضربات بقبضة يده إلى جانب بشير، فأنّ هذا الأخير. ثم جذب جدّي ذراعه اليمنى مجدداً، وهذه المرة، وقعت السكين على الأرض. عندئذٍ، أفلت بشير إيفي، فاغتنمت الفرصة وركضت عائدةً إلى داخل الغرفة.

دار بشير على مِروده في اتجاه اليمين، ووجّه لكمة إلى جدّي بقبضة يده اليسرى، فانحنى جدّي إلى الوراء للتخلص من اللكمة، ولكنه لم يكن سريعاً بما يكفي وأصابه بشير على ذَقنه. أثناء ترنّح جدّي إلى الوراء، مُعشى البصر بشكل

مؤقت، كنت قد قفزتُ على قدمَيّ وركضت في اتجاه مدخل الباب. ولكن، أثناء تحرك بشير في اتجاه جدّي، وقبضة يده اليسرى متراجعة إلى الوراء، وهو مستعد لضربه مجدداً، عرفتُ أنني لن أصل إلى هناك في الوقت المحدَّد.

«جدّي!». صحتُ محاولاً تحذيره. «**جدّي!**».

عرفتُ أن الأمر ميؤوس منه. فجدّي مُعشى البصر جزئياً، وما زلتُ على بُعد أمتار قليلة منه، وبشير على بُعد نصف ثانية من توجيه ضربة ساحقة إلى رأس جدّي بقبضته...

لا بد أن تكون كورتني لين قد أصدرت صوتاً أثناء عبورها الممر بأقصى سرعة، ولكنني أُقسم إنني لم أسمع أي شيء. ففي لحظة من الزمن لم يكن هناك أي شيء، ثم ظهرت للعيان بسرعة فائقة في اللحظة التالية، مندفعةً نحو بشير كالصاروخ. كانت تتحرك بسرعة كبيرة لدرجة أن «بشير» لم يرَها وهي تتجه نحوه مطلقاً. راقبتُها وأنا مصدوم وخائف وهي ترمي بنفسها عليه، قافزةً على قدمَيها وصادمةً كتفها بظهره. لقد انفجر الهواء من رئتَيه، ثم طار واصطدم وجهه أولاً بالجدار المشيَّد بالحجارة، مُحدِثاً صوتاً مكتوماً موُقرِفاً. وبعد ذلك، انزلق على الجدار وانهار على الأرض كدُمية محطَّمة. اندفعت كورتني في اتجاهه بسرعة البَرق، وانحنت فوقه وقبضة يدها مسحوبة إلى الوراء مستعدّة للقضاء عليه، ولكن كان من الواضح أنه لن ينهض مجدداً. لقد خسِر بالعدّ.

انحنت كورتني ووضعت إصبعَين على عُنُقه متحققةً من نَبضه، ومن ثم قوّمت وقفتها، وأطلقت تنهيدة ارتياح، ونظرتْ إلى جدّي لتتحقق من أنه بخير، فرفع لها إبهامه، ومن ثم التفتت إليّ.

لم يكن بعد في حالة تسمح له بالتوازن على قدمَيه بشكل كامل، ولكنّ عينَيه كانتا طبيعيّتَين. وقفنا هناك للحظات قليلة رائعة ونحن نتبادل النظرات؛ كما لو أن أي أمر آخر في العالم لا يهمّ.

عندئذٍ، قال أحدهم شيئاً ما. لا أعرف من هو أو ما الذي قاله، ولكنه وضع حداً للصمت. وبعد ثانيةٍ، شرع شخص آخر بالتكلم. ونستون ورجال أوميغا، ومايسون وليني وإيفي؛ كلهم كانوا يهمهمون بارتياح كبير. أطلقتُ تنهيدة ارتياح طويلة، وراقبتُ توجّه جدّي إلى حيث كان بشير مُستلقياً، ووقف هناك محدِّقاً إليه.

ثم قال لي جدّي: «اعتقدتُ أنه يُفترض به أن يكون الشخص الصالح؟».

فأجبتُ: «حسناً، أجل... كان كذلك».

فتجهّم وجه جدّي وتابع مستفسراً: «إذاً، ماذا حدث؟».

فقلت ملتفتاً إلى ونستون ومنتظراً منه إجابة: «هذا ما أودّ معرفته».

فابتسم لي ونستون، ومن ثم نظر إلى جدّي قائلاً: «الأمر معقَّد نوعاً ما يا سيد ديلاني. هل يمكنني اقتراح التعامل مع بعض الإجراءات العملية أولاً؟ ومن ثم سأكون أكثر سعادة لدى شرح كل شيء لكم».

قال لنا ونستون: «بشير كمال عضو أساسي في شبكة إرهابية تُعرف بالثعبان بحسب ما نعرف. جُنِّد بشير من قِبَل عملاء الثعبان حين كان في الحادية عشرة من عمره لهدف محدَّد؛ ألا وهو التسلل إلى الأجهزة الأمنية البريطانية. كانت مهمةً طويلة الأمد، وقد تطلّب منه الأمر نحو خمس سنوات من التلقين، وإعادة التربية، والتكييف، والتدريب، قبل اعتبار الثعبان أخيراً أنه بات جاهزاً. وبعد يومَين من ذكرى ميلاده السادسة عشرة، وضعت شبكة الثعبان خطتها موضعَ التنفيذ.

فقال جدّي بهدوء وهو يهزّ رأسه غير مصدِّقٍ: «أتعني المتفجرة الانتحارية في إسلام أباد؟!».

فأومأ ونستون برأسه وقال: «تم جعل الأمر يبدو كما لو أن شقيق بشير كان ضحية عشوائية قضى نحبه بسبب التفجير، ولكن الحقيقة القبيحة هي أن سعيد كمال ذاك كان الهدف في الواقع. وقد قُتل على يد الثعبان بهدف توفير الغطاء المثالي لبشير كي يتسلل إلى أجهزة الاستخبارات».

فقلت عابساً في وجه ونستون: «تمهّل، أتعني أن شبكة الثعبان قتلت شقيق بشير ليبدو الأمر كما لو أن «بشير» يملك سبباً حقيقياً لكره الإرهابيين؟».

«بالتحديد». قال ونستون.

«هل كان بشير يعرف بالأمر؟».

«نعتقد ذلك».

فهمهمتُ: «يا إلهي، إنه أمر لا يصدَّق!».

«وهو كذلك». وافقني ونستون الرأي وتابع: «لقد آتى الأمرُ ثمارَه لهذا السبب بالتحديد. إذ لن يرتاب أحد بصدق بشير في كرهه لقاتلي شقيقه. فلماذا سيرتابون؟ ومن وجهة نظر أم آي 5، كان العميل السرّي المثالي. فهو باكستانيّ بريطانيّ شاب يكنّ كرهاً عميقاً للإرهاب، وهو مستعد وراغب في العمل معها... ما الذي يمكن طلبه أكثر من ذلك؟».

كان الوقتُ قد تخطى منتصفَ الليل، ولم يتبقَّ في غرفة بشير سوى أربعتنا. كنت أجلس على الأريكة البيضاء مع جدّي وإيفي، فيما ونستون جالس أمامنا على كرسيّ. فقد اصطحبت كورتني مايسون إلى المستشفى لفحص أضلاعه، ورافقهما ليني. أما بشير فقد نقله الرجل الأصلع ومفتول العضلات، وأعتقد أنه مسجون في مكان ما في المستودع. ورجال أوميغا الآخرون يحرسونه على الأرجح، أو يقومون بما يتعيّن عليهم القيام به.

«إذاً، متى اكتشفت أوميغا أن «بشير» عميل مزدوج؟». سأل جدّي ونستون.

فقطّب ونستون جبينه متسائلاً: «أوميغا!؟».

وحملق به جدّي قائلاً: «لستُ في مِزاجٍ مناسب للمُزاح».

التمع وميضُ إثارةٍ لفترة وجيزة في عينَي ونستون، ولكنه سرعان ما تماسك

تابع: «بدأت شكوكنا بعد قيام أم آي 5 بتفكيك خليّة إرهابية في ستراتفورد تسلّل إليها بشير. كانت الخليّة تخطط- كما هو مُفترض- لشنّ هجوم على السفارة الأميركية في لندن، وبدا الأمر كما لو أن أم آي 5 نجحت في إحباط عمليّتها. لقد اعتقدت ذلك بالتأكيد. ولكن حدثت بعض التناقضات الغريبة في شأن القضية؛ أمور صغيرة وغريبة، وكلما أمعنا النظر فيها ازداد ارتيابنا بوجود خَطْب ما».

«هل تشاطرتم شكوكم مع أم آي 5؟». سأل جدّي.

«هل كنتَ ستفعل ذلك لو كنت مكاننا؟».

«لا، على الأرجح». أقرّ جدّي.

«لقد استثمروا الكثير في بشير، وما كانوا لِيُصغوا إلينا. ولم نكن نملك أي دليل على أية حال».

«إذاً، ماذا فعلتم؟».

«شرعنا بالبحث عن دليل».

«وهل عثرتم على أي دليل؟».

فهزّ ونستون يده قائلاً: «عثرنا على بعض الأدلة التي لا يمكن الاعتماد عليها. كانت أكثر من كافية لتُقنعنا بأن «بشير» عميل مزدوج، ولكننا عرفنا أننا بحاجة إلى ما هو أكثر من ذلك لنُقنع أم آي 5 بأن أمنها قد تعرّض للخطر». أخذ ونستون نفَساً عميقاً وزفره ببطء وتابع: «في الواقع، هذا ما انتهى إليه الحال بالتحديد. فقد تعرّض جهاز الأمن القومي البريطاني لخطر مُهلِك من قِبل عميل مزدوج، وتعيّن علينا التعاطي مع ذلك».

«أنا متفاجئ من عدم تفكيركم مليّاً في تحييده». قال جدّي.

«أوه، لقد فكرنا في الأمر مليّاً. ولو اعتقدنا أنه الخيار الأفضل لَاعتمدناه. ولكننا أدركنا عندئذٍ أنه إذا كان باستطاعتنا أن نُثبت لـ أم آي 5 بأن «بشير» عميل مزدوج، فستكون هناك فرصة لتحويله، وباستطاعتهم جعله عميلاً ثلاثياً».

فأومأ جدّي برأسه مُدركاً الأمر وقال: «وهكذا، تعتقد الثعبان أنه رجلها الداخلي في أم آي 5، متظاهراً بكونه عميلاً لـ أم آي 5 ولكنه يمرّر المعلومات لها، في حين أن «بشير» يعمل فعلياً لصالح أم آي 5، ممرّراً معلومات خاطئة للثعبان، وجامعاً معلومات صحيحة عنها لينقلها إلى أم آي 5».

«صحيح». قال ونستون.

ووكزتني إيفي: «هل تفهم كلمة واحدة من كل ذلك؟».

فابتسمتُ مجيباً: «نوعاً ما... ولكن محاولة التفكير في ما يقولانه تؤلم رأسي قليلاً».

«إذاً، من الأفضل ربما عدم التفكير في ذلك».

الكفّ عن التفكير في هذه الأمور هو أكثر ما رغبتُ فيه. فقد كنت مُرهقاً كثيراً لدرجة عدم تمكني من البقاء مستيقظاً، فكيف أستطيع التفكير في أي شيء. ولكن، لم يكن بإمكاني الاستسلام للإنهاك بعد؛ إذ لا يزال هناك عمل غير مُنجَز مع ونستون.

تابع: «إذاً، بأية حال، بينما كنا نضاعف جهودنا لنُثبت أن «بشير» عميل الثعبان، تورّط المشرف عليه في أم آي 5 في فضيحة جنونية، فاتخذت أم آي 5 ذلك القرار السخيف بالكفّ عن استخدام بشير كمُخبر. لحسن الحظ، لم يؤثّر هذا الأمر كثيراً في الوضع. فبقي بشير عميلاً مزدوجاً، وعميلاً ثلاثياً محتمَلاً. لقد افترضنا أن الثعبان طلبت منه إخفاء مآربه لبعض الوقت، وانتظار قيام أم آي 5 بإدراك خطئها واستعادته».

فقال جدّي: «لذلك غادر لندن وجاء إلى بارتون».

«وتابعنا تحقيقاتنا. ومن ثم بدأت السي آي أيه بالتدخل في ما لا يعنيها، وغيّر هذا الأمر كل شيء. لم تكن تملك أية فكرة عن حقيقة بشير، أو عما يدّعيه. لقد اعتقدت أنه إرهابيّ فحسب، أو ربما يكون إرهابياً. ولو وضعت أيديها عليه لنُقِل بسرعة إلى مكان قذِر ولَما رأيناه مجدداً. وبالإضافة إلى كل ذلك، عندما اكتشفت أم آي 5 اهتمام السي آي أيه ببشير، عاودت الاهتمام به مجدداً». وتنهّد ونستون. «لذلك، تعيّن علينا التدخل، وكان علينا القيام بذلك بسرعة». وحدّق إلى أرجاء الغرفة ثم تابع: «لهذا السبب، اخترنا هذا المكان». ونظر إلينا مجدداً. «كان بشير يعلم أن السي آي أيه تلاحقه، وأن أم آي 5 قد تسلّمه إلى الأميركيين إذا عاد إلى الوكالة، لذلك عرضنا عليه الحفاظ على سلامته أثناء تدبّرنا حياة جديدة له؛ أي تدبر مكان إقامة جديد، وهويّة جديدة، وأمن ماليّ، وكل شيء».

«وهل خُدِع بذلك؟». سأل جدّي.

«إنه متكبّر، واعتقد أنه يحتال علينا. علاوةً على ذلك، كنا نجيد ما نقوم به».

«هذا ما بلغني».

«كنا نفضّل عدم القيام بأية خطوة في وقت قريب. فإخفاؤنا «بشير» عن السي آي أيه وأم آي 5 لم يكن خطوة مثالية، وكنا نعرف أن الأمر لن يتطلّب منهم وقتاً طويلاً ليعرفوا أنه لم يغادر إلى باكستان للاعتناء بجدته المريضة». وهز ونستون كتفَيه. «ولكنها كانت أفضل رواية للتغطية تمكنّا من وضعها في مهلة غير كافية».

عندها سألتُ: «لماذا تَعاون والدا بشير معكم؟».

«كانا يحميانه».

«هل يعرفان أنه إرهابي؟»

فهز ونستون رأسه نافياً وأجاب: «إنهما يعتقدان أنه بطل».

«لماذا؟».

«قلنا لهما إنه شاهِد أساسي في قضية ادّعاء تتناول عملية قتل قامت بها عصابة، وبما أن المدّعى عليه مجرم عنيف وذو تاريخ في ترهيب الشهود، أُبقي بشير بحماية الشرطة حفاظاً على سلامته حتى صدور حكم عن المحكمة».

تمتمتُ: «لا عجَب إذاً في خوف السيدة كمال الشديد».

قال ونستون: «تعيّن علينا تزويدهما بتفسير ما لسبب اختفاء ابنهما بشكل فجائي. كان وضعاً صعباً، وازداد صعوبة عندما طلب جون رودي من ديلاني

وشركاؤه البحث عنه لمعرفة ما حلّ به». وكفّ عن الكلام للحظات ناظراً إلى جدّي. «ولكنني واثق من أنك على عِلم يا سيد ديلاني، بأننا لا نُطيل التفكير في السلبيات في خط عملنا، بل نتطلّع باستمرار إلى تحويل الوضع ليكون لصالحنا».

فقال جدّي من دون تردد: «لقد حصلتَ على ما تحتاج إليه الآن، أليس كذلك؟ فقد صوّرتَ كل ما حدث الليلة». ثم نظر إلى أنحاء الغرفة وتابع: «أفترض أن كاميرات السي سي تي في الموجودة هنا مخبَّأة، أليس كذلك؟».

«إنها الأكثر تطوّراً، ومن نوعية جيدة بشكل مُدهش. كنت أضع كاميرا على شكل زرّ كوسيلة للدعم. وقد حاولنا في الواقع خداع بشير من قَبل للكشف عن نفسه، ولكنه لم يفعل. ولكن، هذه المرة...» وألقى ونستون نظرة سريعة عليّ وعلى إيفي وتابع: «حسناً، لقد قمتم بكل شيء لمساعدتنا في الواقع. فعندما سمحنا لبشير بالتحقق من أن محاولتك لإنقاذه صادقة، بات من السهل عملياً إقناعه بأن السي آي أيه تلاحقنا، وأننا على وشك تسليمه لهم».

فقلت بسأم: «لقد استغللتنا. أردتَ من بشير أن يأخذ مسدسك، وقد تعمّدتَ السماح له بأخذه، وسمحتَ له بتهديد إيفي به...»

«لم يكن مذخَّراً. ولم تكن في أي خطر».

فقلت بغضب: «وماذا عن السكين؟».

«حسناً، أجل، إنه أمر مؤسف». قال من دون إلقاء أية نظرة على إيفي. «ولكن ذلك أثبت بدون شك أي نوع من الأشخاص هو بشير في الواقع. ولدينا كل شيء مسجَّل على شريط فيديو». وهز كتفَيه. «ربما لا يكون هذا كافياً بمفرده لإقناع أم آي 5، ولكن حالما يرون كل ما لدينا عنه ستُقفَل القضية».

«هل تعتقد حقاً أن باستطاعة أم آي 5 تحويله إلى عميل ثلاثي؟». سأل جدّي

فاعترف ونستون: «لا ضمانة لأي شيء. ولكنهم يحاولون منذ سنوات التسلل إلى هذا النوع من المجموعات الإرهابية من دون أن يُفلحوا في ذلك، لذلك إذا كان باستطاعتهم تحويل بشير، فستكون هذه خطوةً كبيرة إلى الأمام». ونظر إليّ ثم تابع: «يتعيّن علينا أحياناً القيام بتضحيات صغيرة لصالح فوائد محتمَلة طويلة الأمد. فالمخاطرة بحياة شخص ما اليوم قد تُنقذ آلاف الحيوات في السنوات القادمة».

«كنتَ تعلم أنني سآتي بحثاً عن بشير الليلة، أليس كذلك؟».

«لم أكن أعرف أي شيء يا ترافيس. ولكنني كنت أحاول رفع فُرصنا إلى الحد الأقصى. ففي عملية كهذه، عليك أن تكون مستعداً للتعاطي مع أنواع الحالات الطارئة كافة».

فقلت وأنا أنظر إلى عينيه مباشرة: «تماماً. وماذا عن أبي وأمي؟ هل كانا مجرد حالة طارئة أخرى تعيّن عليك التعاطي معها؟».

فقال وقد بدا مُرتبكاً: «آسف، لم أفهم».

«كانا يعرفان أنك هنا».

لم يقل أي شيء، وبدا محتاراً.

فتابعت: «لا أعرف كيف فعل أبِي ذلك، ولكنه عرف بشأن هذا المكان. لقد اكتشف أنكم هنا، والتقط صورَ مراقَبةٍ من الجِهة المقابلة للطريق».

فتساءل ونستون: «أتقول إنه التقط صوراً فوتوغرافية؟!».

«كان يعرف أيضاً أن أم آي 5 مهتمة ببشير. ولهذا السبب، كان متوجهاً بالسيارة إلى لندن مع أمي. كانا ذاهبَين لرؤية شخص ما يعمل في أم آي 5».

ألقى ونستون نظرة سريعة على جدّي وسأله: «هل كنتَ تعرف ذلك؟».

فتجاهله جدّي ملتفتاً إليّ وقال: «تابع يا ترافيس».

قلت لونستون: «أعتقد أنك كنت تعرف وُجهة والدَيّ في ذلك اليوم. وأعتقد أنك حاولت إيقافهما. بل في الواقع، أعتقد أنك أوقفتهما بالفعل».

«لا». قال ونستون بحزم هازّاً رأسه. «كنا نعرف أن والدَيك قد استؤجرا للعثور على بشير، ولا أنكر أننا تحققنا من أمرهما وراقبناهما. ولكنني أؤكد لك أن هذا كل ما في الأمر. وإذا كانا ينويان أن يقابلا شخصاً ما في أم آي 5 في ذلك اليوم، فلم نكن على عِلم بذلك بالتأكيد».

«إذاً، لماذا كنتَ في جنازتهما؟».

«لقد أخبرتُك. كنا على عِلم بالتحقيق الذي يُجريه والداك، وأردنا معرفة ما إذا كان هناك من يعرف بذلك أيضاً».

«ولكنك قلتَ إنكم كنتم تراقبونهما ليس إلا».

«صحيح».

«لقد صوّرتَ جنازتهما بكاميرا مخبَّأة، لذا لا يبدو لي أنك تراقبهما».

فهز كتفَيه فحسب.

«كما أنكم تكبّدتم عناء تدبّر أعمال شغب لتتمكنوا من تفتيش مكتبهما من دون أن يعرف أحد. أعني، إذا لم يكونا مَحطّ اهتمام حقيقي من قِبَلكم، فما الذي كنتم تبحثون عنه؟».

«انظر»، قال ونستون، وقد بدا عصبيّ المِزاج. «لا أعتقد حقاً...»

غير أنني قاطعته وبادرته بسؤال: «كيف تضرّرت عربة نقلكم المُقفَلة؟».

«ماذا؟!».

«عربة النقل من طراز مرسيدس. هناك انبعاج فوق الإطار الأمامي الأيسر».

«ما علاقتنا بذلك؟».

«هناك بُقَع صغيرة صفراء ظاهرة على هيكل العربة مكان الانبعاج». وحدّقتُ إليه بقسوة وتابعت: «وسيارة أمي صفراء».

فضحك بهدوء وقال: «آسف يا ترافيس، ولكن الأمور بدأت تتخطى الحدود قليلاً الآن. إذا كانت على إحدى عرباتنا خدوش صغيرة...»

«كيف عرفتَ أن سيارتهما قد خرجت عن الطريق واصطدمت بشجرة؟».

«عفواً؟!».

«عندما كنتَ تخبرني عن تحطّم سيارة والدَيك، قلتَ: لم يخرجا عن الطريق فحسب ويصطدما بشجرة لسبب غير واضح، بل لأن والدي كان ثملاً».

فتجهّم وجهه وقال: «لا أوافقك الرأي».
«كيف عرفتَ أنّ سيارة والدَيّ قد خرجت عن الطريق؟».
فقال بطريقة مستنكرة: «لا أعرف. أفترض أنني قرأت الأمر في تقارير الصحف...»
غير أنني قاطعته مجدداً قائلاً له: «لا، لم تفعل. ففي وقت مبكّر من هذا المساء، قضيتُ ساعة من الزمن على الإنترنت وأنا أتحقق من مقالات كل صحيفة تمكنتُ من العثور عليها عن حادث التحطم. لم تذكر أيٌّ منها أي شيء عن خروج سيارة عن الطريق».
فهز ونستون كتفَيه قائلاً: «إذاً، ربما حصلتُ على الخبر من تقرير الشرطة. فلدينا مصادر معلومات في الشرطة، وليس من الصعب الحصول على تقارير رسمية...»
غير أنني قلت له: «لا أصدّقك. أعتقد أنك تعرف بشأن خروج سيارتهما عن الطريق لأنك كنتَ هناك في ذلك الوقت. لقد رأيتَها وهي تخرج عن الطريق. وكنتَ تعرف أنهما عرفا بأمر المستودع، وكنتَ تعرف أنهما ذاهبان للتحدث إلى شخص ما في أم آي 5، ولم ترغب في حدوث ذلك. ولذلك، أخرجتَهما عن الطريق».
«لا».
«لقد قتلتَهما».
«لا، أنت مُخطئ. ويمكنني إثبات أنك مُخطئ».
فحدّقتُ إليه.
عندها، قال لي: «يمكنني أن أُريك شيئاً ما في الحال يُثبت لك من دون أدنى شك أن لا علاقة لي أو لزملائي بوفاة والدَيك».
كنت متأكداً من أنني مُحِق، غير أنّ ونستون بدا واثقاً جداً من دليله لدرجة عدم تأكدي من أنني مُحِق ومن عدم معرفتي ما أقوله. وجلستُ هناك فحسب، مراقباً إيّاه وهو يقف ويُخرج هاتفاً محمولاً من جَيبه.
ووضع الهاتف على أُذُنه، وانتظر للحظات، ومن ثم قال: «هذا أنا. أنا بحاجة إلى تلك الملفات. هل ما زلت في غرفة العمليات؟». وأصغى للحظات قليلة، ومن ثم تكلم مجدداً وقال: «لا، لا بأس، سأحصل عليها». وأنهى الاتصال ووضع الهاتف جانباً ثم قال لي: «سأعود بعد دقيقتَين، اتفقنا؟».
فأومأت برأسي موافقاً، وعندها استدار وخرج من الغرفة.
«كان يُفترض بك أن تتحدث إليّ يا ترافيس». قال لي جدّي بهدوء.
«لقد حاولتُ».
كان يُفترض بك أن تحاول بجهد أكبر».
فنظرت إليه وقلت: «أنا آسف».
غير أنه هزّ رأسه قائلاً: «ليس خطأك».
بعد ذلك، غصنا في الصمت، وثلاثتنا جالسون هناك، محدِّقين إلى لا شيء، وتائهين في عالمنا الصغير.

لا أعرف كم من الوقت مرّ قبل أن يخطر ببالي أن ونستون لن يعود. مرّت خمس دقائق ربما، وربما أكثر بقليل. لم يكن إدراكاً تدريجياً، بل عرفتُ فجأةً أنه لن يعود. لقد خدعني. لقد خدعنا جميعاً. فلا وجود لأي ملفات، ولا دليل على أي شيء. لقد ذهب. لقد ذهبوا جميعاً؛ هو، والرجل الأصلع، وذاك مفتول العضلات، والآخرون. لقد اصطحبوا «بشير»، ودخلوا سياراتهم، وغادروا بهدوء.

فالتفتُّ إلى جدّي ووجدتُ أنه يعرف ذلك أيضاً.

وقد قال منزعجاً من نفسه: «آسف يا تراف. كان يُفترض بي أن أحزر».

فسألتْ إيفي متثائبة: «ماذا يجري؟».

فتنهد جدّي وقال: «مرّ وقت طويل على خروجي من هذه اللعبة».

تحققنا من بقيّة المستودع قبل أن نغادر، تحسُّباً لكوننا مخطئَين في شأن ونستون، ولكن لم تكن هناك أية دلالة على الحياة في أي مكان. وعندما نظرنا إلى موقف السيارات ولم نجد سيارة البي أم دبليو والمرسيدس، فأدركنا أن لا طائل من إجراء المزيد من البحث.

لقد غادروا بالتأكيد.

وحان وقت مغادرتنا أيضاً.

كان جدّي قد ترك سيارته على بُعد شارعَين. لم أشعر حقاً برغبة في التحدث، ولذلك طلبتُ من إيفي الجلوس على المقعد الأمامي قرب جدّي، في حين جلست على المقعد الخلفي. وأثناء عبورنا البلدة وتوجُّهنا إلى سليد، أغمضتُ عينَيّ فحسب وتركتُ نفسي أنجرف.

لم يحتج وصولنا إلى شقة إيفي وقتاً طويلاً.

وأثناء شُكرها جدّي على إقلاله لها وخروجها من السيارة، فتحتُ الباب الخلفي وخرجتُ أيضاً.

قلت لها:»سأسير معك إلى شقتك».

فقالت لي: «لستَ مضطراً إلى القيام بذلك».

«أريد ذلك».

فقالت مُطلقةً ابتسامة عريضة أثناء إشارتها إلى المبنى الموجود أمامنا مباشَرةً: «شقتي هناك فحسب. أعني، إذا كنت تريد حقاً السير معي إلى باب بيتي مسافة مترَين...»

«حسناً، أفترض أنني لا أريد...» تمتمتُ وأنا أشعر بالغباء نوعاً ما.

وفاجأتني بعد ذلك بوضعها ذراعَيها حولي ومعانقتي، ومن ثم فاجأتني أكثر فأكثر بتقبيلي على خدّي.

«شكراً لك على هذه الليلة الرائعة في الخارج يا تراف».

فابتسمتُ وقلت: «أهلاً وسهلاً بك».

«اتصل بي من حين إلى آخر، اتفقنا؟».

«أجل...» تمتمتُ مراقباً إيّاها أثناء ابتعادها. «أجل، اتفقنا...»

قال جدّي أثناء خروجنا من سليد: «إنها فتاة لطيفة».

«أجل».

وانتظر لحظات قليلة ومن ثم قال: «كم يبلغ عمرها؟ خمسة عشر عاماً، أو ستة عشر؟».

فأقررت قائلاً: «لا أعرف. هل للأمر أي أهمية؟».

فألقى نظرة سريعة عليّ وقال: «كنت أسأل فحسب. ولا حاجة إلى تغيّر مِزاجك بسبب ذلك».

«لم يتغيّر مِزاجي بسبب أي شيء».

«حسناً. إذاً، لا بأس».
«أجل».
ولزمنا الصمت مجدداً. كان صمتاً مُربِكاً إلى حد ما، ولكنه بدا مناسباً نوعاً ما، ولم يكن هناك أي شيء غير مريح في شأنه.
بعد مرور دقائق قليلة قلت: «إذاً، لم تخدعْك الوسائد تحت اللحاف، أليس كذلك؟».
فأجاب جدّي بسخرية: «قد لا أكون حاد الذكاء كما كنت سابقاً، ولكنني لم أفقد كل فِطرتي السليمة بعد».
«كيف عرفتَ أنني ذاهب إلى المستودع؟».
«لم يكن تخمين ذلك صعباً. أعني، هل هناك مكان آخر لتقصده؟». وألقى نظرة سريعة عليّ، ثم تابع: «لم تُزل سجلّ التصفّح من جهازك الحضني أيضاً».
«»إذاً، لقد عرفتَ أنني أتحقق من سوتون لين على غوغل إيرث».
فأومأ برأسه وقال: «رأيتُ كل الأشياء الأخرى التي كنت تبحث عنها أيضاً؛ أي تقارير الصحف عن حادث تحطّم السيارة».
«كان عليّ التحقق من الأمر يا جدّي. فإذا لم تذكر الصحف أي شيء عن خروج سيارة أمي عن الطريق، فكيف عرف ونستون بذلك إذاً؟».
«باستطاعته معرفة ذلك من تقرير الشرطة. فليس من الصعب عليه الحصول على نسخة».
«هل ذكر تقرير الشرطة أن السيارة قد خرجت عن الطريق؟».
«لا أذكر. سأراجع نسختي عندما نعود».
«ولكن، حتى لو كان ونستون يقول الحقيقة عن ذلك...»
فقال جدّي: «أعلم. لا يعني ذلك أنه لم يكن هناك عندما خرجت السيارة عن الطريق».
«هل تعتقد أنه كان هناك؟».
«أعتقد...» وتردد قليلاً ثم تابع: «أعتقد أنه أمر محتمَل تماماً، أجل».
«حقاً؟!».
ألقى نظرة سريعة عليّ وقال: «كنتُ مُخطئاً يا ترافيس، وأنت كنتَ مُحِقاً. ما يتعيّن علينا القيام به الآن هو البدء بالعمل معاً لنُثبت أنك مُحِق».
لم أتمالك نفسي من الابتسام، وسألته: «هل سنعمل معاً؟».
فرمقني بنظرة صارمة وأجاب: «ما دمتَ تَعي أن عملنا معاً يعني كفّك عن التسلل عبر نافذة الحمّام وفرارك بمفردك».
فتمتمتُ: «آسف يا جدّي، ولكنني لم أستطع...»
تابع: «وإذا قررتُ حقاً الإبقاء على الوكالة، وإذا قالت جدتك إنه لا بأس في أن تساعدني...»
فقاطعته قائلاً بحماسة: «إذاً، هل ستُبقي على الوكالة؟».
فَلانت ملامح وجهه قليلاً وقال: «حسناً، لم أتخذ بعد قراراً نهائياً. لقد أجريت

حديثاً سريعاً مع كورتني في هذا الشأن في وقت سابق، وهي متلهّفة للمحاولة حقاً، ولكنني لا أزال بحاجة إلى بحث الأمر مع جدتك والجدة نورا. وحتى لو وافقتا على ذلك، لا يزال هناك الكثير للتفكير فيه مليّاً؛ كوضْعنا المالي، وصحتي، ونوع الأعمال التي سنضطلع بها، وما إذا كنا سنتخصص بأمر معيَّن أم لا...»

أثناء مواصلة جدّي الكلام، اتّضح لي تماماً أنه اتخذ قراره. فهو سيُعيد فتح مكتب ديلاني وشركاؤه، وسنُبقي على مؤسسة أبي وأمي. لقد عنى لي ذلك كثيراً؛ لدرجة أنني ألقيت رأسي على ظهر مقعد السيارة، وعدتُ بالذاكرة إلى الأسابيع القليلة السابقة؛ إلى الحِدّة، والتصميم الأعمى، والحاجة اليائسة إلى المعرفة... بدا لي كما لو أن كل شيء يخرج مني ويطفو. وللمرة الأولى منذ وفاة أبي وأمي، شعرتُ برغبة في النوم.

وأثناء إغماضي عينَيّ وسماحي لنفسي بالانجراف في تيار النوم، تساءلتُ عن كيفية تمكن المرء من الشعور بهذا القَدْر من الحزن والسعادة في آن معاً.

معلومات عن الكاتب

كفين بروكس هو مؤلف سبعة كتب للبالغين الشباب. وقد لقيت كتبه استحساناً كبيراً، وحاز على عدة جوائز. تُرجمت هذه الكتب إلى لغات عديدة مختلفة، ونُشرت بنجاح كبير في مختلف أنحاء العالم. كما كتب أيضاً روايات مثيرة للبالغين. وسلسلة ترافيس ديلاني هي الغزوة الأولى إلى القصص الخيالية للقراء الأصغر سنّاً. بعد عمله في أماكن شتّى، هو الآن متفرغ للكتابة. وهو يُقيم في ريشموند، يوركشاير، مع زوجته.

انتهى

---

[1] لحية صغيرة مدبَّبة في أسفل الذَّقن.

[2] قفص أو دلو لرفع أو إنزال أشخاص أو بضائع في المناجم أو مقالع الحجارة.